قيامة أدهم حمدي

"خيانة وعودة"

"إبراهيم الريحاني"

تأليف: إبراهيم الريحاني

غلاف : ريم حسين

تدقيق : أميرة محمود

تنسيق: أميرة محمود فتحي

الطبعة: الأولى

المقاس: ١٤×٢٠

رقم الإيداع: ٥٣٨٥/٢٠٢٣

الترقيم الدولي: ١-٦١-٨٩٦٢-٩٧٧-٩٧٨

بالتعاون مع دار المصرية السودانية

الإمارتية

المدير العام/ حسن محمد حسن

الناشر: دار الكتابة تجمعنا للنشر والتوزيع

"إهداء"

"إلى أختي العزيزة..... فلتعلمي يا عزيزتي بأنني أشتاق إليكِ كثيرًا.. وأشتاق للحديث معكِ.. أشتاق لرؤيتكِ.. جميعنا نتوق لرؤيتكِ.. أنا وإخوتي حسن ومحمد وفارس وأبي .. وأمي.. أمي التي يخيم عليها الحزن دائمًا.. الفرحة بالنسبة إلينا دائمًا ما تكون غير مكتملة.. منذ رحيلك تغير كل شيء.. كنت أتمنى أن تكوني بجواري وتقرأي هذه الكلمات التي كتبتها.. بالطبع كنتِ ستكونين أكبر داعمٍ لي في هذه الرحلة الشاقة المتعبة.. نعم ما زلت أتذكّر كلماتنا.. "وأنت تفعل ما يحلو لك تذكّر أن هناك من يخشى عليك من عثرات الحياة".. ولكني سأقولها لكِ صريحة.. إنَّ الحياة لا طعمَ لها بدونك.. لم تعد كما في السابق.. طيب الله ثراكِ وجمعني بكِ في جنات النعيم........فليرحمك الله. الأحد ٤\١\٢٠١٥م"

"إهداء"

"إلى أخي حسن.. لقد تعلمتُ منك الكثير.. دائمًا ما أكون سعيدًا عندما أكون بصحبتك.. أخي محمد.. دامت صداقتنا.. كنت داعمًا لي.. أحبك كثيرًا.. أما عنك يا فارس.. فقد تعلمت منك شَيئًا سأخبرك به لاحقًا عندما أعرفه.. ولكن دعني أهمِسُ بأنني أرَى لك مستقبلًا باهرًا في الرَّسْم.. أما عن أبي وأمي فبحثتُ كثيرًا في داخلي عن كلماتٍ تَفِيَكُما حقَّكما فلم أجد ما يناسبكما.. أدامكما الله.. وأخيرًا صديقي أحمد.. أنت مثال للصديق المثالي.. تعلمت منكم الكثير.. وأفتخر بكم جميعًا"

"شكر وتقدير"

"إلى الرجل الذي دعمني وساعدني بعلمه، وصحح لي كثيرًا من المفاهيم الخاطئة، إلى اللواء..عدنان العبيدات.. الأردن، جزيل الشكر لشخصك الكريم."

لم يكن مجرد لاعب، ولم تكن مجرد لعبة، لقد كان ملهمًا، كنت أنظر إليه وهو يصول ويجول في الملاعب الأوروبيه وأنا في سعادة بالغة، دائمًا ما يمدني بالطاقة الإيجابية، لقد برهن أن المستحيل ما هو إلا كلمة نستطيع تخطيها بالعمل الجاد والمثابرة، كان ناجحًا فجعل الجميع يتغنى باسمه، محمد صلاح لم يكن مجرد لاعب، هو مصدر بهجة وسعادة لي، لذلك هو ملهمًا، من الغريب أن يكون ملهمك يكبرك بعامين أليس كذلك؟.. لكنه فعلها.

"مقدمة"

"عزيزي القارئ أنت تستطيع فعلها، لقد كنتُ قارئًا في البداية، كنت أحب الكتابة ولكن ليس لدرجة أن أسرح بخيالي بعيدًا لأكتب هذه الرواية. ذات يوم كنت أجلس أمام منزلي أقرأ في أحد الكتب، جاءَني بعض الأشخاص، كان أحدهم يمازح الآخر ويقول له إنه شخص ليس لديه مسؤوليات حتى ينشغل بها، ليضحك الآخر ويقول ساخرًا.. وغدًا يا صديقي يصيرُ كاتبًا.. إنه يحلم أحلام اليقظة، تقبلت الكلام بدافع المزاح ولكن بعدما رحلوا جلستُ أفكر.. لِمَ لا؟!.. لِمَ لا أفعلها؟!.. لماذا لا أطور من نفسي؟!.. ومن هنا بدأت الحكاية، جعلت الموضوع تحدٍ بيني وبين أشخاص كثيرين، وها أنا قد بدأت المحاولة، ولكني لم أنهها بعد، ولكن مهلًا.. كِدتُ أنسى أن أخبركم بأن أحداث هذه الرواية من وحي خيالي، ليس لها علاقة بالواقع، وكذلك الشخصيات لا تمت إلى الحقيقة بصلة.

أهلًا ومرحبًا بكم في مزرعة البروجي، حيث الأسوار الصخرية العالية، والبوابة الحديدية التي يماثل ارتفاعها ارتفاع السور، والأشجار العالية المخيفة، وحيث أبراج المراقبة والحراس الذين لن يتوانوا في قتل مَن يخرج على كبيرهم.... وضاح البروجي، إن كنت ستبحث عن المال؛ فاحذر أن تكون ضحية جشعك وأطماعك، وإن كنت تتمتع بالثقة الكاملة تجاه أحدهم؛ فاعلم أن الخيانة ستصيبك أينما كنت، ستجد نفسك في متاهة لن تستطيع الخروج منها إلا إذا استطعت فك شفرة رموزها، وبينما أنت ذاهب إلى الصيد.....هل...... ستكون الصياد؟..... أم الفريسة؟.

(1)

كانت الأجواء الحماسية تخيم على الأستوديو، عندما ظهر الدكتور عمرو الليثي من بعيد، التصفيق الحار والصافرات تعلو كلما حاول بدء الحلقة، الجمهور لا يتوقف عن التعبير على حبه وامتنانه إلى الضيف، حيث راحوا يرددون بعض الكلمات التي تبعث بالفخر، وبعد دقائق من التصفيق هدأت الأجواء، وبدأت الكاميرة تقترب من الإعلامي وضيفه لتظهر لنا صاحب تلك الهتافات، فبدأ الدكتور عمرو يتحدث مفتتحًا الحلقة، حيث قال:

- أهلًا وسهلًا ومرحبًا بكم في حلقة جديدة من برنامج واحد من الناس، ضيف حلقة اليوم هو بطل مغوار، بطل يتغنى باسمه الجميع في هذه الآونة، بطل خارق كما يسميه البعض، قرر أن يضحي بنفسه من أجل أمن واستقرار من حوله، التقطت كاميرات المراقبة بعض المشاهد وهو ينقَضُّ على المجرمين دون هوادة، رحِّبوا معنا بالبطل الذي جعل من نفسه درعًا واقيًا لحماية الكثير والكثير، رحبوا معنا بالبطل أدهم حمدي.

- كيف حالك يا أدهم؟.

في وسط تصفيق حار من الجمهور والأضواء الجميلة الجذابة، بدأ المشهد يتسلط على أدهم والذي ابتسم خجلًا وهو يجيب بعدما هدأ الجمهور:

- الحمد لله، كيف حالك يا دكتور، شكرًا جزيلًا على هذه المقدمة الجميلة، ولو أن فيها مبالغةً بعض الشيء.

- لا.. لا يوجد مبالغة وما شابه، الذي فعلته يا أدهم تستحق عليه التقدير والثناء.

- شكرًا لك.. ما فعلته شيء بسيط، لقد كان التوفيق من عند الله.

سكت الدكتور عمرو قليلًا ثم نظر في بعض الأوراق التي أمامه ثم سأله قائلًا:

- أدهم.. ألم تَخَفْ وأنت تركض على فرد العصابة؟!، خصوصًا وهو يحمل سلاح ناري في يده.

- لا.. لم أخف إطلاقًا.

- إذن أخبرنا ما الذي حدث من البداية؟، أخبرنا حتى يعرف الجميع ما فعلتَه.

رجع بظهره إلى الخلف، وهو يمعن النظر إلى الجماهير، التي تنتظر بترقب، وتحدث قائلًا:

- لقد كنت ذاهبًا إلى البنك، كي أنهي بعض الأوراق، وبعدما دخلت بخمس دقائق فقط، وجدت الباب يُدفع بقوة شديدة، ومن ثَم دخل منه أربعة أشخاص يحملون أسلحتهم، دخلوا وأغلقوا الباب بإحكام، وقف أحدهم على الباب، والثاني ظل يجمع المتواجدين في الطابق الأول،

والإثنان الآخران صعدوا إلى الأعلى ومعهما مفاتيح الباب، كي يجمعوا الموظفين ويجلبونهم إلى الأسفل.

- يجمعونهم رهائن، أليس كذلك؟!.

- بالضبط.. كما تفضلت.

- أجل.. وماذا بعد؟.

بدأ الجمهور ينجذب إلى الحوار أكثر، ينتظر في ترقب حتى يكمل أدهم القصة، حيث قال:

- في هذه الأثناء كنت مختبئًا خلف ماكينة الصراف، كان بجوارها شجرة زينة، سحبتها إلى جانب الماكينة تمامًا، بحيث لم يظهر مني شيء، كان هناك اثنان من الموظفين مختبئان أسفل المكتب، ما أن رآهم الفرد المسلح الذي كان يجمع الناس، حتى توجه ليجلبهما، في هذه الحالة أصبح غير مرئي للشخص الذي يقف على الباب، فيما الإثنان اللذان بالأعلى، يزداد صياحهما على الموظفين، فَطِنتُ حينها بأنهما ما زال أمامهما وقت حتى ينزلا، التفتُّ حولي فوجدت بجانبي اسطوانة إطفاء حريق، انتظرت حتى يصبح بمحاذاتي، ومن ثَم حملتُ الإسطوانة وضربته على رأسه، ثم سحبته بجانب ماكينة الصراف، الشخص الذي يقف على الباب شعر بأن هناك خطب ما يحدث، جاء ليتفقد الوضع وليعرف ما الذي أخَّرَ زميله هكذا، في هذه الأثناء كنت في انتظاره خلف الجدار الذي في المنتصف.

- صحيح.. هذا يظهر أمامنا في الكاميرات، أكمل يا أدهم.

- بالطبع.. وما أن تخطى الجدار حتى ضربته على رأسه.

- ألم تخف وأنت تفعل ذلك؟!.

- أنا لم أعتد أن أكون جبانًا، وخصوصًا أن الجميع في حالة ذعر.

- أحسنت صنعًا، أكمل.. ما الذي حدث بعد ذلك؟.

- وبعد ذلك سحبته حتى أضعه بجانب صديقه، فجاشت مشاعر الناس فرحًا، وأخذوا يهللون ويمدحونني ناسين الشخصين اللذين بالأعلى، صمت الجميع على صوت أحدهم وهو يصرخ على الآخر آمرًا إياه أن ينزل ويرى ما يحدث بالأسفل، اختبأت تحت السلم، وما أن نزل عاد الجميع يصيح مجددًا، ليصيح هو بصوته الغليظ ويتقدم خطوة تتبعها أخرى، إلى أن أفسح لي المجال كي أخرج من مخبئي، خرجت مسرعًا وضربته بقوة بالإسطوانة، في هذه الأثناء لم يتبقَّ سوى شخص واحد فقط، الشخص الذي بالأعلى الذي معه المفاتيح، وهذا حدث له مثلما حدث لصديقه، بدأ يوجه الناس بسلاحه إلى الأسفل، نزل الجميع ومن ثَم نزل خلفهم وكله ثقة بأن زملاءه قد جمعوا كل مَن في البنك، وما أن نزل الدرجة الأخيرة، خرجتُ من جانب الحائط وضربته على رأسه، ثم بعد ذلك أخذت منه المفاتيح، وفتحنا الباب للشرطة ومن ثم أخذوهم وانصرفوا.

عاد الجمهور بوصلة تصفيق حار مجددًا، وتوقفوا حينما تحدث الإعلامي قائلًا:

- لقد فعلت شيئًا عظيمًا جدًا، بالفعل قليل عليك كلمة بطل.

- والله يا دكتور عم...

- أدهم.. أدهم.. أدهم.

- دكتور عمرو؟!.

- دكتور عمرو مَنْ أيها الأبله؟!.

فتح أدهم عينيه مستيقظًا من حلمه الذي أصبح بطلٌ خارق، والجميع يتغنى باسمه، وكان في استضافة الدكتور عمرو الليثي، في برنامجه الشهير واحد من الناس، ليجد أخته دعاء أمامه تفتح النافذة فتغمر أشعة الشمس الغرفة.

نظر إليها نظرة حانقة ثم قال:

- ماذا بكِ يا دعاء؟!..تَبًّا لكِ، لقد أيقظتيني من أجمل مشهد في الحلم.

نظرَتْ إليه وهي ترفع حاجبيها وتضحك بسخرية قائلة:

- عجبًا لك ولحلمك، انهض كي تذهب إلى العمل أيها الكسول.

ثم توجهت نحو النافذة الأخرى حتى تفتحها وهي تقول بسخرية:

- ومَن دكتور عمرو هذا؟.

نظر إليها وهو يعرف إن أخبرها ستنهال عليه بوابل من كلمات السخرية والإستهزاء، تنحنح ثم ابتسم ابتسامة لطيفة وقال:

- الدكتور عمرو الليثي.

ضحكت بصوت عالٍ وهي تحدّق فيه بعينيها رافعة حاجبيها ثم قالت مازحة:

- وماذا يفعل الدكتور عمرو الليثي معك في الحلم؟!.

اقتربت منه قليلًا وهي تبتسم محملقةً به بنظرة ماكرة وأردفت:

- انتظر دعني أخبرك، على الأرجح أنك فعلت مصيبة في الحلم، أليس كذلك؟!.

حَدَّق إليها وعلى وجهه ابتسامة عريضة بسبب شكلها الذي يشبه الأراجوز، حيث تعقد عصبة على رأسها وتلف ذيل جلبابها الطويل على خصرها وبنطالها الوردي الواسع، كل هذه الأشياء تجعله يضحك لا إراديًّا، بدأ يحكي لها عن الحلم من أوله، وهي كلما سمعت كلمة تعالت ضحكاتها أكثر، حتى دخلت عليهما أمهما لتخبرهما أن الغداء كاد أن يبرد، نزل أدهم من على سريره متوجهًا إلى الحمام ليعدل من هيئته حتى يذهب إلى العمل بعد الغداء.

كانت الغرفه في طرف المنزل لها بابان، باب خارجي على الشارع وباب آخر داخلي يؤدي إلى الممر، والممر يوجد في نهايته الحمام وبجواره المطبخ وعلى الجانب الأيمن توجد غرفة دعاء، وفي الجانب المقابل غرفة والدتها، وهذه هي غرفة الضيوف ينام فيها أدهم، تحتوي على سريره وأربعة كراسي متواضعة جدًا وطاولة

متآكلةٌ حوافها، وبجانب الحائط خزانة صغيرة للملابس، كما يوجد بها نافذتان قديمتان كل واحدة منهما على جهة، بينما السقف من ألواح الخشب وكان ذلك ما يميز منزلهم قليلًا عن بعض منازل جيرانهم من المنازل الطينية.

*****

هندم أدهم ثيابه ورتَّب أغراضه حتى يذهب إلى العمل، إنه يدعى أدهم حمدي ذو الواحد والثلاثين عامًا، يتميز ببنيته الجسمانية القوية وعضلاته البارزة وقامته الطويلة، وشعره الأسود الداكن الذي يميل للخشونة قليلًا، ذو بشرة برتقالية وعينين بنيتين، يعيش برفقة أمه وتدعى فاطمة، وأخته دعاء ذات الثلاثة والعشرين عامًا، والتي تتميز بملامح وجهها الطفولي وطولها المتوسط ونحافة جسدها، عيناها تشبه عيني أدهم كثيرًا، كلما تقدم أحدهم لخطبتها ترفض بحجة أنها لا تفكر في الزواج حاليًا، يعمل أدهم في صالة كمال أجسام في بلدته، يعيش في قرية ريفية تسمى الشيخ جبيل بمحافظة الشرقية.

جلس أدهم حتى يتناول الغداء برفقتهما وبعدما انتهى توجه إلى غرفته حتى يهيء نفسه إلى الذهاب، وبينما هو يصفف شعره أمام المرآة سمع صوت رنين هاتفه في الخارج، دخلت عليه دعاء تحمل الهاتف ثم قالت بوجه عابس وهي تعطيه إياه:

- أمل تتصل بك.. معذرةً.. أمل هانم.

ابتسم ابتسامة مصطنعة ثم أخذ منها الهاتف ليتحدث مع أمل، وما أن أجاب وجد سيلًا من الكلمات الغليظة في مواجهته، تنهد وهو ينظر إلى أخته ثم قال:

- إهدأَي يا حبيبتي، لقد استيقظت متأخرًا، ما عساي أن أفعل حيال ذلك؟.

فردت عليه بصوتٍ يسيطر عليه الغضب قائلة:

- ماذا تفعل!، لقد كان بيننا اتفاق، ألم نتفق بأنّنا سنخرج بصحبة هبة ابنة خالتي وخطيبها؟.

ضرب على جبينه بعدما تذكر ثم قال:

- أتُصدِّقين بأنني قد نسيت موضوع هبة تمامًا، معذرَة.. أنا آسف.. حقًا لم يكن بيدي.

قالت أمل بسخرية:

- آسف!.. آه.. فعلًا، ماذا حدث لكل ذلك؟!، أظل منتظرة سيادتك حتى تأتي وأنت في خبر كان، تظل هبة تتصل بي وأنا لا أفعل شيئًا سوى تقديم الأعذار التافهة، وحضرتك لا ترد على الهاتف من الأساس، وكأنني طفلة صغيرة.

قال بصوت هادئ محاولًا كظم غيظه:

- انتهيتِ.. أم ما زال هناك شيءٌ آخر؟.

فردت بنفس اللهجة الساخرة الحانقة:

- طبعًا.. وما الذي سيفرق معكَ!، بريستيجي ومظهري أمام الناس الذي تساوى بالأرض، وغير ذلك لم تكلف نفسك وتجيب على هاتفك، وكأنني غير موجودة من الأساس، فلتكن على راحتك يا أدهم.

كان أدهم يتحدث بهدوء ولين بينما أمل تارة تتحدث بحنِق وتارة تتحدث بتهكم، فيما لا تزال دعاء واقفة على باب الغرفة تتابع حديثهما في غيظ شديد من أمل، وأسى شديد على أخيها.

تابع أدهم حديثه قائلًا:

- في البداية أخبرتك بأنني لم أستيقظ في الوقت المحدد، لقد نسيت تمامًا بسبب تأخّري في النادي ليلة أمس، لقد حدث عطل في أحد الأجهزة وكان ينبغي علينا إصلاح، دخلت المنزل قبل صلاة الفجر بدقائق، صليت الفجر وخلدت إلى الفراش.

سكت لبرهة ومسح على وجهه ثم تابع:

- لا تحزني يا عزيزتي، سنعوضها في مرة ثانية.

أجابته بتذمر مندفعة:

- مرة ثانية!، هل أنا حمقاء حتى أضع نفسي في موقف محرج كهذا مرة أخرى بسببك، أنا لن أتحمل في كل مرة أن يكون مظهري سيئًا أمام صديقاتي، لأن البيه خطيبي يأتي من عمله متأخرًا.

قالت أمل هكذا ثم أنهت المكالمة، نظر أدهم إلى أخته فوجدها تنظر إليه بأسفٍ، فبادر هو بالحديث مازحًا معها:

- أرأيتِ ما تفعله صديقتك!، أرأيتِ عقلها الصغير!.

استشاطت دعاء غيظًا ثم قالت وهي تكشّر عن أنيابها:

- لا تقل صديقتك مرة أخرى، هناك فرق بين صديقتي وزميلتي في الدراسة.

قال وهو يحاول رسم ابتسامة ساخرة على وجهه:

- صحيح!.

فتابعت دعاء:

- أضف على ذلك أنني لم أطقها وأتحملها إكرامًا لك، وأمك أيضًا لا تحبها، لكننا لا نريد أن نحزنكَ، وأنتَ تدرك هذا جيدًا.

قال بعدما تبدَّلت ملامحُ وجهه إثر الكلمات التي أحزنته:

- فلنتحدث في شيء آخر، لقد صحوت للتو.

نظرت له نظرة حانية وهي تربت على كتفه وتقول بصوتٍ هادئ:

- لا تحزن من كلامي، أنا لا أقصد أن أحزنك، لكنها استفزتني بطريقة كلامها معك.

ثم أردفت بلهجة مندفعة:

- علاوة على ذلك مَن تفكر نفسها!، هذا الأسلوب الفظَّ من أين اكتسبته، إن نظرت لحال والدها فهو ليس كذلك، وأمها أيضًا نفس الشيء، إمرأة طيبة.

ضحك ضحكة ساخرة وهو يقول:

- طيبة!.. لا أحد طيب غيرك، إنها حرباء.

سكتت لبرهة ثم ابتسمت مغازلةٌ أخاها قائلة:

- أيوجد واحدة يكون معها شخص جميل هكذا وتُحزنه!، شخص ذو عضلات وحنين القلب.. أيعقل؟!.

ابتسم وهو يسمع مغازلتها له دون أن ينبس ببنت شفة، فتابعت قائلة :

- علاوة على ذلك اسمه أدهم، سبحان الله، هذه غبية التي تحزنه.

كانت تقول هذه الكلمات وهي تقوم بحركاتها البهلوانية، التي تجعل الشخص الذي أمامها يضحك لا إراديًا، حتى وإن كان مُحمل بهموم كالجبال، كانت أمل زميلتها في الدراسة، وهي من أسرة فقيرة تتكون من أربعة أفراد، هي وأمها وأختها الكبيرة وتدعى هالة تزوجت في الصعيد منذ سنتين، ووالدها الذي يعمل غفيرًا في معرض لبيع السيارات، مَن يَرَ تصرفات أمل وأفعالها يجول بخاطره أن والديها من أثرياء البلدة، انفصل والداها منذ فترة طويلة بسبب تصرفات أمها التي لم تَرُقْ لأبيها، كانت أمل كثيرة المدح لنفسها وتريد أن يكون كل شيء من أجلها، علاوة على ذلك أن يكون خطيبها جديرًا بها أمام صديقاتها.

تقدم أدهم لخطبة أمل منذ سنة تقريبًا، رآها عندما كان ذاهبًا برفقة دعاء إلى حفلة زواج إحدى صديقاتها، فأعجب بها ومن ثَم تعرف عليها وأحبها، إلى أن تقدم لخطبتها من والدها الذي أخبره بأنه سيستشير ابنته أولًا، وما أن أخبرها حتى بادرت بالموافقة،

ولكن مع الوقت بدأت المساوئ تظهر تدريجيًا، بطبيعة الحال لن تعرف ما بين طيّات الكتاب حتى تتوغل بين صفحاته، بدأت تظهر هذه الأشياء في أمل كلما تقرّب الخطيبان من بعضهما أكثر فأكثر، لكن أدهم كان يتغاضى عن هذا كله لأنه يحبها، ودائمًا ما يقول يومًا ما ستتغير، لكنها لم تحب أدهم لشخصه بل لمظهره الجذاب ومستواه الاجتماعي المنتعش قليلًا مقارنة بهم، كان ما يهمها في الأمر أن تتفاخر به أمام صديقاتها، نظرًا لعضلاته البارزة وخصره النحيف ولحيته الكثيفة، وغير هذا كله أنه يجيد الطبخ، وأكاد أجزم أنه حلم كل فتاة وليست أمل فحسب، فما بالنا إن كان متدينًا، وأكاد أجزم أيضًا أن هذا لن يشكِّل فارقًا بالنسبة لأمل، كانت دعاء وأمها دائمًا ما يمتعضا من تصرفاتها، والتي تَصِفانها دائمًا بالطامعة المتكبرة، لكنهما لم تتفوها بشيء من هذا القبيل أمام أدهم حتى لا تصيبه الخيبة فيحزن، فآثرتا أن تقبلا بها لأدهم ليس أكثر.

حمل أدهم حقيبته متوجهًا إلى النادي، نظر الى ساعته وإذ بالوقت يمضي سريعًا، لم يتبقَّ سوى عشر دقائق فقط، يتوجب عليه الإسراع لأنه دائمًا ما يحب الإلتزام بالمواعيد، تحسس جيبه ليخرج هاتفه حتى يتصل بمسؤول النادي ليعتذر منه، لكنه فوجئ بأنه نَسِيَ هاتفه في المنزل، رجع مسرعًا للمنزل، وما أن دخل حتى تعجبت دعاء من عودته ومن الحالة التي هو عليها، فعندما سألته أخبرها بأمر الهاتف ثم التقطه وخرج في عجلة، فتح الهاتف فوجده قد اتصل عليه عدة مرات فحاول الإتصال به، كان يركض عندما أجابه ولكنه لم يكن متذمرًا كعادتة، لقد أخبره بأنه على عِلم بما حدث ليلة أمس، وبناءً عليه قد منحه ثلاث ساعات راحة تعويضًا لما حدث، فرجع مجددًا إلى المنزل ولكن هذه المرة لم يكن في

عجلة من أمره، بل كان هادئًا وفي سعادة بالغة، دخل المنزل فوجد دعاء ما زالت جالسة في مكانها والتي بادرت بالحديث قائلة:

- خير إن شاء الله، لِمَ رجعت مجددًا!، ولِمَ كل هذه البهجة التي على وجهك؟!

أخبرها عما قاله المسؤول وهو يلوّح بيده محاولًا تقليد حركاتها البهلوانية، نظرت له وهي تَزِمُّ شفتيها ثم قالت بتهكم:

- وبالطبع ستذهب إلى أمولة.

ثم رمقته بنظراتها وتابعت بعدما تنحنحت:

- إنني أدلعها كي لا تحزن.

ضحك أدهم ثم قال مازحًا:

- يا إلهي، لم أرَ في حياتي فتاة تحب صديقتها هكذا.

حدَّقت به وهي ترفع حاجبها الأيمن وتخفض الأيسر لتكون عينها اليسرى شبه مغلقة، وبعد ذلك انفجرت ضاحكة ثم قالت:

- لقد أضحكتني يا أدهومة.

انصرف وهو يلوح بيده مازحًا معها، ثم بدَّل ثيابه وخرج متجهًا إلى منزل أمل.

*****

وصل منزل أمل وقلبه يفضفض من الفرحة لأنه سيلتقي بمحبوبته، ولكن محبوبته استقبلته بوجهٍ عابسٍ أطفأ هذه البهجة، وسرعان ما بادرت بالحديث قائلة:

- لماذا لم تذهب إلى العمل؟!.

دخل من الباب وجلس في غرفة الضيوف، فمنزلهم يشبه منزل أدهم كثيرًا، جلس على الكرسي بينما هي لا تزال تقف على الباب وتنظر له بحنقٍ شديد، ابتسم وهو ينظر إليها وقال:

- منحني مدير النادي عدة ساعات راحة، فقررت أن آتي لأراكِ.

فقالت بلهجة ساخرة وهي تتقدم حتى تجلس على الكرسي الذي بجواره:

- تراني!، ها، هل تذكرتني الآن، لقد جئتَ متأخرًا، جئتَ بعدما ساء شكلي أمام هبة وخطيبها.

أشاح بنظره ثم قال بلهجة غليظة هذه المرة:

- هبة، هبة، هبة، لماذا تُدخلين هبه في كل تفاصيل حياتنا؟!.

سكت قليلًا وتنفس الصعداء حتى يُهدِّىءَ من روعه ثم تابع:

- لا بد أن تكون لنا حياتنا الخاصة، لا ينبغي أن نخلق مشكلات بسبب أشياء من الممكن الاستغناء عنها من الأساس، علاوة على ذلك لماذا أذهب إلى العمل وأجتهد؟!، كل هذا من أجل مَن؟!.

ساد الصمت بضع لحظات ثم قال متابعًا:

- لا بد أن نتعب ونتحمل هذه العقبات حتى يمضي المركب في سيره، وحتى نستطيع تجهيز منزلنا الذي سنتزوج به.

تنهدت وهي ترمقه بنظراتها فتابع قائلًا:

- إنها مسألة وقت ليس أكثر، ما إن نتزوج سيكون كل شيء مختلف.

ثم نظر في عينيها وابتسم متابعًا:

- أنا لم آتِ إلى هنا حتى أراكِ هكذا، هيا ابتسمي، تكونين أجمل عندما تبتسمين.

عقدت أمل حاجبيها ثم قالت بلهجة مندفعة:

- ماذا تقصد؟، أتقصد بأنني لست كذلك؟.

كان ينظر الى تعابير وجهها وكلماتها الطفولية ويبتسم، ثم قال مغازلًا إياها:

- أنتِ كما القمر في كل حالاتك يا أمولة، وليس في كل حالاته.

قالت وهي لا تزال مقتضبة الوجه:

- ها، ماذا تقصد؟!.

أجاب مبتسمًا:

- أقصد أن القمر بحالاته له أطوار كثيرة، المحاق والهلال والتربيع والبدر، وأنتِ البدر.

ابتسمت بعد سماعها تلك الكلمات، وظلا يتسامران في أشياء عديدة، حتى دخلت عليهما أمها تحمل مشروبًا أعدَّته من أجل أدهم، سألته عن أمه وعن دعاء وعن وضع العمل، كانت كثيرة السؤال عن أوضاعه المادية، وأخذت ترتب بصحبة ابنتها عما سيفعله أدهم في المنزل الذي ستعيش به، كان ذلك الموضوع يثير امتعاض أدهم، لأنها دائمًا ما توَدُّ أن تفعل أشياء باهظة الثمن، في حين أنه من الممكن الإستغناء عنها تمامًا، كانوا يحملونه فوق طاقته كثيرًا، لكنه يتماشى مع الأمر لأجل الحب.. الحب الذي سيقتل صاحبه، نهض أدهم حتى ينصرف بعدما قضى معهم ما يقارب الساعة متجهًا إلى النادي، ودَّعته أمل بابتسامة فاتنة ثم غادر يشير بيده مودعًا .

****

(٢)

وصل أدهم النادي قبل موعده المحدد بمدة وجيزة، قدم التحية للمتواجدين ومن ثَمَّ هَمَّ ليبدل ملابسه، ظل منهمكًا في العمل إلى أن جاء وقت الذهاب، عندما دقت ساعته معلنةٌ تمام الثانية عشرة، وبعدما بدّل ملابسه خرج عائدًا إلى المنزل، وجد دعاء في انتظاره كعادتها حتى تُعِدَّ له العشاء، وما أن بدأ في تناول طعامه حتى دق رنين هاتفه، فجاءت دعاء التي جلبت الشاي لتناوله الهاتف حيث وضعه على الطاولة بجانب التلفاز، نظرت في الهاتف معلنة عن هوية المتصل حيث قالت:

- إنه أحمد.

تناول منها الهاتف ليتحدث مع أحمد صديقه المقرب، لقد نسي تمامًا الموعد الذي كان بينهما، وأنهما سيذهبان سويًا إلى حفلة عيد ميلاد صديقهما عاصم الذي ينتظرهما برفقة صديقهم حازم، حتى يحتفلوا جميعًا مع بعضهم البعض، أجاب أدهم وهو عازم أن يعتذر له لأنه لم يتذكر الموعد، وسيعتذر أيضًا بأنه لن يستطيع الذهاب، فقاطعه أحمد قائلًا:

- سيستاؤون يا أدهم، أنت تعرف ذلك جيدًا.

رد أدهم قائلًا:

- اتصل بهم واعتذر لهم.

- حاولت الإتصال بعاصم كثيرًا، لكن هاتفه مغلق، وحازم كعادته لا يجيب.

أخرج أدهم زفيره ثم قال:

- هكذا لا يوجد أمامنا سوى الذهاب، وأنت تعرف جيدًا بأنني لا أحب أن أذهب إلى هناك.

فقال أحمد وهو ينهي المكالمة:

- هيا أسرع.. سأنتظرك.

أنهى المكالمة ثم التفت إلى دعاء وأخبرها أن تؤجل العشاء حتى يعود، ثم انصرف بعدما عدَّل من هيئته متجهًا إلى أحمد، كان يحاول أن يقلل من اللقاءات مع عاصم الذي ظهر عليه الثراء فجأة.. الثراء ثم الثراء الفاحش، ولا يعلم أحد من أين أتاه كل ذلك، لكنه يقول بأن أحد أقاربهم قد وافته المنية ووالده هو الوريث الوحيد لذاك الرجل، وبما أن والده قد توفي هو الآخر فإنه هو وأخوه الورثة لذلك الشخص، ومن هنا بدأت تظهر عليه علامات الثراء فجأة، حيث انتقل من البيت الذي تآكلت جدرانه وسقط معظم سقفه إلى قصر فاخر هو الوحيد في البلدة، وأصبحت وسيلة النقل بالأوتوبيس الذي كان يستقله قديمًا غير مرغوبة أبدًا، بل أصبح يمتلك سيارة فارهة، الغريب في الأمر أن أمه وأخاه الأصغر لا يزالان يتخذان من البيت القديم مسكنًا، مما جعل هذا الأمر لا يروق لأدهم كثيرًا وأن هناك لغز في الموضوع، إلى جانب امتعاضه منه منذ أن تقدم عاصم لخطبة دعاء التي قابلته بالرفض، كان دائمًا ما يجول بخاطره بأنه يستطيع أن يمتلك الدنيا وما فيها بنقوده، وكيف ترفضه إحداهن وهو حلم لكل فتاة؟!، هذا ما يخيل له

بالطبع ولا دخل لنا في ذلك، فكِّر كما شئت فجميعنا راضون بعقولنا حتى وإن كانت خرقاء، لم يكن يعلم أن النقود لن تغني عن فظاظته وسوء خلقه، وأنها لن تشتري له روحًا طيبة، ولم يدرك أيضًا بأنها لن تجعله محبوبًا بين الناس، أجل سيحبونه البعض لكنه سيكون نفاقًا ليس أكثر، سيكون الحب لنقوده وثراءه وليس له.

اجتمع أدهم مع أحمد الذي يماثله في العمر وكذلك في الطول تقريبًا لكنه نحيف الجسم مقارنة بأدهم، يتميز بشعره الأسود الناعم وعينيه البنيتين، وخلقه الحسن وشخصيته المرحة، أحضر أحمد هديتين متواضعتين واحدة من أجله والثانية من أجل صديقه حتى يقدموهما إلى عاصم، كان ذلك من الأشياء التي لا تعجب أدهم وخصوصًا عندما يتعلق الأمر بشخصٍ كعاصم، فهو دائمًا ما يحب ألا يعطيه أكثر من قيمته الحقيقية، بينما أحمد دائمًا ما يحثه أن يتعامل مع الوضع بسلاسة، حتى وإن تغير فإنه لا يزال صديقهم.

وصلا إلى منزل عاصم الذي لا يوجد منزل يضاهيه في القرية، حيث أسواره العالية التي تعلوها مصابيح في غاية الجمال، وأشجار الزينة غالية الثمن والبوابة الإلكترونية الضخمة التي تثير إعجاب المارَّة.

نظر أدهم إلى اللافتة المعلقة على جانب البوابة التي بدأت تفتح إلكترونيًا ليقرأها بسخرية ويقول:

- فيلا الأستاذ عاصم فوزي!، ها.

ثم التفت له أحمد وقال مبتسمًا:

- أترى كلمة أستاذ هذه؟.

قال أدهم بسخرية مرة أخرى:

- لقد أصبح عاصم أستاذًا، يرحم الأيام الخوالي عندما كنَّا نناديه بعاصم كوسه.

تعالت ضحكاتهما محدثة قهقهة وهما يدخلان من البوابة متجهان إلى الباب الداخلي، يمشيان في ممر يربط الباب الخارجي بالباب الداخلي للفيلا طوله ما يقارب العشرين مترًا، على جانبيها إنارة جميلة وزهور خلابة تسر الناظرين، استرق أدهم النظر إلى أعلى فوجد عاصم يقف خلف النافذة الزجاجية يرمقهم في حنقٍ شديدٍ، وكأنه يريد أن يقول لهما لماذا لا تشاركوننا ضحكاتكما؟!، وما هذا الوجه العابس الذي نشاهده دائمًا في لقاءاتنا؟!.

ما أن وصلا الباب حتى وجدوه قد فُتح ويظهر من خلفه حازم، ليسقبلهما ذو الخمسة والثلاثين عامًا والطول المتوسط والجسد الذي يميل للنحافة قليلًا، وشعره البني الذي يميل إلى الحُمرة وعينيه ذواتي اللون العسلي، قدموا التحية لبعضهم البعض وها هو عاصم ينزل على السلم الداخلي ليلتقي بهم جميعًا، قدموا له هداياهم والتبريكات بعد التسليم على بعضهم، جلس الجميع يرمقون بعضهم البعض في صمت، ينظر أدهم إلى عاصم وهو يصطنع ابتسامته، عاصم ذو السادسة والثلاثين من عمره، رسب مِرَارًا في المرحلة الدراسية هو وحازم لذلك لحق بهما أدهم وأحمد، يتميز عاصم بطول قامته وبشرته القمحاوية، وشعره الناعم وعينيه السَّوْدَاوَيْنِ وجسده المتناسب مع طوله.

قطع أحمد هذا الصمت متحدثًا إلى عاصم، فقال:

- لقد حاولت الإتصال بك كثيرًا.. لكن هاتفك مغلق.

قال أدهم مازحًا:

- أظن أنه يغلقه متعمدًا، حتى إذا اتصلت به إحدى الفتيات اللاتي يعرفهن تجده مغلقًا، فتقلق عليه وتأتي إلى المنزل حتى تتفقد أحواله.

قال أحمد وهو يهز رأسه متعجبًا ضاحكًا:

- ما هذا التفكير الشيطاني يا صديقي.

تعالت ضحكاتهما بينما عاصم يرمقهما في حنقٍ وهو يحاول رسم ابتسامة على وجهه، كان عاصم دائمًا ما يشعر بأنه في ظل امتلاكه لكل هذا لا تزال هناك أشياء تنقصه، وبالأحرى عندما يجلس مع أدهم وأحمد يشعر دائمًا بأنهما لا يكترثان لماله وثرائه، لا ينافقانه كما يفعل حازم أقرب أصدقائه، دائمًا ما يفتقد الشخص الذي يصدُّه عندما يخطئ، شخص يكشف له مساوئَه.. لا ينافق له، كان يجد ذلك في أدهم، ودائمًا ما يشعر أن أدهم الوحيد الذي يجعله يستفيق من غفلته، وهو الوحيد الذي يفتح له جروح الماضي الأليم، ويجعله يشعر بالنقص في ظل هذا الثراء الفاحش.

إن ثراء المال مرغوب ولا غنى عنه ولكن ما بالك بثراء العقل وثراء القلب، وما بالك أيضًا بثراء الأخلاق، لكَ أن تتخيل بأنك ذو مالٍ وعقلٍ مستنيرٍ وقلبٍ فضفاضٍ وأخلاقٍ حسنةٍ، بالكاد تكون قد امتلكت أشياء عديدة أبرزها حب الناس والإرتقاء بينهم.

قطع حازم ضحكاتهما وشرود عاصم عندما أخبرهم بأنه قد فقد هاتفه، ليقول أحمد بتعجب:

- أأنت جاد؟!.

ثم نظر إلى عاصم وقال:

- قدر الله وما شاء فعل يا صديقي .

قال أدهم برزانة وهو ينظر إلى عاصم بنوع من التضامن:

- ليكن فداءً لك، ليتها لا تأتي إلا في الهاتف.

ثم بدأ يفعل حركات بيده جعلتهم يضحكون، فتابع حديثه مع عاصم مازحًا:

- علاوة على ذلك، فقدت هاتفك تشتري غيره ألف، أنتَ لست بقليلٍ يا عاصم.

نظر إليه عاصم وهو يبتسم، وكأنه لا يصدق أن كلمات المواساة هذه تخرج من أدهم فقال:

- المشكلة ليست بالهاتف، الفكرة في الأشياء التي عليه.

سكت هنيهة ثم تابع مبتسمًا:

- أتتذكرون الأيام الخوالي؟، لقد كانت أيامًا جميلة حقًا.

ابتسم أحمد وهو يرجع بظهره إلى الخلف ويضع يده خلف رأسه مسترجعًا الذكريات قائلًا:

- أتتذكرون غرفة أدهم؟.

فقال حازم بصوت مرتفع وهو يضحك ضحكًا هستيريًّا:

- أتتذكرون عندما كنّا نجلس نحن الخمسة على السرير.

فقال عاصم مسترجعًا الذكريات وهو يشعل سيجارته وقد لمعت عيناه من الضحك:

- أتتذكرون عندما وقف شاكر حتى يجلس معنا على السرير فانكسر بنا جميعًا.

قال حازم وهو في حالة هستيرية من الضحك:

- أتتذكر بِمَ كان يناديك يا أدهم، كان يناديك أدهم الهرِّش.

تعالت ضحكاتهم مجددًا، بينما عاصم سحب سحبة من سيجارته ثم نفخها إلى الأعلى وتابع بعدما شحبت ابتسامته قائلًا:

- أيامٌ لا تنسى أبدًا.

ابتسم أدهم وهو يضع فنجان القهوة على الطاولة ويقول:

- شاكر.. آهٍ على شاكر، كان دائمًا لا يتوقف عن الضحك، يجعلك تضحك على أتفَهِ شيءٍ.

سكت هنيهة ارتشف فيها رشفة من القهوة ثم تابع:

- لقد انقطعت أخباره منذ أن رحلوا من القرية في المرحلة الإعدادية، لقد كانت أيامًا رائعة.

فقال عاصم وهو يُطفِئ سيجارته:

- كل هذا أصبح في الذكريات، لقد تغير كل شيء، لم يبقَ لأي شيءٍ طعم.

نظر إلى أدهم موجهًا إليه الحديث قائلًا:

- كنت مُحِقًّا عندما قلت أن السعادة لا تعوض بالمال.

فقال أحمد مازحًا:

- لست معك في ذلك، برأيي لم يتغير أي شيء، الغرفة ما زالت كما هي، والسرير أيضًا كما هو، الأشخاص فقط هم الذين تَغَيَّرُوا.

ثم ابتسم ابتسامة عريضة وتابع:

- أقصد نحن.

فدخل حازم ليتجَاذَبَ أطرافَ الحديث معهم قائلًا:

- هذا التغيير الرهيب الذي يحدث يكون سببه الضغوطات التي تحدث في حياتنا.

ضحك أدهم وقال له مازحًا:

- أيِّ ضغوطات التي تتحدث عنها يا حازم!، وأنت لا تفلح في عمل قط، غير ذلك لا يوجد عمل تذهب إليه وتُعمّر به.

تعالت ضحكاتهم جميعًا بينما حازم يُلَمْلِمُ خيبَته، فأراد أن يَرُدَّ لأدهم الصاعَ صاعيْن، فاستطرد في الحديث قائلًا:

- وكيف تجري الأمور بينك وبين أمل يا أدهم؟، هل ما زالت كما هي لا تحب سوى نفسها؟.. أم تغيرت، ولو أن هذا النوع من الفتيات من الصعب جدًا أن يتغير.

حدَّق فيه أدهم بحنقٍ شديدٍ وقد احتقنت الدماء في وجهه، كاد أن يمزقه بنظراته لو أتيحت له الفرصة، ساد الصمت في المكان

لبعض الوقت، تنهدَ أدهم بصوتٍ عالٍ بينما يرمقه عاصم في حنق، ما زال يتذكر أمل.. أمل التي رفضته سابقًا، أو بالمعنى الصحيح رفضه أهلُها لسوء خلقه ورفضتْه أمل لسوء مستواه المادي رغم حبه الشديد لها، تقدم عاصم لخطبتها عدة مرات وفي كل مرة كانت تقابله بالرفض، وهو يعلم بأنه لو تقدم لها الآن لتركت أدهم وذهبت إليه، يخيل له عقله المريض هكذا كما يخيل له بأنه يستطيع شراء أي شيء يريده وأي شخص بماله.

كان عاصم دائمًا ما ينظر إلى أدهم نظرة حانقة، كان في قلبه حقد وغيرة تجاهه بسبب حالات الرفض التي قابلها، تارة من دعاء والتي رفضته لتَكَبُّرِه والتغيير الذي طرأ عليه ماديًا، وتارة أخرى بسبب خطبته لأمل التي رفضته وذهبت إليه.

قطع أحمد ذلك الصمت الذي سيطر على المكان قائلًا:

- الجميع يتغير يا حازم.

ثم أخذ يقلب نظراته بينه وبين عاصم متابعًا:

- المهم أنك عندما تتغير.. تتغير إلى الأفضل وليس إلى الأسوأ.

التفت له أدهم فيما تكسو وجهه ابتسامة بعدما شعر بالبهجة والإرتياح من كلمات صديقه، وشعر بأن صديقه أفحمهم جميعًا، فقال متابعًا لما قاله أحمد:

- ومن هنا تستطيع أن تقرر هل هذا الشخص ذو قيمة.. أم أنَّ وجوده في الحياة كعدمه.

ثم رمق عاصم بعينيه وتابع:

- لا يكون كل هدفك في الحياة أن تأكل وتشرب وتسهر هنا وهناك.. مع هذا وهذه.

احتقنت الدماء في وجه عاصم عند سماع تلك الكلمات، بالفعل هو يعلم تمامًا أن الكلام موجه إليه، ولكن على سبيل المزاح لذلك لزم الصمت تمامًا.

قطع أحمد الصمت مجددًا وقال بلهفة وكأنه تذكر شيئًا ما قد شغل تفكيره سابقًا:

- هل علمتم ما حدث في البلدة اليوم؟.

نظر له عاصم وحازم بلا اكتراثٍ وكأن الأمر غير مهم بالنسبة لهما، وكيف سَيُعِيرَانِ لكلامه اهتمامًا وهو الذي أسكتهما منذ قليل ليرضي صاحبه، بينما عدَّل أدهم من جلسته وهو ينظر إليه في ترقب ينتظر أن يتحدث، فأراده أن يُعجِّل كلامه فقال:

- ماذا حدث؟!، يتضح من لهجتك أنه شيء يدعو للقلق.

فقال:

- لقد اختفى خالد ابن الأستاذ محسن؛ وابنة عمه نور.

فقال أدهم مستغربًا وكأن الخبر جديد على مسامعه:

- كيف اختفيان؟!.. وأين ذهبا؟!، هما ليسا طفليْنِ حتى يَضِلَّا طريقهما.

- في وقت الظهيرة، بعدما خرجا من المدرسة، كانا عائدَيْنِ إلى المنزل برفقة بعض زملائهم.

- ألم يَرَهُمْ أحد من المارة؟!، ولكن في هذا الجو من الصعب وجود مارة بالشارع وبالأخص في تلك الساعة.. ساعة القيلولة.

تنحنح حازم ليتبادل معهم أطراف الحديث قائلًا:

- لقد تناهي الموضوع إلى مسامعي، لقد رَأَوْهُما ثلاثةٌ من زملائهما كانوا يسيرون خلفهما، هؤلاء آخر من رأَوْهُما، حيث قالوا أن سيارة ملاكي وقفت بجانبهما ودخلا بها من تلقاء نفسيهما، وعندما اقتربوا من السيارة شاهدوا زميلهم علي يجلس فيها ويجلس بجواره شخص ما، فلم يلقوا لهم بالًا وبالأخص عندما شاهدوهما يضحكان وهما يصعدان السيارة.

تنحنح عاصم وهو يشعل سيجارة أخرى بعدما أسند ظهره إلى الوراء واضعًا رجله اليمنى على اليسرى ثم قال:

- يقول البعض بأنهما هربا برفقة بعضهما البعض.

ثم نظر إلى حازم وابتسم متابعًا:

- يعشقان بعضهما يا سيدي.. أجيال آخر الزمان، عندما يفعل الأطفال هكذا.. فماذا تركوا للبالغين؟!.. عجبًا لهم.

قال أدهم وهو يحتجّ على كلامه:

- عن أي عشقٍ تتحدث يا رجل!، وكيف يهرب هذان اللذان لا تتعدى أعمارهم السادسة عشر؟!.. ورفقة بنت.

قال حازم ساخرًا:

- إنهم في الصف الأول الثانوي يا عزيزي.. في هذه المرحلة يفعل هؤلاء أشياء لا تخطر على بال أحد منا أبدًا.. أجيال لا يعلم بها إلا الله.

قال أحمد وهو يفرك جبينه مفكرًا:

- ولكن إن كان الإثنان هربا مع بعضهما لأنهما يحبان بعضهما.. فلماذا هرب معهما علي؟!.. يوجد لغز في الأمر.

نظر له أدهم وقال ضاربًا كفًا بكفٍ:

- لم يعد هناك أمان يا صديقي، لكن إن كان هناك لغز فإن حله سيكون معهم عندما يرجعوا بالتأكيد.. إن شاء الله.

- إن شاء الله يرجعوا سالمين.

بينما هم يتسامرون رنَّ هاتف أدهم، وعندما نظر وجد أنَّ دعاء حاولت الإتصال به عدة مرات لكنه لم يرد، فعادت لتتصل به مجددًا فلم يرُدّ أيضًا، وعندما قال له أحمد أن يرد عليها أخبره بأنها تريد أن تخلد إلى النوم، لكنها تنتظره كي تعد له العشاء أولًا، دق جرس الهاتف مجددًا ولكن هذه المرة لم يكن هاتفه بل هاتف أحمد، استغرب عندما نظر في الهاتف ووجدها دعاء أيضًا، أثار اتصالها قلقه مما جعله يعطي الهاتف إلى أدهم ويقول:

- إنها دعاء.. ردّ عليها.. لعلها تريد شيئًا.

تبدَّلت ملامح وجهه وسيطر عليه القلق والتوتر وهو يأخذ الهاتف من أحمد، فيما ينظر إليه عاصم وحازم بترقب ليعلما ماذا

حدث، وعندما رد كانت الصدمة على الجانب الآخر، من دعاء حيث سمعها تبكي وتقول مضطربة:

- أنجدنا يا أدهم.. لقد سقطت أمي فاقدة الوعي.

نهض أدهم واقفًا من على كرسيه، تتسارع دقات قلبه وهو يقول بلهفة وصوت عالٍ:

- ماذا!!.. أنا قادم بسرعة، لا تقلقي يا دعاء.

قال أدهم كلماته الأخيرة ثم همَّ بالخروج ومن خلفه أحمد، بينما يتتبعه عاصم بنظراته ويقول بلامبالاة:

- لا تنسَ أن تطمئنّا يا أدهم، لا تتركنا عالقين.

*****

(٣)

ظل أدهم يركض ومن خلفه أحمد مسرعيْن في طريقهما إلى المنزل، يبعد منزل أدهم عن بيت عاصم قرابة الكيلومتر، كان الظلام الخافت والسكون يسيطران على القرية إلى أن وصلا المنزل، فدلف أدهم مسرعًا إلى الداخل فوجد بعض النسوة من جيرانهم قد تواجدن بجانب أمه بعد أن جِئْنَ على صوت صراخ دعاء، ووجد أمه ممددة على السرير تحت الغطاء وبجانبها دعاء ووالدة أحمد والتي تدعى ثريا.

اتصل أحمد بسيارة الإسعاف ثم أخبر أدهم الذي ينظر له بترقب بأنهم قادمون على وجه السرعة، أخذت دعاء تبدل ثياب أمها التي تبللت من الماء الذي سكبته على رأسها، وصلت سيارة الإسعاف ومن ثم حملوها بعناية إلى داخل العربة، ذهبوا في طريقهم إلى المركز حيث المستشفى، ركبت معها دعاء وأدهم بينما أحمد أخبرهم بأنه سيلحق بهم.

ذهب أحمد إلى منزله الذي يبعد بضعة أمتارٍ عن منزل أدهم وتناول آخر ما تبقى معه من مال، اتصل بأحد جيرانهم الذي يمتلك سيارة أجرة وأيقظه حتى ينقله إلى المستشفى، ركب السيارة برفقة أمه التي أصرت أن تكون بجانب صديقتها، حثَّ السائق أن يسير عَبْرَ الطرق المختصرة وأن يقود بأقصى سرعة، حتى وصلا المستشفى قبل سيارة الإسعاف.

وصلت سيارة الإسعاف ونزل منها أدهم الذي لم يتفاجأ عندما شاهد أحمد يقف داخل فِناء المستشفى، هو يعلم تمامًا أن صديقه لن يتركه وحده في موقف كهذا ولو دقيقة واحدة، حمل رجال الإسعاف فاطمة إلى الداخل ثم إلى إحدى الغرف ريثما جاء الطبيب، طلب منهم الطبيب أن ينتظروا في الخارج، ثم دخل وتبعته بعض الممرضات ثم أغلقن الباب من خلفهن.

استغرق الطبيب قرابة النصف ساعة ثم خرج، ليستقبله أدهم بلهفة سائلًا:

- طمئنني يا دكتور.. ماذا بها؟.

أجابه الطبيب وهو يمسح عدسات نظارته:

- خير إن شاء الله، لا داعي للقلق.

عاد أدهم ليسأل السؤال نفسَه مجددًا بلهفةٍ وقد بدت عليه علامات القلق والتوتر:

- أخبرني يا دكتور، ماذا بها؟!.

فقال الطبيب:

- لأكون صريحًا معكم؛ إلى الآن لا يوجد بها شيء.

قال أدهم وهو ينظر إلى أحمد تارة وإلى دعاء تارة أخرى وقد غلبت عليهم الحيرة والقلق:

- إلى الآن!، ماذا تقصد؟!.

والتفت إلى دعاء مستغربًا، ثم التفت إلى الطبيب مرة أخرى وتابع:

- ولكن لِمَ وقعت مغشيًا عليها؟!.

- مبدئيًا لا يوجد شيء ظاهري، السكر مضبوط، والضغط كذلك الأمر.

ثم التفت إلى دعاء وسألها:

- هل كانت تشتكي من شيء قبل أن تفقد وعيها؟!.

قالت وهي تنظر إلى أدهم في ريب:

- نعم.. كانت تشكو من رأسها كثيرًا، وكالعادة أحضرتُ لها فنجانًا من القهوة، ظنًا مني بأنها ستزيل الصداع ككل مرة، ولكن هذه المرة كانت مختلفة، حيث كانت تجلس على السرير فسقطت على الأرض فاقدة للوعي.

فقال الطبيب:

- يعني كانت تشتكي من رأسها، هل تتذكرين كم مرة؟، والفترة التي بين كل مرة ومرة؟.

قالت مترددًا وهي تنظر إلى أخيها نظرات مرتبكة.

- كثيرًا.. لا لم أتذكر، لأنه كان يحدث باستمرار.

زَمَّ الطبيب شفتيه وهو يرفع نظارته ليكتب على ورقة في دفتره وأعطاها إلى أدهم ثم قال:

- غدًا إن شاء الله ستقوم بعمل هذه الأشعة، وبعدها نقرر ما سيترتب على ذلك.

تكورت حبيبات العرق على جبين أدهم من شدة التوتر والقلق بعدما سمع ما قاله الطبيب، ربَّت أحمد على كتفه وهو يسأل الطبيب:

- بِمَ تشك يا دكتور؟، هل تخفي عنَّا شيئًا؟!.

- لا أستطيع أن أخبركم بشيء قبل التأكد، وذلك سيكون عن طريق الأشعة، لا نريد أن نتسرع.

ثم كتب في ورقة أخرى أسماء بعض الأدوية وأخبرهم أنها ستواظب عليها، ثم تَقَدَّم ليغادر وهو يؤكد عليهم مجددًا أن العلاج لا بد أن يكون هنا قبل الثامنة صباحًا، وأخبرهم أيضًا بأن يبحثوا عنه من الآن لأنه غير موجود في الصيدليات التي بالجوار، استوقفه أدهم وسأله عن مكان تواجده فأخبره أن يبحث في أي صيدلية تصادفه، وذهب وهو يؤكد لهم ضرورته ولا مجال لجلب البدائل، تحسس أدهم جيبه وأخرج ما لديه من نقود وهو ينظر إلى أحمد، فقال له أحمد وهو يربِّت على كتفه أن يبقي النقود بحوزته، تحسبًا لحدوث أي شيء وأخبره بأنه سيذهب ويحل الأمر، رفض أدهم لأنه يعلم بأنه لا يمتلك نقودًا، وأنَّ آخر نقودٍ كانت لديه اشترى بها الهدايا التي كانوا قدموها لِعاصم، شدَّ أحمد على يده وهو يقول له بأنه سيجلب الدواء قبل الساعة الثامنة كما أخبرهم الطبيب، وأخبره أن يبقى برفقة أمه ثم غادر.

****

ذهب أحمد وهو لا يدري ماذا سيفعل؟، ومن أين سيجلب المال؟، بالطبع هو يعلم أن الأدوية التي طلبها الطبيب باهظة الثمن نظرًا لندرتها، ولكن ما يشغل تفكيره أكثر ليس هذا وحسب،

بل أين سيجد الدواء وفي هذا التوقيت، ذهب إلى الصيدلية المجاورة للمستشفى فلم يجده، ومن ثم ظل يدخل كل صيدلية في طريقه، وكلما دخل واحدة يقابله رد واحد.. هذا الدواء غير متوفر ولا يوجد سوى البديل، البديل.. البديل.. لكن الطبيب أخبرهم ألا يأتوا بغير ما كتب، ظل يمشي في الشوارع تتخبط أرجله في بعضها البعض من التعب، لقد قطع مسافة كبيرة جدًا سيرًا على أقدامه، بينما هو يسير جال بخاطره أحد أصدقائه القدامى الذي كان يعمل في إحدى الصيدليات في المركز قديمًا، ابتسم ابتسامة مشرقة بالأمل وهو يفكر.. لعله يكون ملاذه الأخير.

ظل يبحث في الهاتف عن رقم هاتفه وهو يردد داعيًا الله أن يجده، لقد مضى زمنٌ طويلٌ على آخر اتصال بينهما، بينما يمرر القائمة توقف عند اسم ..الدكتورمحمد، ضغط على الرقم ووضعه على أذنه، وسرعان ما كست الفرحة وجهه عندما سمعه يصدر رنينًا، ظل يدعو أن يكون هو المجيب ولا أحد غيره، ولكن قطع تفكيره صوت أُنثوي يجيب عليه، تبددت آماله واعتذر لها وقال بأنه كان يريد شخص آخر، وعندما سألته عن ذاك الشخص أخبرها عن صديقه، وسرعان ما استعاد ابتسامته عندما أخبرته بأن الرقم للدكتور محمد بالفعل، وسألته إن كانت تستطيع مساعدته أو أن تبلغ الدكتور بشيء، فأخبرها بأنه صديقه منذ أيام الدراسة، ويحتاج إليه ضروريًا وعلى وجه السرعة، فأعطته رقمه الخاص وبادر بالإتصال، تفاجأ عندما أجابه ووجده يناديه باسمه، وعندما سأله أخبره بأنه ما زال يحتفظ برقم هاتفه، وبعدما تبادلا كلام الاشتياق أخبره أحمد عن الدواء، فوعده بأنه سيدبره ولو من باطن الأرض، سأله عن سعر الدواء فأخبره بأنه ما إن يجده سيرسل إليه مكانه ومن هناك سيعرف سعره.

أنهى أحمد المكالمة وتنفس الصعداء بعدما إرتاح قليلًا، الوقت يمضي.. شارفت الساعة على الرابعة فجرًا، ما زال لم يتلقَّ خبرًا من صديقه بخصوص الدواء، كان يهاتفه أدهم بين الفينة والأخرى فأخبره بأنه وجد سبيلًا ما وسيذهب إليه، وأكد على وعده بأنه سيجلب الدواء قبل الثامنة صباحًا، ظل يتنقل على الأرصفة يمينًا ويسارًا يذرع الأرض جيئة وذَهابًا في انتظار رسالة من صديقه، جلس على الرصيف تحت عمود الإنارة وهواءُ الربيع المنعش يداعب وجنتيه، ترمقُه نظراتُ المارَّة وخصوصًا الشخص الذي يقف على الرصيف المقابل والذي يحدّق فيه كثيرًا، وكلما يغلبه النعاس ويغمض عينيه توقظه أصوات السيارات من حوله، إلى أن وثب من مكانه عندما جاءته الرسالة التي كان ينتظرها، ومفادها أن الدواء الذي طلبه قد أمَّنه له، وهو موجودٌ الآن في صيدلية تبعد عن المكان الذي يقف فيه أحمد بمسافة ليست بالقصيرة، لا بد أن يستقل سيارة أجرة ولكن ذلك قد يسبب مشكلة أكبر نظراً لقلة النقود التي معه، وخصوصًا أن الدواء يتخطى الألف ومائتي جنيهًا، أخبره محمد بذلك، في حين أنه لم يكن بحوزته سوى أربعمائة جنيهًا فقط، فقرر أن يقطعَها ركضًا وهو في هذه الحالة.

ماذا يفعل؟.. الوقت يداهمه.. أدهم يهاتفه بين الفينة والأخرى.. قد بلغت الساعة السادسة صباحًا.. لم يتبقَّ سوى ساعتين فقط.. ولا يعرف ماذا بوسعه أن يفعل؟.

اعتَرَتْهُ الحيرة وتَمَلَّكَهُ شُعُورٌ بالوحدَةِ إذْ لا يوجد مَن يعينه على امتحانه، لا أحد سيسانده في هذا الموقف الذي لا يحسد عليه.

*****

ظل أدهم يضرب الأرض ذَهابًا وإيابًا، يحاول الإتصال بأحمد لكن كل محاولاته باءت بالفشل.. كلما طلبه وجد هاتفه مغلقًا، ودعاء تراقب الطرقات من حولها، تارة تذهب ناحية بوابة المستشفى لتتفقدها وتارة أخرى تنظر في الطرق المؤدية إليهم، الساعة السابعة والنصف.. لم يتبقَ سوى نصف ساعة فقط، المحلول الذي علقه الطبيب كاد أن ينفد.. الممرضة تأتي مجددًا لتسأل عن الدواء .. الوقت يمضي بسرعة.. ما زال هاتف أحمد مغلقًا.. يذرع أدهم الممر جِيئَةً وذَهابًا.. أين أنت يا أحمد؟.. يزداد التوتر والقلق.. أخذ يفكر في العواقب التي ستحدث إن لم تأخذ أمه الدواء في وقته، وبينما هو منغمس في تفكيره صاحت دعاء بلهفة قائلة:

- لقد جاء يا أدهم.

التفت أدهم مسرعًا فوجده يدخل من البوابة الرئيسية للمستشفى ويحمل في يده كيسًا صغيرًا، ركض باتجاهه مسرعًا كي يأخذ منه الكيس حتى يبدد هواجسه، قابله أحمد بابتسامة شاحبة، يسيطر على وجهه الإرهاق والتعب من السهر، هَدَأَ روعُ أدهم عندما شاهد هذه الابتسامة العريضة، مسك الكيس وتفحص محتوياته، ثم قال إليه في حماس بعدما كست الفرحة وجهه:

- هل جلبته حقًا؟.

أومأ أحمد برأسه إيجابيًا وهو يبتسم، احتضنه أدهم بحرارة ثم أخذ الدواء وهو ينظر في ساعته، إنها الثامنة إلا عشر دقائق، صَعَدَ راكِضًا بالدواء إلى الأعلى حيث الطبيب، أخذه الطبيب ثم توجه إلى الغرفة التي بها فاطمة، دخل الطبيب ومن خلفه بعض

الممرضات، ينظر أدهم فيشاهد الطبيب يقف بجوار السرير الذي ترقد عليه أمه، بدا ظاهرًا عندما فُتح الباب، الباب يغلق ببطء.. لم يتبقَّ سوى القليل.. يشاهد إحدى الممرضات تركض تجاه أمه.. انغلق الباب تمامًا.. ركض تجاه الباب لعله يعرف لماذا تركض الممرضة؟!.. وما الذي حدث؟!.. عقله يجوب يمينًا ويسارًا.. هل حدث شيء لأمه؟!.. الطبيب قال لا بد أن يكون المحلول الآخر معلق في الثامنة تمامًا.. لقد أصبحت الثامنة وخمس دقائق الآن.. خارت قواه حتى جثا على ركبتيه بجانب الحائط في الممر.. كان يجول في خاطره أشياء عديدة، إلى أن استفاق من غفلته عندما وضعت يد أحدهم على كتفه، نعم كانت يد أحمد.. نظر له أدهم فوجده ينحني حتى يساعده على النهوض وهو يقول:

- لا تقلق يا صديقي، ستكون بخير إن شاء الله.

وقف معه ثم ذهبا وجلسا على المقاعد بجوار دعاء وثريا، كان ينظر إلى أحمد نظرات امتنان وعرفان لما فعله، ثم قال له:

- أتدري.. لقد قلقت عليك كثيرًا عندما اتصلت عليك ووجدت هاتفك مغلقًا، قلقت أن يكون حدث لك شيء وعلى الدواء، كان التفكير ينخر بداخلي، كان بداخلي وسواس يقول بأنك لن تستطيع العثور عليه، وكان ذلك الوسواس يزداد تمكنًا مني عندما أجد هاتفك مغلقًا.

شَدَّ أحمد على يده وهو يبتسم ولكن ملامح وجهه قد غطَّت على كل شيء، سأله أدهم عن الدواء كيف وجده وكيف دبر المال، فأخبره بما حدث بالتفصيل وأخبره عن زميل دراستهم الدكتور محمد، فابتسم أدهم عندما أخبره بأنه يرسل إليه سلامه الحار.

نظر له أدهم مستطردًا الحديث قائلًا:

- والنقود؟!.

قال وهو يلتفت حوله ناظرًا ناحيَةَ أمه ودعاء:

- لقد حللت الأمر.

- كيف حللته؟!.

ثم صفن به وتابع بسؤال آخر:

- ولماذا تغلق هاتفك؟!.

قال أحمد بلهجة متقطعة:

- ماذا؟!.. الهاتف!.. لقد بعته.

- ماذا؟!.. لِمَ؟.

أخبره أن الدواء كان غالي الثمن فاضطر لفعل ذلك، في البداية تذمر أدهم ولكن سرعان ما جعله أحمد يستعيد ابتسامته مجددًا، وقال له بأن ما فعله صحيح لأنهم سيحتاجون نقودًا للأشعة وخلاف ذلك، وضع أدهم ذراعه على كتفه وشد عليه، وها هم في انتظار الطبيب الذي استغرق في الداخل ما يقارب النصف ساعة، والأجواء في الخارج تزداد قلقًا وتوترًا، تخرج إحدى الممرضات في عجلة.. تركض مسرعة في الممر المتجه إلى غرفة الأطباء.. بعد دخولها بلحظات سمعوا ضجيجًا يتعالى بينهم.. عادت الممرضة راكضة مرة أخرى.. ينظر لها أحمد وأدهم في ترقب وقلق.. تكورت حبيبات العرق على جبينيهما من شدة خفقان قلبهما.. ودعاء التي

انهارت على الأرض باكية بجانب الحائط.. تجلس بجوارها ثريا تواسيها.. لكن القلق قد تمكن منها هي الأخرى.. تركض الممرضة بسرعة في طريقها للعودة.. استوقفها أحمد ليسألها عما يحدث.. فنهضت دعاء مسرعةً بقوى خائرة باتجاهها، لتسألها بعيونٍ باكيةٍ حيث قالت:

- أمي.. ماذا حدث لأمي؟.

اقترب منها أدهم وسألها السؤالَ نفسَه:

- هل أمي بخير؟.

التفتت الممرضة إلى دعاء ثم ربتت على يدها وهي تقول منصرفة بعدما أفلتتها:

- يوجد بالداخل حالة وضعها خطير جدًا.

نظرت دعاء إلى أدهم وهي تتشبث بيد ثريا التي تمسك بها من الخلف صرخت بصوت مبحوح والعبرات تتساقط على وجنتيها:

- أمي.. أمي يا أدهم.

احتضنتها ثريا وهي تربت على ظهرها لتخفف عنها هول ما يحدث، بينما أدهم يحاول أن يتماسك ولكن أي تماسك هذا وأرجله ترتعش من الصدمة، فهو لا يستطيع أن يتحمل أن يحدث لأمه شيء، كادت أن تخذله قدماه لولا أن أمسك به أحمد وشدَّ من أزره بكلمات تواسيه.

خرج الطبيب من الداخل يمسح حبيبات العرق التي تكورت على جبينه، ركضوا نحوه جميعًا مسرعين حتى يطمئنوا ويخمدوا

النيران المشتعلة بداخلهم، وليبتروا ذراع القلق من جذوره، بادر أدهم بالسؤال قائلًا:

- ماذا حدث يا دكتور؟، هي بخير أليس كذلك؟.

- نعم.. إنها بخير لا داعي للقلق.

ثم عادت دعاء لتسأل السؤال نفسه ولكن بطريقة أخرى وبلهفة قائلة:

- حقًا!.. أهي بخير؟!.

تنهد الطبيب ثم ابتسم وهو يخبرهم بأنها قد استعادت وعيها، ليس هذا وحسب بل ستخرج معهم كي يذهبوا لعمل الأشعة بأحد المراكز في الخارج، انفرجت أسارير وجوههم التي غَدَتْ مُفعمةً بالأمل بعدما تمكن منهم القلق والتوتر، وتساقطت العبرات على وجنتي دعاء من الفرحة وهي تسأل الطبيب مرة أخرى السؤال نفسه، ليؤكد لها الطبيب ويخبرهم أنهم بإمكانهم الدخول إليها والإطمئنان عليها.

أذِنَ لهم بالدخول إليها فوجدوها قد استعادت وعيها بالفعل، تساعدها إحدى الممرضات على الجلوس لتهيئها للذهاب معهم، نعم لقد كانت الممرضة التي استوقفوها بالخارج، ترمقها دعاء بنظرات حانقة.. نظرات تكاد تمزقها، فبادر أحمد بسؤالها عما قالته في الخارج، فأخبرتهم مستغربة بأنها لم تقصد هذه الحالة، ثم أشارت على القسم الآخر من الغرفة خلف ستار شفافي وأخبرتهم أنها تقصد هذه الحالة، لقد كانت خطيرة جدًا لكن الله قد نجَّاها، احتضنوا والدتهما بينما هي تخبرهم بأنها بخير وتسألهم عما حدث

وكيف جاءت إلى هنا، تنظر إلى ثريا لتشاهد الابتسامة الصادقة على شفتيها، التي تعبر عن مدى حبها وصِدق صداقتها، انتهت الممرضة من إعدادها للخروج ثم ذهبت وهم خلفها.

*****

خرجوا بصحبة فاطمة متجهين إلى مركز الإشاعات الذي أخبرهم عنه الطبيب، سبقهم أحمد حتى يحجز لهم مكانًا هناك، وما أن وصلوا حتى كان لهم الدور، أجروا الأشعة، ثم رجعوا مرة أخرى إلى المستشفى، عندما وصلوا ذهب أدهم بالأشعة إلى الطبيب، بينما أحمد ذهب بصحبة دعاء وأمه مع فاطمة كي تذهب إلى سريرها مجددًا، كان الطبيب يجلس برفقة بعض زملائه عندما دخل عليهم أدهم، أخذها منه وأخبره أن ينتظره عند والدته، ظل يفحص الأشعة جيدًا برفقة زملائه، لقد تأكدت ظنونه فتركها على مكتبها وذهب إليهم بوجهٍ واجم هذه المرة، دخل عليهم فوجدهم ملتفين حول فاطمة فرحين بعودتها للحياة مجددًا، لذلك وقف ليفكر كيف سيخبرهم؟!.

أشار إلى أدهم حتى يخرج معه إلى الممر الخارجي، بعيدًا عن الصخب والضوضاء، فأومأ أدهم برأسه ثم خرج وتبعه أحمد، وجد الطبيب ينتظره بعيدًا في آخر الممر بجانب النافذة، والذي التفت له عندما سمع وقع أقدامه، سرعان ما تغيرت ملامح أدهم عندما شاهد حالة من التوتر تسيطر على وجه الطبيب، نَخر معها القلق بداخله فسأله مسرعًا:

- خير يا دكتور، ماذا وجدت في الأشعة؟.

ظل الطبيب واقفًا لا يحرك ساكنًا، يفكر كيف سيخبرهم فكرَّرَ أدهم السؤال نفسَه مجددًا، ومن بعده أحمد مُوَجِّهًا نفس السؤال، نظر الطبيب إلى كليهما وقال في تُؤَدَة:

- أنت رجل تؤمن بالقضاء والقدر، وأن المرض ليس بيدنا، إنه ابتلاء من الله، وهو الذي يصرفه.

التفت إلى أحمد ثم إلى الطبيب، ينظر له بترقب ومعدَّلُ نبضاتِ قلبه يزداد خفقانًا، يحاول تقبل الكلمات التي ستخرج من فم الطبيب، التوتر والقلق يهيمنان على الموقف، يريد أن يصيح في الطبيب ويقول له هيا أخبرني، إن كانت صدمة.. فلتكن صدمة واحدة وبدون مقدمات، فإن تكن الصدمة كبيرةً وواحدةً خيرٌ من أن تكون مجزأةً، ففي الصدمة الكبيرة هناك بصيص أمل للعودة والتكيف معها بل وتخطيها، أما المجزأة فتصيبنا بالخيبات كلما نحاول تخطي واحدة تأتي الأخرى فتصعقنا مجددًا، فلا نستطيع العودة ولا نستطيع المواجهة، كاد ينطق بكل ذلك ولكن كيف يقدر على ذلك ولسانه قد أبى عليه إلَّا العصيان قائلًا كيف أكون تحت إرادتك وأنت خائر القوى مشتت الفكر، فتابع الطبيب بعدما وجد نظرات الترقب تتسلط عليه، قائلًا:

- والدتك مريضة بمرض خطير.

التفت حوله ثم تابع في توجس:

- عندها ورم على المخ، ولا بد من إجراء عملية في أقرب وقت.

وقعت هذه الكلمات على مسامعهم كالصاعقة، تأرجح أدهم وكاد أن يسقط لولا أن لحق به الطبيب وأحمد الذي لا يزال مقتنعًا بأنه لم يسمع شيئًا وأنَّ كل ما قاله الطبيبُ وَهمٌ ليس أكثر، ولكن سرعان ما أيقظهما الطبيب مِن غفلتهما بقوله مرة أخرى:

- لا بد أن تُجري والدتك العملية على مرحلتين، لأن في الأمر خطورةً كبيرةً عليها، لا بد أن تقرروا في أسرع وقت، وخصوصًا أن العملية ستكلف كثيرًا، وكلما يمر الوقت يزيد الخطر.

قاطعه أحمد متسائلًا:

- ستتكلف كثيرًا!، كم ستكلف؟.

نظر لأدهم الذي تتساقط العبرات على وجنتيه نظرة تضامن، وهو يعلم بأنه لن يستطيع تدبير ذلك المبلغ، وكيف سيدبره وهو لم يكن معه ثمن العلاج، ثم التفت إلى أحمد وقال:

- ستتكلف ستين ألف جنيهًا، ولا بد أن تدفعوا نصف المبلغ في العملية الأولى، عليكم أن تتخذوا قراركم بسرعة.

نظر إليه أحمد وبدأت التساؤلات في ذهنه تجوب يمينًا ويسارًا، من أين لهم بكل هذا المال!، وكيف سيحصلون على المال بطريقة شرعية، اللعنة على الفقر حينما تصبح صاعقة الحصول على المال لمداواة المرض أشد وطأة من صاعقة المرض نفسه، ربت على كتف أدهم وهما ينظران إلى الطبيب الذي بدأ يبتعد عنهما إلى أن اختفى، نظر له أدهم باكيًا ثم توارى به عندما شاهد دعاء تقبل عليهما، مسح دموعه حتى لا يشعرها بأن هناك ما يثير

القلق، عدَّل من هيئته عند اقترابها واصطنع ابتسامة وهو يسألها عن والدته، ولكنه أحمق لم يعرف بأنه لن يستطيع أن يخبئ الآلام والدموع التي في عينه، دققت دعاء النظر إليه ثم قالت:

- ماذا بك يا أدهم؟!.

- لا يوجد شيء، تعرفين السهر يفعل ذلك.

قالت وهي لا تزال تحملق في عينيه:

- ماذا أخبرك الدكتور؟، لقد لاحظت بأن هناك تغييرًا في شكله، وأنت كذلك قد تغير شكلك كثيرًا عما كنت عليه قبل مجيئه.

ثم التفتت إلى أحمد الذي ينظر لهما بتؤدة وتابعت:

- بِمَ أخبركما الطبيب بخصوص أمي؟.

- لم يخبرنا بشيء، ستكون بخير إن شاء الله.

ظلت تردد السؤال وهي مقتنعة تمامًا بأنهما يخفيان عنها شيئًا، تنظر إلى أحمد تارة وتسأله ثم إلى أدهم تارة أخرى، لا أحد يجيبها فظلت تسأل إلى أن أجابها أحمد قائلًا:

- دعاء.. استمعي إليَّ جيدًا وبدون مقدمات، والدتك مصابة بورم على المخ.

وقفت جاحظة العينين فاغرة الفاه تصرخ عاليًا من هول الصدمة، فوضع أدهم يده على فمها حتى لا تثير انتباه والدتهما،

دعاء.. المسكينة دعاء التي لم تجف أنهار دموعها منذ فترة، كم أنَّ ذلك كله صعب على واحدة في براءتها، أردف أحمد قائلًا:

- دعاء.. دعاء.. أنا لم أقل لكِ لكي تبكي وتصرخي، أنا أخبرتك لأنك لا بد أن تكوني على علم، دعاء.. لا بد أن تكوني مدركة أن المرحلة القادمة ستكون صعبة جدًا علينا جميعًا.

ثم نظر إلى كليهما وتابع محذرًا:

- وإياكما أن تخبرا والدتكما بشيء، إياكما.

ثم تابع موجهًا الكلام إليها:

- لقد أخبرنا الطبيب أن نسبة نجاح العملية كبيرة جدًا، الآن استجمعي نفسك وادخلي إلى جانبها، لا بد أن نذهب لكي ندبر المال من أجل العملية.

****

(٤)

سار أحمد بصحبة أدهم إلى الخارج، خرجا من الأجواء المكتظة بالداخل ليسيرا في الطرقات المزدحمة، كل شيء لديهما عكس المألوف والرؤية محجوبة تمامًا، لو أنهما يأخذان قسطًا من الراحة لاتَّزَنَت الأمور بعض الشيء، ولكن أي راحة في ظل ذلك الصراع .. صراع البقاء، يسيران في طريقهما صامتين لا يعلمان ما سيفعلانه، بالفعل هما لا يعرفان إلى أين وجهتهما؟ ولا من أين سيجلبون المال؟، لكن ما يطمئن أدهم أن صديقه بجانبه، قطع أحمد ذلك الصمت ليخبر أدهم بأنه سيتواصل مع عاصم ويخبره، بالفعل رفض أدهم لأنه يعرف عاصم جيدًا، فأصرَّ أحمد بحجة أنه في النهاية صديقهما ولن يتخلى عنهما في موقفٍ كهذا، ظل أدهم ثابتًا على موقفه وهو يقول له بأنه لا يسلف أحد وخصوصًا مبلغ بهذا الحجم، وبأنه آخر واحد بالدنيا سيفكر في اللجوء إليه، اعترضه أحمد بحجة أنه هو الوحيد الذي يمكن أن يقرضهم ذلك المبلغ الكبير، فقال له أدهم بأنه لا بد أن يأخذ ضمانًا لذلك المال كما يفعل مع مَن يقترض منه، والضمان يتمثل في رهن المنزل مثلًا أو أي شيء سعره يفوق المبلغ الذي اقترضه، وغير ذلك موضوع دعاء ما زال ينخر في داخله، ظل يتحدث كثيرًا ولكنه من الواضح أنه بدأ ينصاعُ إلى كلام صديقه في النهاية حيث قال:

- ولكن إن طلبنا منه ماذا سنعطيه في المقابل؟.

- لا تسبق الأحداث، سأتصل بحازم لأعرف أين هما ومن ثَمَّ سنذهب لهما.

نظر له أدهم وأومأ برأسه بالقَبُولِ دون أن ينبس ببنت شفة، تنحى أحمد جانبًا ليهاتف حازم بعيدًا عن الضوضاء المحيطة بهما، وعندما انتهى رجع إلى أدهم ليخبره بأن حازم وعاصم في المنزل وفي انتظارهما، وأخبره بأنه تحدث مع عاصم بشأن المال فوافق على الفور، وأخبره بأنه سيجهز لهما المبلغ إلى أن يصلاه.

استقبلهما حازم كعادته ثم جلسوا يتحدَّثُون عن أوضاع والدته أو أنهما يدَّعيان ذلك، ثم ساد الصمت لبضع لحظات ظل يفرك أدهم أصابعه ببعضها، من ثَمَّ أحمد الذي يرمق عاصم في ترقب، فكسر عاصم ذلك السكون قائلًا:

- لقد أخبرني أحمد عن العملية، وعن المبلغ الذي طلبه الدكتور، وأخبرني أيضًا بأنه ستكون هناك عملية أخرى و بمبلغ آخَرٍ مُسَاوٍ له تقريبًا.

نظر إلى أدهم ثم تابع:

- لا يوجد لدي أي مشكلة في إعطائك النقود، ولكن كيف بإمكانك أن ترجعها؟!.. من أين ستجنيها؟.

ينظر إليه أحمد نظرة حانقة بل لو أتيحت له الفرصة أن ينقض على عنقه لفعلها، حتى لا يتفوه بكلمة كهذه إلى صديقه، بينما صديقه ما زال ينظر إليه نظرات منكسرة لا يريد أن ينطق بكلمة حتى لا يفسد هذه الجلسة، لأنه لو فعل ذلك ستضيع عليه فرصة الحصول على المال بينما أمه تصارع المرض الذي قد يودي بحياتها.

ثم تابع عاصم وهو يرمقهما بنظراته:

- أنت تعرف جيدًا أنني عندما أعطي لأحد نقودًا لا بد أن يعطيني شيئًا يضمن لي حقي، وأنت لا تملك شيئًا حتى تقدمه لي يا أدهم، أليس كذلك؟.

ثم نهض متوجهًا إلى غرفة المكتب، فتح خزنته وأخذ كومة من النقود ثم عاد مجددًا، في يده اليمنى النقود وفي اليسرى دفتر إيصالات وقلم، وضع النقود أمام أحمد وهو يشير إليه حتى يشرع في عَدِّهَا ليتأكد بأنها كما طلبوا تمامًا، ثم مَدَّ يده الأخرى إلى أدهم وأعطاه الإيصال والقلم قائلًا:

- ستمضي لي على هذا الإيصال، يوجد به المبلغ الذي أخذته، وهذا لضمان حقي ليس أكثر.

ثم التفت إلى أحمد الذي ما زال يَعُدُّ النقود وتابع:

- أظن بأنني لم أقصر في شيء، شخص غيري لم يكن ليعطيك المال خاصة بدون فوائد.

أخذ أدهم القلم من يده ومن ثَمَّ وقَّع على الإيصال الذي وضعه أمامه، ثم انتهى أحمد من عَدِّ النقود، وبعد ذلك استأذنا وقد هَمَّا بالخروج حتى يلحقا بالطبيب، خرج أدهم من البوابة وهو يزفر زفرةً قوية في حنقٍ شديدٍ مما فعله عاصم. لكن ما عساه أن يفعل في مثل هذه الظروف!، استقلا سيارةَ أجرة لِتُقِلَّهُمَا إلى المستشفى في أسرع وقت ممكن، وعندما وصلا توجها مباشرة إلى مكتب الطبيب حتى يخبراه بأنهم على أتم الإستعداد لإجراء العملية، حدد لهم الطبيب موعد العملية الأولى وأمر بعض الأطباء الذين يعملون تحت قيادته أن يهيئوا المريضة لإجراء العملية خلال ثمانية وأربعين ساعة.

*****

هدأ روع أدهم قليلًا لأن العملية ستُجرى بسرعة، لقد تدبر أمر المال ولكن من أين سيأتي بالمال من أجل العملية المقبلة؟!، لن يستطيع الطلب من عاصم مجددًا بينما لم يسدد دينه الأول، وكيف سيسدد ذلك الدين وهو لا يملك ما يدِرُّ عليه دخلًا، وهو يعلم جيدًا أن عاصم مثله كمثل غيره لا يتوانى في تقديم الإيصال الذي بحوزته إلى المحكمة، بالطبع سيفعل ذلك إن شعر بأنه لن يستطيع أن يسدد هذا المبلغ، ولكن ماذا سيفعل وهو ينفق مرتبه كاملًا في شئون المنزل؟، ظلت التساؤلات تتضارب في عقله، الأهم من ذلك كله هل ستنجح العملية أم سيكون مصيرها الفشل، قطع تفكيره الصوت القادم من الخلف، واليد التي وُضِعت على كتفه، التفت فوجدها دعاء بعينيها الحمراوين اللامعتين من أثر البكاء تقول:

- اذهب ونَم قليلًا، ستكون والدتنا بخير.

- أي نوم هذا الذي سيأتي يا دعاء في مثل هذه الظروف، سوف أذهب لأرى ماذا فعل أحمد مع الدكتور.

وضع يداه على خديها ثم قال:

- جهزي نفسك كي أصطحبك إلى المنزل حتى ترتاحي قليلًا، على كل حال هي نائمة ولن تستيقظ الآن، والممرضات بجوارها، وأنا أيضًا بجوارها، وستأتي والدة أحمد في المساء.

قالت وهي تشدُّ على يده:

- أنا بخير.. لن أذهب وأترك أمي وحدها، سأظل بجوارها إلى أن نعود سويًا بإذن الله.

بينما هو يسير في طريقه متوجهًا إلى مكتب الطبيب رَنَّ جرس هاتفه، وعندما أخرجه وجدها أمل، تنحى جانبًا حتى يقابل سيل الكلمات التي ستواجهه، ما أن أجاب عليها وسمع صوتها المروع على الجانب الآخر أبعد الهاتف عن أذنه وهو يكشِّر عن أنيابه كاظمًا غيظه، كان يظنها تهاتفه حتى تطمئن على والدته، لكن الأمر غير ذلك، لقد ظلت تصيح بكلماتها المعتادة كمثل «هل تذكرت لِتَوِّكَ أن ترد عليَّ؟.. طبعًا فأنا ليس لي أهمية عندك.. أنا خطيبتك لا أكثر ولا أقل.. لقد سألت عليك فأخبروني بأنك لم تذهب إلى النادي.. لقد تغيرت من حين ما ذهبت إلى حفلة عيد ميلاد عاصم.. ماذا فعلت عنده بالأمس؟.. لم تكترث إلى اتصالي حتى.. ولم تكلف نفسك الإتصال بي.. ودعاء لا ترد على اتصالي أيضًا.. ووالدتك هي الأخرى لم تَرُدّ على أمي.. لقد خَذَلْتَنِي ووضَعْتَنِي في موقف محرج أمام عائلتي.. لماذا لم تتكلم؟.. ها».

مسكين يا أدهم لم تختلط سوى بالمتخاذلين، يسمع كلامها ولا يفعل شيء سوى التنهيد ليكظم غيظه حتى لا ينفجر بها، أمل.. أمل.. أمل.. التي لا يهمها سوى نفسها ومظهرها أمام الجميع، اللعنة على هكذا حب الذي يجعله يتحمل كل ذلك، اللعنة على الحب الذي يجعلتك تتحمل فظاظة مَن تُحِب، ظل صامتًا يسمع حديثها الذي تقوله ولم يَرُدّ إلا بجملة واحدة، «هل انتهيتِ؟.. أم ما زال هناك المزيد؟»، لم يكن يعلم بأنها ستعود مجددًا لتصيح به وتقول «ألم يعجبك كلامي؟!.. ماذا تريد أن أقول لك بعد كل هذا؟!.. وانظر ماذا تقول أنتَ؟!.. تقول انتهيتِ أم ما زال هناك

المزيد.. علاوة على ذلك أنت الغاضب.. أليس من المفترض أن يكون العكس؟»، يتنهد مجددًا ويسألها إن كانت انتهت أم لا، هو يريد أن يخبرها بما حدث ولكنها لا تعطي له مجالًا، تعود مجددًا لتقول له كلمات من هذا القبيل، بالطبع أصدقاؤُك أهميتهم أكبر مني وكلام من ذلك، إلى أن سكتت قليلًا بعد هذا الوابل من الكلمات لتسأله السؤال الأهم، السؤال الذي لو سألته من البداية لوفرت على نفسها كل هذا الكلام، ووفرت علينا أن نشهد هذا الأسلوب القبيح الذي لا يروق لكثير منّا وأنا أولكم، أين أنت؟.. كلمتان كانتا ستغنيان عن هذا كله، ولكن كيف لواحدة مثل أمل أن تفعل ذلك دون إظهار هذا الوجه السيء!، فأجابها وأخبرها بمكانه وعلى إثر إجابته تغيرت لهجتها مائة وثمانين درجة، مَن يسمع صوتها الحاني العطوف الآن لن يصدق أن التي تتحدث هي أمل، كانت بارعة في قلب موازين كل شيء لصالحها، ظلت تسأله بلهفة ماذا حَل به؟.. ولماذا ذهب إلى المستشفى؟، أخبرها بما حدث لوالدته وأخبرها أيضًا عن العملية وعن العملية الأخرى، فأخبرته بأنها ستخبر والدتها ويأتيان سويًا.

أنهى أدهم مكالمته ثم توجه إلى مكتب الطبيب، قابله أحمد في الممر المؤدي إلى المكتب فرجع معه، أخبره بأن كل شيء جاهز وستجرى العملية في الوقت المحدد، ثم ذهبا إلى غرفة مجاورة للغرفة التي بها والدته ليستريحا قليلًا، ظل يواسيه في محنته ويُهَدِّئُ من روعه، ولكن أدهم ما يشغل تفكيره في هذه الأثناء هو المال، كيف سيتدبَّر المال من أجل العملية الأخرى؟، وكيف سيرد لعاصم المال الذي اقترضه منه؟، أصبحت كل هذه التساؤلات تراوده في كل لحظة، ظل يفكر إلى أن انكب على الفراش في سبات عميق، وفي الصباح كانت الأجواء أكثر هدوءًا من الأمس، أقبلت أمل

ووالدتها بينما جاءت ثريا من الأمس وأحضرت معها الطعام وظلت بجوار دعاء وفاطمة طوال الليل، وجاء بعض الجيران والأهل ليكونوا مؤازرين في هذه المحنة، وفي المساء تفرق الجميع ولم يتبقَّ بجانب أدهم سوى أحمد ووالدته، وفي صباح اليوم التالي.. يوم إجراء العملية جاءت أمل وتبعها عاصم وحازم.

*****

دخلت فاطمة غرفة العمليات بينما جلست دعاء جانبًا وجلست بجوارها أمل وثريا، يجلس على الجانب المقابل أدهم وأحمد، ومن ثَم حازم وبجواره عاصم، أخبرهم الطبيب أن العملية ستستغرق عدة ساعات، وأن عليهم أن يرتاحوا قليلًا كي لا تزداد الأجواء توترًا لكثرة عددهم، ظل أدهم وأحمد يتحدثان سويًا فيما بينهما عن المصير المجهول للعملية، بينما حازم منشغل في هاتفه وعاصم ينظر إلى دعاء تارة ثم إلى أمل تارة أخرى، أخذ يتفرس بالنظر إليهما وكأنه يستدعي من ذاكرته الأيام الخوالي، عندما تقدم لخطبة كلاهما وباءت محاولتاه بالفشل، واحدةٌ رفضته في فقره والأخرى رفضته في غناه، ولكن هناك عامل مشترك في الرفض وهو سوء خلقه، وهذا الرفض كان من قِبَل دعاء نفسها، وأهل أمل وليست أمل نفسها، كان كل ما يهم أمل حينها هو المال، كاد وهو يتفرس أمل بنظراته أن يقول لها ها أنا ذا صاحب المال والنفوذ، صاحب السيارة الفارهة والفيلا التي لم يوجد لها مثيل في الضاحية كلها، ها أنا ذا أمامكم بسطوتي وبمالي أفعل كل شيء، ثم يحول نظراته إلى دعاء ويكاد أن يصيح بها قائلًا؛ أن المال الذي ستُجرى به العملية ماله هو، وأن أخاها اقترضه منه من أجل ألا تموت أمها، كاد وهو يتفرسها بنظراته أن يقول لها ها أنا ذا منقذكم.. الرجل الذي

رفَضْتِهِ سابقًا هو الذي أنقذكم بماله، كاد أن يقول لها ها أنا ذا أُظْهِرُ جانب اللين والرحمة تجاهكم، ولو أنه يخبرها بأنه كان ينظر إلى أخيها نظرة الإنتصار، عندما كان يطلب منه المال من أجل العملية، ولو أنها رأت أخاها الذي تستقوى به كيف كان ذليلًا أمام من رَفَضْتِهِ أنتِ، يكاد أن يخبرها بأن مستقبل أخيها رهن إشارته وأنه يتحكم بهم الآن، ظل ينظر إليها تارة وإلى أمل تارة أخرى ومن ثم إلى أدهم، كان يرمقه في حنق وامتعاض شديديْنِ، كاد يقول له بأن كل ما حدث لي كان بسببك أنت يا أدهم، فلتذهب إلى الجحيم الآن، أنا الذي أمسك بطوقك لا أحدٌ سواي، بالفعل سأجعلك تدفع ثمن كل ذلك عندما تحين اللحظة، وهذه اللحظة أنا الذي سأحددها، بالفعل ستندم على كل شيء حينها، وستندم على إهانتي يومًا ما، سأجعلك تجثو على ركبتيك أمامي وتطلب السماح والمغفرة، بالتأكيد سأفعل كل ذلك، هذه هي اللحظة التي كنت أنتظرها كثيرًا.. ولقد أقْبَلَتْ، كاد أن يقفَ بينهم جميعًا ويقول.. ها أنا ذا أضع قدمي على عنق الأسد خاصتكم.. هلمُّوا لِتَرَوْا قوتي وسطوتي.. هلمُّوا.

ظل عاصم يفكر على هذا المنوال طوال الفترة التي تجرى بها العملية، بينما أدهم يتحدث مع أحمد حينًا ويصمت واضعًا رأسه بين يديه حينًا آخر، ثم ينهض من موضعه يذرع المكان جيئة وذَهابًا، بينما أحمد أخذ يتحدث مع حازم كي يكسر أجواء الصمت، ودعاء الغارقة في دموعها تحتضنها ثريا وعلى الجانب الآخر أمل يربت على كتفها، وعاصم ينظر إليهم جميعًا في تلذذ وإستمتاع شاعرًا بالإنتصار، ظلوا على هذا الوضع إلى أن خرج الطبيب من الداخل، ركض عليه كلٌّ من أدهم وأحمد ودعاء، بينما عاصم ما زال يجلس برفقة حازم وكأنه لا يعي شيئًا، هَمَّ أدهم أن يسأل مُتَعجِّلًا عن نتيجة العملية، ابتسم الطبيب وهو يخبرهم بأن العملية قد

نجحت، فبادرت دعاء بالسؤال المعهود مجددًا. لكن بطريقة أخرى، لا تصدق أن هذا الهم قد زال، فأخبرها الطبيب مجددًا بنتيجة العملية وهو يبتسم وكأنه يشعر بأنه انتصر في معركةٍ رَاهَنَ الجميع على خسارتها نظرًا لسوء حالة فاطمة، احتضن أحمدُ أدهمَ في فرحة عارمة، ومن ثم احتضن أدهم دعاء مرددًا.. الحمد لله، بينما عاصم يرمقهم من بعيد متداعياً أنه يتحدث مع حازم، واحتضن دعاء كلٌّ من أمل وثريا في حنانٍ ورفق.

رحل الطبيب تاركًا البسمة على وجوههم جميعًا، بينما توجه أدهم ناحية عاصم شاعرًا بالإمتنان قائلًا له:

- شكرًا جزيلًا يا عاصم، في الحقيقة لا أستطيع أن أوفيك حقك.

أومأ عاصم برأسه وهو ينظر له بعين الإنتصار قائلًا:

-لا عليك.. فلتكن والدتك بخير، هذا هو المهم.

قال هذه الكلمات ثم انصرف بصحبة حازم، بينما الجميع ذهب حتى يطمئن على فاطمة.

*****

(٥)

مضت بضعة أيام، تتحسن الحالة الصحية لفاطمة شيئًا فشيئًا، بينما عاد أدهم مجددًا إلى عمله، في انتظار أن يخبرهم الطبيب بموعد العملية المقبلة، ولكن عليه أولًا أن يدبر المال من أجل هذه العملية، كان يطبق ساعات عمل إضافية من أجل هذا ولكنها لن تكفي حتى لشراء الدواء فقط.

وفي إحدى الليالي كان يجلس أدهم في غرفته برفقة أحمد، يتحدثان حول كيفية تدبير النقود، التي على إثرها ستجرى العملية الأخيرة، وعلى حين غِرَّة رَنَّ جرس الهاتف الخاص بأحمد، فأخرجه من جيبه ونظر فيه ثم وضعه جانبًا، وهو يخبر أدهم الذي ينظر له بأنه رقم غريب، قال له أدهم أن يجيب عليه عسى أن يكون أحد أقاربه أو زملائه في العمل، مَن الذي سيتصل في هذا التوقيت غير أولئك؟، فأجاب أحمد على المكالمة عندما عاد واتصل مجددًا، وبعدما بادر بالتحية أجاب الطرف الآخر، كان صوت غير مألوف لكليهما، كان صوت غليظ خشن يرجح بأن صاحبه في الخمسين من عمره، مما جعلهما يعيران له اهتمامًا، فتح أحمد ميكروفون الهاتف منصتًا له عندما قال:

- كيف حالك يا أحمد؟.

سكت هنيهة يحدق إلى أدهم مستغربًا الصوت، فقال بعدما عجز عن تمييزه:

- الحمد لله بخير!؛ مَن أنت؟!.

فقال الرجل:

- هل أدهم بجوارك؟، أريد التحدث إليه.

نظر إلى أدهم مستغربًا، هو يعلم جيدًا بأن أدهم لم تسبق له معرفة بهذا الرجل، لكن المقلق في الأمر؛ كيف علم ذلك الشخص بأن أدهم يجلس معه الآن؟!، وهذا ما أثار استغراب أدهم الذي قرَّب الهاتف منه قليلًا وقال بترقب:

- أنا أدهم.. مَن أنت؟، وماذا تريد؟.

فقال الرجل:

- سأخبرك بكل شيء.. أنا البروجي، نادرًا ما أتحدث مع أحد في هذا الأمر.

- أي أمر؟!.. أنا لا أعرف أحدًا باسم البروجي، أخبرني ماذا تريد؟، لا يوجد لدي وقت لحل مشكلاتك.

صمت الرجل لبرهة ثم أجابه قائلًا:

- ولكن أنا لدي وقت.. ليس من أجلي بل من أجلك.

عاد إلى صمته مجددٍا لبضع لحظات ثم تابع:

- لحل مشكلاتك

- ماذا؟!.

قال أدهم هكذا بعدما سيطرت عليه الدهشة وعلامات الإستغراب، وبدأ يعير إلى كلامه اهتمامًا فسأله قائلًا:

- كيف؟!.. ولماذا ستفعل ذلك؟!.

ضحك الرجل ثم قال بصوته الغليظ:

- لقد أخبرني عنك أحد أصدقائي، كان يعمل معك في شركة الأمن منذ ست سنوات، اسمه حمزة، لا أعلم إن كنت ستتذكره أم لا.

- حمزة! شركة أمن!.

- من الواضح أنك لن تتذكره.

فقال أدهم مستغربًا الإسم:

- أنا بالفعل كنت أعمل في شركة أمن منذ ست سنوات، لكن لم يقع على مسامعي اسم حمزه هذا نهائيًا.

- من الممكن أنه كان له اسم حركي تنادونه به فيما بينكم، لهذا لم تعرفه.

- جائز!!.. ولكن أخبرني ماذا تريد مني؟.

صمت الرجل الذي يدعى البروجي للحظات ثم قال:

- استمع إليَّ جيدًا، لقد مدحك حمزة كثيرًا، وقال بأنك رجل صاحب كلمة وثقة، وبإمكاني الإعتماد عليك، بمعنى أنك ستحافظ على السر بيننا.

فقال متعجبًا بعدما بدا الأمر أكثر تعقيدًا:

- سر!.. أي سر؟!.

ردَّ البروجي:

- سأخبرك.. منذ سنوات عديدة كان يعمل أبي مع رجل ينقب عن الذهب في باطن الأرض، تعلم منه كل شيء، وبعد عدة سنوات مات ذلك الرجل، تاركًا خلفه ثروة مهولة، أخذها أولاده، ولكن هذه الثروة الظاهرة، لا يعلم أحد عن الثروة الباطنة شيئًا، ألا وهي الذهب، لا يعلم عنه شيء سوى أبي واثنان فقط، أخذوا ذلك الذهب وقسموه على بعضهم البعض بالتساوي، باع أحدهم نصيبه وفضَّل أن يبتعد عن البلد بالكامل، بالطبع لديه المال الكافي لكي يعيش حياة الأثرياء هو وأولاده وأولاد أولاده، أما الثاني فقرر أن يغامر ويشتغل مجددًا في التنقيب، ولأنه ليس لديه الخبرة الكافية تم القبض عليه، احتفظ والدي بنصيبه لمدة طويلة، ثم جاءه أحد المستكشفين الذي كان يعمل معهم قديمًا وأخبره أن هناك مزرعة كبيرة يوجد بجوارها مقابر مليئة بالذهب، ولكن لا بد من شراء المزرعة بالكامل أولًا، وبالفعل كانت المزرعة معروضة للبيع، وأن أصحابها يطلبون بها مبلغًا كبيرًا جدًا، لكن والدي قرر شراءَها، لذلك استنزف معظم المال الذي معه فيها، ثم بعد فترة بدأنا في الحفر إلى أن وصلنا إلى أول مقبرة وأخرجنا ما بها، عوَّضت ما فقدناه من مال في شراء المزرعة، وبعدها طلبَ أبي أن ننتظر لفترة حتى نتوارى عن الأنظار، إلى أن تُوُفِّي، وبعدها قررنا أن نتابع الحفر، أخرجنا كمية لا بأس بها من الذهب، وما أخرجناه قسمناه على بعضنا البعض، بالطبع كان لي النصيب الأكبر لأنني أتكفل بمصاريف كل شيء علاوة على ذلك نفقات الحراس الذين يحمونهم.. لا بد من توفير كل شيء، وذات يوم قرر حمزة التوقف والسفر

إلى الخارج، لقد أصبح يمتلك المال الذي يجعله من أغنياءَ أميركا التي يعيش بها الآ، فطلبتُ منه أن يجلب لنا أحدًا مكانه، يكون بنفس قوته ويكون أهل للثقه، ومن هنا أخبرني عنك.

كانت علامات التعجب والاستغراب يسيطران على وجهي أدهم وأحمد وهما يستمعان لهذه الكلمات مُنْصِتَيْنِ، يحملقان في بعضهما البعض دون حَراك، فقال أدهم بعدما توقف البروجي:

- من الواضح أنك وثقت بي كثيرًا قبل أن تراني، ولكن كيف يمكنني الوثوق بك؟.

- هذه الأشياء تظهر مع الوقت، أتدري لولا أنك ترشيحُ حمزةَ لي ما كنت ضعيتُ معك كل هذا الوقت، ولا كنتُ أخبرتُك بشيء، هناك الكثير يتمنون هذه الفرصة.

استوقفه أدهم قائلًا:

- ولكن.. لدي فضول أن أعرف، كيف أتيت برقم أحمد؟!.

نظر إلى أحمد ثم تابع:

- وكيف علمت بأنني نجلس سويًا؟!.

قال البروجي وهو يضحك:

- في هذا الوقت لا يوجد أسهل من هذه الأشياء يا أدهم، علاوة على ذلك، لقد اتصلت بك أولًا لكني وجدت هاتفك مغلقًا، لذلك اتصلت على أحمد، لقد أخبرني حمزة بأن أحمد هو أعز أصدقائك، وأنه معك دائمًا، لذلك اتصلت به،

وبطبيعة الحال يا أدهم، لا بد أن نعلم كل شيء عن الشخص الذي سيعمل معنا، حتى نتأكد بأنه لن يُحدِث مشكلة لنا، وحتى نتأكد أيضًا بأننا نسير على الطريق الصحيح.

نظر أدهم في هاتفه فوجده مغلقًا بالفعل، فالتفت إلى أحمد وهو يقول موجهًا حديثه إلى البروجي:

- من الواضح أنك تعلم عني الكثير، ولكن أخبرني ماذا علمت أيضًا؟!، يغلبني الفضول لأعرف.

-أشياء كثيرة.. مثلًا.. أنك تعمل في نادي رياضي طوال الشهر مقابل فُتات النقود، لم تستطع الزواج بسبب الظروف التي تعيشها، والأكثر من ذلك والدتك التي خرجت من المستشفى حديثًا، وتنتظر من الطبيب أن يحدد موعد العملية الأخرى، باختصار يا أدهم عرفت كل شيء.. كل شيء

قال أدهم في توجس وريبة وهو يحملق إلى أحمد، لم يستوعبا ما يسمعانه :

- من الواضح بأنك تعلم الكثير فعلًا!.

ضحك ساخرًا ثم تابع:

- أخبرني.. أخبرني وماذا عرفت أيضًا؟.

- أشياء أخرى .. كالنقود التي ذهبتَ حتى تقترضها من صديقك عاصم.. والهاتف الذي باعه أحمد من أجل الدواء.

سيطر عليهما الذهول تمامًا،ينظران إلى بعضهما في ريب، فتحدث أدهم قائلًا بترقب مضطربًا:

- أفهم من ذلك بأنك تراقبني.

- ولِمَ لا تسميها حفاظًا على النفس، أقل خطأ في هذا العمل سيضيع كل شيء.

صمت هنيهة ثم تحدث قائلًا:

- ولكي أثبت لك حسن نيتي، ستجد الهاتف الذي باعه أحمد في المحل الذي بجواركم، تركته لك هناك.

ازدادت دهشتهما أكثر عندما قال ذلك، كيف لشخص كهذا أن يعلم كل هذه الأشياء؟!، كلما يتحدث يفاجأهما أكثر فأكثر، ولكن الغريب في الأمر من أين أتى بهاتف أحمد؟!، وكيف علم بأمر عاصم؟!، لم يعلم به سواهم فقط، فقال له أدهم بأنه ممكن أن يستأجر أي شخص ليعمل معهم، فقال البروجي بأنه يستطيع أن يفعل ذلك بالفعل، لكنه يريد شخصًا موثوقًا فيه، شخصًا لا يطمع في النهاية، شخصًا يكون في حاجة ماسة لهذه النقود، فلا يخون ولا يطمع، وسرعان ما تحدث أحمد الذي لم ينبس ببنت شفة طوال هذه المكالمة، وسأله عن الهاتف كيف جلبه، فأخبره عن ابن عمه الذي تم تكليفه لجمع المعلومات عنهم، وعندما استعجب من كلامه أخبره عن الشخص الذي كان يجلس على الرصيف في الجانب المقابل، الشخص الذي كان يحدِّق النظر فيه، ظل يتتبع حركاته وما أن دخل المحل ليبيع الهاتف انتظر إلى أن ينتهى ويخرج ودخل خلفه مباشرة ليشتريه، فاقتنع أحمد بكلامه، خاصة أنه بالفعل هذا ما حدث، فسأله أدهم عن معرفته للنقود التي أخذها من عاصم، هذا الموضوع بالتحديد لا يعرف به سواه وأحمد وعاصم وحازم فقط، فقال لهما بأن صوتهما العالي عندما كانا

يتحدثان أن عاصم هو السبيل الوحيد لكي تتم العملية كفيل أن يسمعهما شخص يمشي بجوارهما، وبالطبع لن يخطر على بالهما بأن هناك من يراقبهما، وأخبرهما بأنهما عندما توجها إلى عاصم كان هو خلفهما، وعندما دخلا إلى المنزل ظل ينتظرهما في الخارج، وعندما خرجا ومعهما ظرف صغير؛ عرف بأنه قد أقرضهما المال.

أنهى البروجي المكالمة وهو يقول:

- صدقني يا أدهم لن تأتي الفرصة إلا مرة واحدة في الحياة.

صمت لبرهة ثم تابع:

- سأتصل بك خلال يومين، تكون قد فكرت واتخذت قرارك، وأي كان قرارك سأحترمه، ولكن حري بك وأنت تقرر وتفكر تذكر جيدًا المال الذي اقترضته من عاصم، وأن والدتك لا بد أن تجري عملية أخرى خلال هذه الفترة، فلتصحبك السلامة.

وقبل أن يغلق المكالمة قال وكأنه تذكر:

- كدت أن أنسى.. لا تحاول الإتصال على هذا الرقم، ستجده موقوفًا نهائيًا.. فكر جيدًا .

*****

(٦)

ظل أدهم وأحمد يحملقان إلى بعضهما البعض في تَعَجُّبٍ ودهشة، كل ما يشغل تفكيرهما هو كيف حدث ذلك؟!، وما الذي حدث الآن، كيف فَطِن ذلك الشخص بأنهما رفقة بعضهم البعض، وكيف علم بأمر والدته؟!، وغير ذلك عن النقود التي اقترضها من عاصم، ولماذا يريد مساعدتهم بالتحديد، ولماذا كان يراقب أحمد أيضًا؟!، هل يريد أن يؤمن نفسه حقاً كما قال!، أم هناك مغزى آخر من ذلك!، إن كلامه مقنع لكنه ليس منطقيًّا .

قطع أحمد ذلك الصمت بكلماته التي أعادت أدهم من شروده، حيث قال:

- أدهم..بِمَ تفكر؟!، أدهم حذاري أن تكون تفكر بما يدور في عقلي.. حذاري

عدّل أدهم من جلسته وأسند ظهره إلى الكرسي رافعًا رأسه لأعلى ثم قال وهو ينظر إلى سقف الغرفة مفكرًا:

- ولمَ لا؟.

- ماذا؟!.. ماذا تقول؟!.. هل جننت؟.

قال أحمد كلماته وهو يعقد حاجبيه، بينما عيناه تقدح شررًا من ردة فعل أدهم، نظر له الأخير بعدما أسند يديه على ركبتيه فأصبح ظهره في وضع الإنحناء ثم قال له:

- المال.. المال.. نحن بحاجة إلى المال، وها هو يأتي إلينا ويطرق بابنا دون تعب.

- ولكن هذه مخاطرة يا أدهم .

- وما المخاطرة في ذلك؟، هذه ليست مخاطرة.

- صحيح هذه ليست مخاطرة!.. هذا انتحار .

- أحمد لا تصعّب عليَّ الأمر.. الأمر بسيط جدًا.

قال له أحمد وهو يشير له بإصبعه يحذره بصوت هادئ:

- أدهم هل جننت؟!، هل تريد حقاً أن تذهب؟!.

رجع أدهم بظهره على الكرسي وعلى وجهه ابتسامة مصطنعة كي يغير الحديث في هذا الموضوع، هو يعلم جيدًا أن أحمد سيظل يمنعه من الكلام في هذا الموضوع، بل وسيمنعه من التفكير به إن استطاع، زفر أدهم زفرة ثم قال:

- لا أدري.. دعك من هذا الآن، متى سيخبرنا الطبيب بموعد العملية؟.

تنهد أحمد ثم مسح بيده على وجهه وهو يقول:

- لا أدري.. سيخبرنا عندما ينتهي من جلسات العلاج ، لقد قال أنها قد تستغرق قرابة شهرين، إن لم يطرأ تغيير.

- حسناً.

وقف أحمد وعدل ثيابه بعد دقائق من الصمت، وقبل أن ينصرف نظر إلى أدهم مجدداً يشير له بإصبعه محذراً إياه ويقول:

- أدهم إياك يا أدهم .. إياك، لا تدعني أغضب منك.

قال أدهم مبتسمًا:

- لا عليك يا صديقي.. لقد طردت هذه الفكرة من عقلي، لا تقلق أبدًا.

ذهب أحمد ومن ثَم جلس أدهم في غرفته يفكر مجددًا، فيما حدث في غضون هذه الساعات القليلة، جلس على كرسيه مجددًا ورجع بظهره إلى الخلف رافعًا رأسه إلى الوراء تحدق عيناه في السقف، كل ما يشغل تفكيره هذه المكالمة التي كانت منذ قليل، والتي على إثرها تغيَّر كل شيء، وقد تتغير حياته بأكملها إن صحّت هذه العملية، ولكن كلما جال به تفكيره إلى هذا كله توقفه أسئلة كثيرة، منها كيف عَلِمَ ذلك الشخص أن أحمد يجلس معه الآن؟!، وكيف لشخصٍ كهذا أن يحتاج شخصًا مثله؟!، إن كان من أجل الحماية فيمكنه أن يستأجر رجالًا من أي مكان ، وإن كان من أجل الأمانة كما يزعم فيمكنه أن يجعل أي شخص من أقاربه أو من بلدته يعمل معهم، وبالطبع لن يخونوه فمن الغباء أن تدير ظهرك إلى هذه الملايين وتذهب لتخبر الشرطة، لن تخبرهم وأنت تدرك أنك لن تحصل على شيء منهم، وهنا السؤال الذي كان يراوده كثيرًا لِمَ أنا بالتحديد؟!، هو لم يتذكر شخصًا اسمه حمزه عمل معه سابقًا إن لم يكن له وجود من الأساس، ولكنه عمل بالفعل في شركة أمن منذ سنوات، وتركها من أجل الراتب، عندما قدم له مدير الصالة الرياضية راتبًا مُغْرٍ بعض الشيء، كان يعمل معه أشخاص من

جميع الأنحاء ولكن كان يعرفهم جميعهم بأسماءهم الحركية، ربما حمزة هذا واحد منهم!.. ربما!.

سمع وقع طرقات على الباب أعادته من شروده، وإذ بها دعاء تدخل عليه تحمل في يدها بعض الأطباق، وضعتهم أمامه على الطاولة ثم قالت وهي يتفقد الغرفة بنظراتها:

- أدهم ماذا بك؟، لقد طرقت الباب كثيرًا، وأين أحمد؟.

وقف ليرتب معها الطاولة وهو يشير إلى باب الغرفة قائلًا:

- لقد خرج منذ دقائق.

- خرج.. لقد سمعت صوت الباب الآخر لكني لم أتوقع بأنه غادر، لقد أعددت لكما العشاء.

ذهبت حتى تجلب الخبز ثم عادت وجلست بجواره وبدآ بتناول طعامهما، ما أن شرعا في تناول الطعام حتى شرد أدهم مجددًا، ظل شاردًا لا يلقي بالًا لدعاء التي تجلس بجانبه ولا لحديثها معه، فأفاقته بدفعة كادت أن تسقطه أرضًا ثم قالت:

- أدهم.. أنا أتحدث معك، لمَ لا تُلقِي إلى حديثي اهتمام؟!.

قال لها بعدما حوّل نظره تجاهها محاولًا اصطناع ابتسامة:

- معذرَة لقد شردّتُ قليلًا.

ضحكت ثم بدأت بهز رأسها وأداء حركاتها البهلوانية، ثم قالت وهي تحملق في عينيه:

- وفيمَ شَرَدْتَ؟، دعني أخمن، تفكر في أمل أليس كذلك؟.

لاحت على شفتيه ابتسامة وديعة ثم قال:

- أمل!!.. لا بل أفكر في شيء آخر.

- تفكر في واحدة أخرى غير أمل!، يا ويلك إن علمت بالأمر .

ابتسم مجددًا عند سماع كلماتها، حقيقة مَن يشاهد حركاتها البهلوانية سيضحك رغمًا عنه، كانت تصطنع حركات برأسها ويديها تجعلك لا إراديًا تتهالك من الضحك.

أمسك أدهم برأسها مازحًا ليثبتها وهو يقول:

- لا.. لم أتوصل إلى ذلك الأمر بعد.

بينما هما على مقربة من إنهاء طعامهما نظرت له أخته وسألته سؤالًا سيشغل تفكيره مجددًا، حيث قالت:

- ماذا سنفعل من أجل النقود التي سندفعها إلى المستشفى من أجل العملية المقبلة لأمنا؟، كيف سندبرها؟.

تنهد ثم قال وهو ينهي طعامه:

- هذا هو الشيء الذي أفكر فيه حاليًا، كيف سندبر المال؟.

نهض من على الطاولة وتوجه إلى السرير وهو يلقي على دعاء سؤالًا لم تكن تتوقعه، حيث قال:

- ماذا كنتِ ستفعلين لو كنتِ مكاني؟.

قالت بعد أن فغرت فاها محدقتًا إليه:

- ها.

أعاد أدهم سؤاله مجددًا:

- ماذا كنتِ ستفعلين إن كنتِ مكاني؟.

قال السؤال وهو يتمعّن النظر فيها ليرى ردة فعلها، بينما قامت دعاء من على الطاولة وجلست بجواره على طرف السرير ثم قالت وهي تنظر إليه:

- سأفعل أي شيء.. أي شيء، سأسلك أي طريق في سبيل أن تشفى أمي تمامًا.

رجع بظهره إلى الخلف ليتكىء على الحائط ثم قال:

- حتى وإن كان هذا الطريق غير مشروع؟.

نظرت له بتعجب قائلة:

- ماذا؟!.

قال بعدما بدت له ملامح القلق على وجهها:

- لا.. أنا لا أقصد بالمعنى الحرفي بل من الممكن أن يكون مشكوك في أمرها.

قالت دعاء:

- أحياناً الضرورات تبيح المحظورات .

صمتت لبرهه ثم تابعت:

- ولكن ما المحظورات التي تريد أن تسلكها يا أخي.

مسكت يده ثم قالت وهي تشدّ عليها:

- إياك أن تفعل شيئًا يسبب لك مشكلة، أو يكون فيه خطورة عليك، إياك أن تُقْبِلَ على عمل لستَ أهلًا له.

قال بعدما سمع كلماتها:

- أتدري عندما تكون حياة أحد أحبائِنا على المحك عقلنا يَحَارُ، يمينًا ويَسَارًا ويقحمنا تفكيرنا في طرقات لا نعرف منتهاها ولا نعرف ماهيتها،

سكت هنيهة مسك فيها يدها وربت عليها ثم أضاف:

- لا تقلقِي يا عزيزتي هذه كلها تخيلات ليس أكثر.

قالت دعاء:

- أحيانا يجول في خاطرنا بأنه من الممكن ان نحيد عن طريقٍ ما، ولكن يا عزيزي كلنا مرهونون للقدر، نحن فقط نتعجّل هذا القدر ليس أكثر.

شرد مجددًا وهو يستمع لكلماتها، ولكن هذه المرة تداخلت أفكار أخرى بعقله، ألا وهي نحن فقط نتعجّل هذا القدر ليس أكثر، حتى خامَرَ تفكيره شيء ألا وهو.. لماذا لا أتَعَجَّل ذلك القدر؟.

عاد من شروده على صيحاتها وهي تقول:

- أدهم ماذا بك؟!.

- لا شيء.. لا يوجد شيء يا دعاء.

- كيف هذا!، أنت دائماً شارد الذهن على غير عادة .

عدّل من جلسته، وجلس القرفصاء أمامها مباشرة، ثم قال بعدما فكر مليًا:

- سأخبرك.. أحد أصدقائي القدامى اتصل بي يخبرني عن عمل ما سأجني منه مالًا يفوق حد تكاليف عملية أمي وأكثر، ولكن قد يستغرق العمل قرابة شهر أو أكثر.

قالت في تعجب:

- أحد أصدقائك؟!.

- نعم أحد أصدقائي.

- وصديقك هذا يعمل في أي مجال، أقصد ما العمل الذي يجني منه هذه المبالغ الضخم في هذه الفترة الوجيزة، هل هذا العمل مشروع أم غير مشروع؟.

صمت هنيهة ثم قال:

- بالطبع مشروع.. أنتِ تعرفين أن أخاكِ لا يُقبِل على عملٍ غير مشروع.

أومأت بشفتيها ثم قالت:

- وما العمل الذي يريدك به؟.

قال بحماس:

- أتتذكرين شركة الأمن التي كنت أعمل بها منذ ست سنوات؟.

- أجل أتذكر جيدًا.

تابع قائلاً:

- هذا كان يعمل معي بالشركة نفسها، أخبرني أنه ترك الشركة بعد أن تركتها مباشرة، واستقل بنفسه هو وبضعة أشخاص، يعملون جميعًا في قصر أحد رجال الأعمال من دول الخليج، وهو يريد أن يزيد بعض أفراد الأمن لحماية رجل الأعمال هذا عندما يتجول في الأرجاء، يأتي إلى مصر بين الفينة والأخرى ليتنزه ثم يعود مجددًا حتى يباشر أعماله هناك، كما أنه يريد أن يؤسس شركات هنا في مصر، أخبرني صديقي أن هذا الرجل يحب الأعمال الخيرية كثيرًا، ومن الممكن عندما يأتي أن يتكفل بجميع مصاريف العملية، ليس هذا فحسب بل ممكن أن يسدد ديني إذا علم به، وهذا سهل جدًا، كما قال لي أنه إذا أحبني ممكن أن يصطحبني معه إلى الخليج للعمل معه هناك .

عدلت دعاء من هيئتها التي تحمست جدًا للموضوع إلى أن قال أنه من الممكن أن يصطحبه إلى هناك؛ فقالت:

- هل ستذهب؟!.. أتتركنا وتذهب؟!.

قال وهو يمسح على وجنتيها:

- أحياناً الظروف تحتّم علينا ذلك يا عزيزتي، أحيانًا نكون مرغمين على أن نتعجل القدر، سأفعل أي شيء في سبيل أن تقوم أمي ثانية، وتعود إلى سابق عهدها، سأحسِّن من

مستوانا المادي، سيكون مستوانا الإجتماعي ممتازًا مقارنة بكثير من أهل البلدة، سيكون لدينا منزل جديد، ومع الوقت سيكون هناك سيارة خاصة، سيكون الوضع مختلفًا تمامًا.

صمت لبرهة ثم حدَّق إليها وقال:

- وأنتِ.. أنتِ ستتزوجين، أتحسبينني لا أدرك أنك ترفضين الزواج نظرًا إلى حالتنا المادية، ترفضين كي لا تقحميني في تجهيز مستلزماتك وخلافه، أنا أعلم كل ذلك يا عزيزتي، أحيانًا الفرصة لا تأتي إلا مرة واحدة، وأنا قررت أن أغتنم هذه الفرصة، إن كنت سأذهب فعليَّ الذهاب قبل أن يأتي ذلك الرجل، ولكن قلبي لا يطاوعني أن أترككما في وضعٍ كهذا وأذهب، لكن هذا الوقت المناسب الذي ينبغي عليَّ فيه الذهاب، إن كنت في ظل وجودي هنا لا أستطيع أن أقدم شيئًا، فَلْأَذهبْ كي أجني المال الذي سيفعل كل شيئ إذن.

صمت هنيهة ليتفقد أخته التي تساقطت العبرات على وجنتيها على إثر كلماته، مسحت دموعها بعدما لاحظت أنه انتهى وأنها لفتت انتباهه، فبادرت هي بالسؤال قائلة:

- وهل تعتقد أن ذلك الرجل سيعطي لك كل هذا المال هكذا؟، لا تتوهم عبثًا، هؤلاء لا يعطون المال دون مقابل.

قال بتهكم:

- مال!.. المبلغ الذي تقولين عليه مال قد يصرفه هذا الرجل في وجبة عشاء أو في نزهة ما، هذا لا يسمى مال بالنسبة لهم يا دعاء.

قالت مازحة بعدما تغيرت تعابير وجهها إلى ابتسامة مشرقة:

- ماذا يسمى إذاً يا عزيزي أدهومة؟.

قال وهو يقترب من حافة السرير مرة أخرى:

- ما هذا إلا فتات الفتات من المال قد تبقى منهم.

- حسناً وماذا ستفعل؟ هل ستذهب؟

- لا أعرف!، ما رأيك أنتِ؟

نظرت له مُحَدِّقةً به وهي تقترب منه ثم قالت:

- أتدري لو أَنَّ الأمر بيدي لقلت لك لا تذهب، ولو أنَّ الأمر متعلق بالمستوى المعيشي فقط لقلت لك لا تذهب، ولو أَنَّ الأمر متعلق بمنزلٍ راقٍ لقلت لك لا تذهب، فهذا المنزل يأوينا وهذا يكفينا، ولو أَنَّ الأمر متعلق بسيارةٍ فارهةٍ لقلت لك لا تذهب، ولو أن الأمر متعلق بالمستوى المادي لقلت لك لا تذهب.

سكتت للحظات ثم تابعت مندفعة بصوت عالٍ:

- ولو أنَّ الأمر متعلق بزواجي لقلت لك لا تذهب، ولو أَنَّ الأمر متعلق بتجهيزي كعروسٍ لمنعتك من الذهاب، بل لوقفت أمامك حاجزًا منيعًا كي لا تذهب.

سقطت العبرات من عينيها وهي تشدّ على يديه وتقول بصوت مخنوق:

- ولكن الأمر متعلق بأمي، وحياتها متوقفةٌ على هذه النقود، وأنت خير من يعلم جيدًا ما تعنيه لي أمي، لو أَنَّ الأمر بيدي لفعلت أي شيء في الدنيا في سبيل شفائِها .

سكتت مرة أخرى ثم تابعت قائلةً:

- ما عسانا أن نفعل يا أدهم حيال ذلك؟!، ما عسانا أن نفعل؟.

ضمها بحرارة، وظل يربت على كتفها، إلى أن هدأ روعها، ثم شهقت وهي تقول بصوت خافت:

- هل ستذهب؟، إن ذهبت فلا تتأخر كثيرًا، لأننا لا نستطيع مجابهة الحيزبونة أمل.

قالت هذه الجملة ومن بعدها تعالت ضحكاتهما لتملأ الغرفة بهجة، فقال لها أدهم مبتسمًا مازحًا:

- انتظري لم أقرر بعد، ما زلت أفكر، إني أرى بأنك متحمسة لذهابي، فلتصبري قليلًا لم أقرر بعد، وأيضًا لا أعلم هل هناك متسع لي أم لا، سيخبرونني بعد يومين.

ظلا يتسامران ويتبادلان الحديث حتى مطلع الفجر، ما أن تنبه أدهم إلى صوت القرآن نظر في الساعة المعلقة خلفه على الحائط مندهشًا ثم قال:

- يا لَلهول.. الوقت يمضي سريعًا، ظللنا نتسامر حتى بلغ الفجر دون أن نشعر بالوقت، سأذهب إلى الصلاة ثم أعود لأخلد في سبات عميق .

فأومأت دعاء برأسها وهي تتوجه ناحية الباب حتى تخرج كي تتوضأ، ذهب أدهم وتوضأ ثم توجه ناحية غرفة دعاء التي لم تنم بعد، ليخبرها قائلًا:

- لا توقظيني من أجل الإفطار، سأستيقظ قبل موعد العمل بساعة واحدة.. حسناً.

- حسنًا.. حسنًا.

خرج وأغلق الباب من خلفه بإحكام ذاهبًا إلى المسجد، الذي يبعد عن المنزل بضعة أمتار، على الطريق الرئيسي للبلدة، يستغرق ما يقارب من دقيقتين سيرًا على الأقدام، دخل المسجد ثَم صلى ركعتين ثم جلس يستند بظهره على أحد الأعمدة في منتصف المسجد، رجع برأسه إلى الخلف وغرق في شروده إلى أن أقام المؤذن الصلاة.

بعد أن انتهى من صلاة الفجر توجه إلى إحدى المظلات التي يجلس عليها الركاب في الطريق الرئيسي عندما ينتظرون سيارة الأجرة، جلس تحتها وظل يفكر ويفكر في مصير الخطوة التي يريد أن يتخذها، بل طال به تفكيره وشروده إلى أن انقشع الليل وبدأ الشروق يمحو ظلمة الليل الحالكة ليعلن عن بداية يوم جديد، أفاقه من شروده الصخب الذي يتعالى شيئًا فشيئًا ليعلن عن انبعاث الحياة مجددًا، ذهب بعد ذلك إلى المنزل، دخل الغرفة ثم أغلق الباب من خلفه وغَرِقَ في سبات عميق إلى أن استيقظ على رنين الهاتف كانت الساعة الواحدة ظهرًا، لقد تبقى على موعد العمل ثلاث ساعات، إذن مَن المتصل حاليًا؟، ولِمَ يتصل في وقتٍ كهذ؟!.

(٧)

نظر أدهم إلى الهاتف كانت الرؤية مشوشة بعض الشيء، لم يستطع أن ينتبه جيدًا ليحدد هوية المتصل، كانت عيناه تحترقان لعدم الكفاية من النوم، ما أن أجاب وسمع الصوت حتى حدد هويته.. إنها أمل، انتَبَهَ جيدًا إلى حديثها كي يشعرها بأنه لم ينسَ بأنهم على موعد بعد ساعة واحدةٍ، عند تمام الساعة الثانية ستأتي أختها وزوجها من الصعيد كي يقضوا معهم بضعة أيام، وجدتها أمل فرصة حتى يتعرف زوج أختها هالة على أدهم، طلبت أمها أن تخبره أن يكون متواجدًا معهم على سفرة الغداء، كي يتعرّفوا على بعضهم البعض، أخبرها أدهم أنه في خلال ساعة واحدة سيكون متواجدًا معهم بالمنزل.

عدّل من هيئته وهندم ثيابه، دخلت عليه دعاء فوجدته يقف أمام المرآة يصففُ شعره، فطنت من نظرته وابتسامته أنه ذاهب إلى أمل، جلست على الكرسي بجوار المرآة ثم نظرت إليه وهي ترفع حاجبيها وتتنحنح قائلة:

- أتيتُ كي أسألك إن أَرَدْتَ أَنْ أعُدَّ لك الغداء أم لا، ولكنك الآن تسبقني بالإجابة، ستذهب إلى أمل أليس كذلك؟.

نظر لها في المرآة وقد بدت على وجهه ملامح البهجة قائلًا:

- أجل سأذهب إلى أمل، أختها وزوجها سيأتيان إليهم اليوم، وجدتها أمل فرصة كي أتعرف على زوج أختها عن قرب.

- ومتى ستعود؟.

قال وهو يجمع أغراضه الخاصة بالصالة الرياضية ويضعها في الحقيبة:

- لا.. لن أعود.. سأذهب من هناك إلى العمل مباشرة، سأعود ليلًا كالعادة.

- حسنًا.. إنتبه لنفسك جيدًا.

توجه أدهم ناحية غرفة والدته كي يطمئنَّ عليها قبل الذهاب، أخبرها بأنه سيذهب إلى أمل ومن ثم إلى العمل، أخبرته أن يبلغها سلامها وأن ينتبه لنفسه جيدًا، قَبَّلها ثم خرج من الغرفة تتبعه دعاء التي طَبَعَ قُبلتَه على وجنتها هي الأخرى ثم انصرف.

وصل منزل أمل تزامنًا مع وصول أختها وزوجها، تبادلوا التحية وتعرف أدهم وزوج أختها الذي يدعى ماهر على بعضهما البعض، ثم جلسا في غرفة الضيوف يتسامران إلى أن تنتهي أمل وهاله من إعداد المائدة، أبدى ماهر إعجابه بأدهم وأخلاقه، كما أبدى إعجابه ببنيته الجسمانية التي تثير إعجاب كل من يراه، ظل يسأل أدهم عن طبيعة عمله، وبعض الأسئلة المعتادة لأي لاعب كمال أجسام ألا وهي.. لدي بعض الدهون في منطقة البطن والأرداف، كيف يمكنني التخلص منها؟، ظل أدهم يقدم له بعض النصائح بما فيهم أخبره أن يبتعد عن الأطعمة التي تحتوي على نسبة كبيرة من الدهون والمواد المهدرجة والسكريات وخلافه، وعلى الجانب الآخر سأله أدهم عن رحلته كيف كانت وما إن كانوا واجهوا صعوبة في المواصلات، إلى أن أقبلت أمل التي أخذت تُقَلِّبُ النظر بينهما وهي واقفة على الباب دون حَراك، فنطَقَ لسانُهَا بعد ذلك وقالت:

- أرى أَنكما اندمجتما مع بعضكما.

التفتت إلى أدهم ثم تابعت:

- الذي يشاهدكما هكذا يظن بأنكما تعرفان بعضَكما جيدًا منذ زمن بعيد.

فبادر ماهر بالحديث وهو ينظر لأدهم قائلًا:

- أدهم شاب محترم.. وأيضاً مَرِح ومتكلم.

ثم حوّل نظره إلى أمل وأردف:

- هنيئًا لكِ به يا أمل.. هنيئًا لكِ.

قالت أمل وهي تنظر إلى أدهم في تهكم:

- هو كذلك.. لكنه سريعًا ما ينسى أشياء مهمة.

أدارت لهما ظهرها متوجهة إلى المائدة وهي تقول:

- هيا.. الغداء جاهز.. لا تدعوه يبرد.

قال أدهم محدِّثًا ماهر وعلى وجهه ابتسامة خفيفة:

- هيا يا ماهر لا تدع أمل تنتظر وإلا ستقتلنا.

التفتت إليه مجددًا بعدما عَقَدَت حاجبيها وقالت:

- أهكذا!.. أجل.. هيا بنا .

تقدم أدهم يتبعه ماهر وجلسوا جميعًا على السفرة، جلست هالة بجوارها ماهر وبجواره أدهم، على الجانب المقابل جلست

أمل بجوار أمها، ظلت أمل تستَرِقُ النظر إلى أدهم لتشاهده وهو يجيب على الأسئلة التي تُلقى عليه تارة من ماهر وتارة من هالة ومن أمها تارة أخرى، تشاهد لباقته وأسلوب حواره وطريقة توضيحه لأشياء كثيرة تشاهده فقط لا تتحدث، استشَفَّتْ من هيئته أن هناك شيئًا ما يشوش على تفكيره، هي تعلم جيدًا ما يمر به من ضغوطات بسبب والدته، ولكن اليوم لَمَسَت فيهِ تغييرًا على غير العادة، فآثرت أن تسأله عندما يكونا في رفقة بعضهما البعض بعد الإنتهاء من تناول الغداء.

ما أن انتَهَوْا من تناول الطعام حتى قامت أمل لِتُعِدَّ كوبين من الشاي لها ولأدهم، بينما تَولَّتْ هالة تنظيف الطاولة فيما ذهبت أمها لتغتسل، استأذن ماهر من أدهم كي يستريـح بعض الوقت، لقد جاؤوا من سفرٍ بعيد فسمح له أدهم بصدر رحب، جاءت أمل تحمل الشاي بينما كانت هالة وأمها في الغرفة المجاورة للغرفة التي يجلس بها أدهم وأمل.

وضعت الشاي على الطاولة ثم جلست على الكرسي بجانب أدهم وسألته قائله:

- ماذا بك؟!

ارتشف أدهم رشفة من كوب الشاي وقال:

- ماذا بي!.. هل يوجد بي شيء يثير للقلق!.

قالت أمل وهي تضع النعناع له في الشاي:

- أدهم ماذا بك؟ .

- لا شيءَ.

كررت السؤال مجددًا ولكن هذه المرة بدأت تخرج عن طورها، بل بدأت تستشيط غضبًا فقالت:

- أدهم.. ماذا بك؟، لا تخرجني عن شعوري واضح جدًا بأن هناك شيء يشغل تفكيرك .

أجابها وهو يضع الكوب على الطاولة:

- مَن الذي أخبركِ بهذ؟ .

- لقد استشففت ذلك من طريقة كلامك أثناء الطعام.. ولا تَقُلْ لي موضوع العملية.. هذه المرة أنت تختلف كثيرًا عما كُنْتَ عليه مِن قَبْل.

تناول أدهم كوب الشاي، واتكأ على مسند الكرسي بعدما انسبلت عيناه، ثم تنهد وهو يقول:

- أجل إنه هو الموضوع نفسه، موضوع العملية.

- أدهم.

عدَّل من جلسته بعدما صاحت أمل متذمرة، فقال متابعًا:

- لكن هناك تغيير طفيف، وفي الوقت نفسه سيترتب على هذا التغيير أشياءٌ كثيرة قد تحدث إن لم أتخذ قرارًا بين ليلةٍ وضحاها، ولا أدري ماذا أفعل!، أشعر بأنني لا أستطيع التفكير، ولا أستطيع أن أبوح بما في داخلي.

اقتربت منه قليلًا وبدأت تتأثر نسبيًا بكلماته، ثم قالت بصوتها الحزين:

- فَلْتَبُحْ لي.. إن لم تَبُحْ لي بما في داخلك فلمن ستبوح به؟!.

- لا أدري.. لا أستطيع أن أقاوم كل ذلك وحدي، أتدري أحيانًا يكون التفكيرُ أشدَّ صفعةٍ قد يتلقاها المرء.

ازدردت ريقها وتغيرت تعابير وجهها كليًا إلى قلقٍ وتوترٍ، وبلهجة مضطربة قالت:

- ماذا بك يا أدهم؟، أخبرني.. دعني أخفف عنك.

نظر لها ثم قال:

- سأخبرك.. سأخبرك ولكن لا تخبري أحدًا.

عدَّلت أمل من جلستها ثم قالت بحماس:

- حسنًا.. هيَّا أخبرني.

بدأ يقص عليها ما يَشْغَلُ تفكيرَه، بالطبع لم يخبرها بالموضوع الحقيقي، لم يخبرها عن الشخص الذي اتصل به وأخبره بأن هناك ذهبٌ كثير عليهم إخراجه من باطن الأرض وخلافه، بل أخبرها بما كان أخبر دعاء به، الكذبة نفسها التي ألفها من بُنَيَّاتِ أفكاره كي يشوِّشُ على الموضوع الرئيسي الذي لا يعلم به سوى أحمد فقط، كما أخبرها بأنه قد يسافر مع رجل الأعمال حيثما يذهب، وأخبرها بأن ذلك الرجل قد يساعده في مصاريف عملية والدته، بل قد يتكفل بكل شيء، وغير ذلك سيكون له راتبٌ مُغْرٍ جدًا، كان يقول

هذه الكلمات وهو يتابع تغييرات ملامح وجه أمل التي سَرَحَتْ بخيالها بعيدًا إلى أن استوقفته قائلة:

- هل أنت مجنون؟.

- لماذا؟.

بدأت تتغير ملامح وجهها إلى حنق وضيق فتنهدت ثم قالت مندفعة:

- لأن الذي يرفض عرضًا مثل هذا من الطبيعي أن يكون في عقله خلل ما، وأيضًا أنت في أمسّ الحاجة إلى تلك النقود، والدتك ستجري العملية الثانية خلال بضعة أسابيع، من أين ستتحصل على المال!، عليك التفكير مرارًا وتكرارًا يا أدهم، عليك التفكير.. عليك التفكير.

صمتت بضع لحظات ثم أردفت:

- وأيضًا ما زال أمامك الكثير من الأشياء عليك إتمامها حتى تتزوج أرى بأنك تتجاهل هذه الأشياء تمامًا.

صمتت مرة أخرى بينما أدهم يتابعها في سكونٍ تام وهي تسبح بخيالها بعيدًا بقولها:

- أيوجد شخص يُعرَض عليه كل هذه الأشياء ويرفض!، صراحة لا أستوعب طريقة تفكيرك يا أدهم، عجبًا لك.

قال لها وهو يضع يده على خده ناظرًا لها مبتسمًا:

- لماذا يا أمل؟!.

- سيارة فارهة.. ومنزلٍ راقٍ.. ومستوى إجتماعي نادر في هذه البلدة.. ومستوى مادي أكثر ندرة.. وعندما أريد أن أذهب إلى مكان ما.. أركب سيارتي الخاصة.. يشير عليّ الجميع ويقولون فيما بينهم لقد ذهبت أمل هانم.. لقد جاءت أمل هانم.. وعندما أريد شيئًا ما من أي شخص.. سيقول لإبنه أو ابنته ضع هذه الأشياء في سيارة الست هانم.. وسأكون أنا منتظرة في السيارة.. منتظرة إلى أن ينتهي ويقبل إليّ كي أعطيه إكرامية ما.. سأذهب لأشتري أرقى أنواع الفساتين من أرقى المحلات.. سأشتري أفضل الماركات.. وسأُكوّن صداقات مع سيدات مجتمع راقيات.. وسأكون سيدة مجتمع مرموقة.. حينها سيكون لي مشروعي الخاص.. وسيكون لدي موظفون عدّه.. سأعين مَن أريد وسأطرد مَن أريد.. سأكون...

- أمل.. أمل.

- ها!.

- ماذا بكِ هل جُننتِ!.

قال لها أدهم هذه الكلمات وهو يضحك ضحكًا هستيريًا على مظهرها وملامحها البلهاء، وأخذ يضرب كفًّا بِكفٍّ من هذا المشهد العجيب، ما أن أفاقت أمل من غفلتها؛ حتى أمسكت بكوب الشاي، فتبين لها بأنها شردت لبضعة دقائق عندما وجدته باردًا، نظرت لأدهم فوجدته قد تهالك ضحكًا على أثر حديثها، استشاطت غضبًا عندما رأته لا يأخذ الموقف على محمل الجد، بل بدأت تعنّفه بحنقٍ شديد ومن ثَمَّ نهضت من جانبه من على الكرسي وبدأت تسير في الغرفة ذهابًا وإيابًا، تسمع هالة وأمها بالغرفة المجاورة زمجرتها، تخبرها أمها أن تهدِّىءَ من روعها، بينما هالة تخبرها أن

تخفض صوتها كي لا توقظ ماهر، فثارت أمل في وجههما ثورة شديدة، دَفَعَتْهما للمجيء من الغرفة التي كانتا تجلسان بها لتتبادلا معهما أطراف الحديث.

دخلت هالة وتبعتها أمها وقد عَلَتْ وَجْهَيْهِما ابتسامة جعلت أمل تثور أكثر وأكثر حتى ظلت تضرب الأرض برجليها كالطفلة قائلة:

- ماما.. فلتحكمي بيننا يا ماما.

قالت أمها وهي تجلس إلى جانب هالة على الكرسي المقابل لها ضاحكة:

- ماذا بكِ يا أمل؟!، إخفضي صوتك قليلًا سيستيقظ ماهر على صراخك.

قالت أمل وقد استشاطت أكثر وهي تشبك يديها ببعضهما لتضعها فوق رأسها:

- ماما.. لا تثيري غضبي، لقد سمعتِ ما قاله أدهم للتو، أليس كذلك؟.

قالت أمها وهي تزم بشفتيها وتضرب كفاً بكفٍّ:

- سمعت يا ابنتي سمعت.

ثم نظرت إلى أدهم وقالت:

- لا يا أدهم.. ليس لك حق في هذا يا بني، أيرفض أحدًا هذا العرض المغري!.. عجبًا والله.

يسمع أدهم كلماتها وهو ممتعض، وكلما تمادت في الحديث كلما استشاط أكثر ولكنه لا يُظهِر لأحدٍ منهم شيئًا خشيةً من افتعال مشكلة ما، هو يوقن تمامًا بأنها هي التي تقوّي ابنتَهَا أمل على الخوض في حديث كهذا، وهي التي تدَسُّ السُّمَّ في العسل، لكن على أي حال هو سيفعل كما يفعل كل مرة، سينهي حديثه بحجة أنه سيغادر كي يذهب إلى العمل، وها هو يمسك بهاتفه من على الطاولة ويتناول المفتاح ثم ينهض من على الكرسي وهو يقول:

- معك حق في ذلك يا طنط، سأفكر في الأمر، الآن أستأذنكم كي لا أتأخر على العمل .

ثم نظر إلى أمل وأردف:

- سأخبرك بما توصلت إليه من قرار عندما أستقر.

قالت له أمل وهي تشير لها بيدها:

- حسناً.. ولكن دع في حسبانك بأن كل شيء متوقف على هذا القرار، حياتنا.. مستقبلنا.. حتى العملية تتوقف على ذلك العمل الذي لا أدري لماذا تُعْرِضُ عنه!.

- حسنًا.. حسنًا.

*****

حمل أدهم حقيبته ثم توجه في طريقه إلى النادي، منبه الهاتف يدق معلنًا الثالثة مساءً كما ضبطه أدهم في الصباح، ما زال أمامه ساعة كاملة على موعد العمل، كانت الطرقات خاوية لا يوجد بها أحد، في هذه الأجواء الصيفية وفي هذا التوقيت بالتحديد

الجميع يلزمون منازلهم تفاديًا لأشعة الشمس الحارقة، ويبدأون بالخروج بعد العصر، يحمل أدهم حقيبته في يده ماشيًا لا مبالٍ بحرارة الشمس الحارقة، ولا يبالي بأمر العواصف الترابية التي تُغِير عليه بين الفينة والأخرى، ظل يمشي شارد الذهن يفكر فيما سيفعله وفيمَ عليه فعله، الجميع يدفعه إلى المجازفة، وكل شيء متوقف على هذه المجازفة، حياة أمه.. زواج أخته.. زواجه بأمل.. ومستقبله.. ولكن ماذا لو أخفق!، الجميع يدفعه ومرض أمه يدفعه ومستقبل دعاء يدفعه وأمل.. أمل التي تدفعه وبقوة، يا لهذا الطمع الذي يودي بحياة صاحبه ذاتَ يومٍ، لا أحدَ يمنعه سوى أحمد لأنه يعلم ماهية الأمر، ولئن عَلِمَتْ دعاء ستستميت من أجل منعه، لكن أمل لو علمت ماهية الأمر لدفعته بقوة أكبر، لضغطت عليه كي تحقق آمالها ومطامعها، فَزِعَ أدهم من شروده على صوت سيارة تقترب منه يحاول سائقها السيطرة عليها بعدما ضغط على مكابحها كادت أن تصطدم به لولا أن أدهم ارتمى يمينًا بينما انعطف السائق يسارًا، توقفت السيارة عندما تمت السيطرة عليها ثم نزل منها شاب ثلاثيني متوجهاً ناحية أدهم .

*****

(٨)

نزل من السيارة شاب في الثلاثينيات من عمره تقريبًا، ثم ركض ناحية أدهم مسرعًا، وقبل أن يقترب منه نهض أدهم من على الأرض، وبدأ بتنظيف ثيابه من التراب، تاركًا المجال لذلك الشاب كي يتكلم، وما أن وصله الشاب حتى بادر بالسؤال في لهفة:

- هل أنت بخير؟، هل حدث لك شيء؟.

قال أدهم وهو ينظف ملابسه:

- لا عليك.. أنا بخير.

فقال الشاب بلهجة يسيطر عليها التوتر:

- إن كان هناك شيء يؤلمك أو شيء يدعو للقلق دعنا نذهب إلى المستشفى، يقال أنه يوجد مستشفى على مشارف البلدة.

ابتسم أدهم ثم قال له وهو ينظف ما تبقى من الغبارعلى ذراعه:

- الحمد لله، كل شيء على ما يرام، أنا بخير .

التف الشاب حوله، ثم توقف خلفه تمامًا، وبدأ ينظف له الغبار المتلاصق على ظهره ثم قال:

- لماذا تسير في شارعٍ مثل هذا في هذا التوقيت؟.

- أنا ذاهب للعمل.

فقال الشاب وهو يحملق به من الخلف:

- واضح بأنك كنت شاردَ الذهن.

تعجب من سؤاله فقال:

- كيف عرفت ذلك؟!.

- لقد رأيتك من بعيد تمشي في منتصف الطريق، ظننتك تقطع الشارع لتسير في الجهة الأخرى، لقد كنتُ مشغولًا بالهاتف وأنا سائق فبالتالي لم أنتبه لك إلا عندما اقتربت تمامًا، وعندما اقتربت وجدتك لا تزال في منتصف الشارع

انحنى أدهم وأمسك حقيبته لينظفها وهو يقول:

- صحيح.. لقد كنت شارد الذهن، من كثرة التفكير لم أنتبه إلى السيارة إلا وهي أمامي.

- حسنًا.. الحمد لله، أين منزلك كي أصطحبك إليه حتى تبدل ثيابك.

قال وهو يشير بيده ناحية آخر الشارع:

- لا.. لا تشغل بالك بشيء، أنا أعمل في صالة الألعاب الرياضية التي في آخر هذا الشارع.

نظر إلى الحقيبة ثم تابع:

- وهذه الحقيبة يوجد بها ملابس نظيفة، سأرتديها هناك وأنظف ما عليّ من أوساخ، هيا فلتصحبك السلامة.

تركه أدهم ثم تقدم في طريقه، بينما الشاب ركب سيارته وغادر يلوِّح له بيده، وصل النادي قبل موعده بنصف ساعة، تعجب زملاؤُه والمسؤول من هيئته، اندفعوا نحوه مسرعين حتى يعلموا ما حدث له، بينما التف حوله اللاعبون ليطمئنوا على مدربهم، قصَّ عليهم أدهم ما حدث ثم توجه إلى الحمام ليغتسل ويبدل ثيابه المُتَّسِخَة، وبعد أن خرج من الحمام بدأ يباشر عمله كمدرب، تولى تدريب بعض اللاعبين وكلما سأله أحدهم عن شيء أو عن كيفية عمل التمارين أَلْقاهُ شاردًا، لا يرد إلا إذا وكزه أحدهم ليلفت انتباهه، وما أن يتركه حتى يعود لشروده مجددًا، ظل على هذا المنوال ما يقارب من ساعة، حتى لاحظ المسؤول هذا الأمر فأخبره أن يستريح، لكنه كان يرفض باستمرار، وبعد أن تكرر الأمر عدة مرات أمره المسؤول أن يذهب ويستريح، ليس هذا فحسب بل أخبره بأنه منحه اليوم عطلة من أجل الذي حدث له أثناء قدومه، فوافق أدهم على الفور، لقد أنهكه التفكير كثيرًا وعليه أن يرتاح بعض الوقت.

ذهب إلى المنزل مرة أخرى حاملًا حقيبته، ما أن دلف إلى الداخل حتى شعرت دعاء التي تجلس في غرفتها بأن أحداً ما قد فتح الباب، وبالطبع لم تكن أمها فهي نائمة في الغرفة المقابلة دون حَراك، لا تتوقع أن أدهم سيعود في هذا الوقت، كان هناك سكينًا على الطاولة أمامها كانت تقشر بها بعض حبات البطاطس لتجهيز العشاء، أخذت السكين وتوجهت ببطء ناحية الباب الداخلي لغرفة أخيها، تقترب من الغرفة في حذر، تسمع صوت وقع أشياء على الأرض، اقتربت أكثر وأكثر والتوتر يزداد، تسمع صوتًا خافتًا يهمس ويقول كان هناك.. لقد رأيته هنا، عدّلت السكين في يدها كي تعطي لنفسها المجال في استخدامها،عزمت أن تفتح الباب على حين غِرّة

وتضربه بالسكين، ثم تصرخ وتستنجد بجيرانهم، فتحت الباب بسرعة ثم دخلت مسرعةً موجّهة السكين ناحية ذاك الشخص، ما أن حددت مكانه وتبينت ملامحه فطنت أنه أدهم.

وضعت دعاء يدها على صدرها وهي تُخْرِجُ زفرةً قوية، فيما كان أدهم ينظر إليها بعدما تبدلت ملامح وجهه وبدأت تنفرج شفتاه قائلًا:

- ماذا بكِ يا فاندام؟، ما هذه الدخلة المفاجئة؟!.

- فاندام!.

- أجل.. لقد ذكرتيني به بانقضاضك هذا عليّ.

جلست على الكرسي ثم وضعت السكين جانبًا على الطاولة وقالت مبتسمة:

- ظننت أنك حرامي، لم أتوقع أنك ستأتي الآن، لقد ذهبتَ لِتَوِّكَ إلى العمل، ما عساي أن أفعل غير ذلك، هل أتركه يسرق أشياءَك؟!، هل كنتَ تريد ذلك؟!.

ضحك بصوت عالى محدثًا قهقهة ثم قال:

- أشيائي!.. أين أشيائي التي تتحدثين عنها؟!.

صمتت هنيهة ثم تابعت بلهفة:

- لماذا جئتَ الآن؟!، أم أنك لم تذهب من الأساس!، أم جئت لتأخذ الشيء الذي تبحث عنه ثم تعود!!، ما الشيء الذي تبحث عنه؟ ها، هل وجدته أم لا؟.

بينما هي تتحدث هو ينظر إلى حركاتها التي تصدر عنها ويظل صامتًا مبتسمًا لا يحرك ساكنًا، وما أن انتهت من أسئِلتها حتى أَخَذَ يضحك بصوت عالٍ مما جعلها تغتاظ أكثر فقالت:

- لماذا لا تجيب؟!.. وعَلَامَ تضحك!.

حكى لها ما حدث معه، بداية من خروجه من منزل أمل، وشروده في الشارع الكبير، ثم السيارة التي كادت أن تصطدم به، وعن الحوار الذي دار بينه وبين الشاب الثلاثيني، ومن ثَمَ عندما ذهب إلى النادي، وفزع المتواجدون من حاله عندما شاهدوه بملابسه المُتَّسِخَة، وما فعله المسؤول أيضًا إلى أن انتهى به الحال أمام السكين الخاص بها وانقضاضها عليه.

كانت وهي تستمع له ينتابها الذهول، فتربت على يده وتشدّ عليها من وقع الكلمات على مسامعها، وظلت تتفقده إن كان به شيء ما، وبعدما انتهى قالت:

- وماذا عن ماهر وهالة؟، كيف كانت مقابلتهما لك؟.

- هالة.. بطبيعة الحال كنا قد تعرفنا على بعضنا البعض عن قرب سابقًا، هذا غير أنها كانت تعرفني مسبقًا بحكم أننا نعيش في بلدة واحدة.

- وماهر.. ماذا عنه؟.

- ماهر.. من الواضح أنه شخص خلوق ومحترم، ومرح يحب الضحك أو كما نقول وجهه بشوش.

- هل يحب هالة؟.

- يحترمها.

ثم شاح بنظره وتابع:

- ويحبها كثيرًا.. وهي كذلك، أتدري.. أحيانا يكونُ الاحترامُ أعظمَ من الحب يا عزيزتي.

قالت وهي تضع يدها على خديها مبتسمة:

- و كيف ذلك أيها الفيلسوف؟.

- سأخبرك.. عندما يحب شخصان بعضهما قد يسيء أحدهما إلى الأخر في يومٍ ما سواء بقصد أو بدون قصد، لكنه يعلم أنه سيغفر له لأنه يحبه، فإن أساء مجددًا.. يتظاهر بأنه دون قصد.. فيغفر له.. وهكذا، أحيانًا يا صغيرتي يكون الحب مذلة للمُحِب، أما عندما تسيء إلى شخص تحترمه ويحترمك فسيغفر لك بالتأكيد، ولكن سيقل هذا الإحترام، ومع أول إساءة أخرى.. سيقل أكثر، وإن أسأت مرة أخرى سينشَأُ حاجز بينك وبينه ومن ثَم سيبدأ بتجاهلك، ثم بالإبتعاد.. إلى أن ينتهي هذا الإحترام تمامًا وتكون مجرد شخص كباقي الأشخاص، أو أنك لن تتحصل على مكانة كباقي الأشخاص العاديين.. سيتحول الإحترام الكامل الذي كان؛ إلى إحتقار، فبالتالي ستحرص جيدًا على ألا تُقْدِمَ على إساءة له مرة أخرى كي تحافظ على الإحترام بينكما، ولكن تخيلي أن يجتمع الإحترام والحب معًا، سيكون من الصعب تلاشي العلاقة بين الطرفين، لن يسيءَ الشخص إلى الآخر كي لا يخسر احترامه ولا يتبخر ذلك الحب .

كانت دعاء تستمع له وهي تضع يدها على خدها وكلما قال كلمة ترفع حاجبها مندهشة، ثم تنهدت بعدما انتهى من كلامه وقالت:

- يا لك من فيلسوف.. ما هذا كله يا أدهومة؟!.

ابتسمت على إثر ابتسامته ثم تابعت:

- وماذا عن أمولة.. هل بينكما حب واحترام؟!.. أم ماذا؟.

- أمل تختلف عن هالة كثيرًا، لعلها تتغير وعندما تبلغ مبلغها من العمر تبلغ مبلغها من الإحترام والرضاء.

رجعت بظهرها لتستند على الكرسي ثم سألته قائلة:

- هل أخبرتها عن موضوع العمل الجديد؟.

- أجل.. لقد أخبرتها.

- وما كان ردها؟.. انتظر سأقول لك ماذا قالت، وافقت على الفور، بل ظلت تتحجج لك بالمستقبل والمستوى المادي والاجتماعي وأشياء من هذا القبيل، أكاد أجزم أنها ألحّت عليك أن تذهب، أليس كذلك؟.

عدّل من جلسته وهو يضرب كَفًّا بِكفٍّ ويقول بتعجب:

- مستحيل!!.. من الواضح بأنكِ كنتِ جالسة معنا.

ثم ابتعد عنها قليلًا وضحك مردفًا:

- أو أن صديقتك أخبرتك بهذا.

قالت وهي تزم بشفتيها ساخرة:

- صديقتي.. ها.. لا تَقُلْ صديقَتُكِ هذه مرة أخرى .

- حسنًا لا تتذمري.

هَدَّأَتْ من روعها ثم قالت:

- ما الشيء الذي كنتَ تبحث عنه؟.. هل وجدتَه؟.

وقف أدهم يبحث مجددًا في خزانة الملابس وكأن دعاء ذكّرته به فقال:

- لا لم أجده.. ولا أعرف أين اختفى .

- أخبرني ما هو لعلني أجده.

- الهاتف السامسونج الصغير الذي كان معي قبل هذا.

فأجابته قائلة:

- إنه بالداخل في غرفة أمي.. سأحضره لك .

ذهبت دعاء لتحضر له الهاتف بينما أدهم قد جلس على السرير ممددًا وغاص مجددًا في التفكير، عليه أن يتخذ قرارًا في أسرع وقت، سيتصل ذاك الشخص الذي يدعى البروجي غدًا ولن يتصل مرة أخرى، ماذا يفعل؟، سمع طرقاتٍ على الباب فنهض ليفتحه ويكشف عن هوية الطارق.

*****

فتح الباب فوجد أمامه أحمد وبجانبه حازم ومن خلفهما عاصم مما أثار دهشته فقال:

- أهلًا وسهلًا تفضلوا بالدخول .

ثم نظر إلى أحمد في ريب وتابع مازحًا:

- عاصم بيه في منزلنا!.. يا أهلًا وسهلًا .

أشار إلى أحد الكراسي وقال:

- تعالَ واجلس هنا.

أشار عاصم إلى السرير ثم قال ضاحكًا:

- لا.. سأجلس هنا على السرير .

توجه أدهم ناحية الباب الذي خرجت منه دعاء ليغلقه وهو يقول مازحًا:

- هل أتيت لتعيد الأيام الخوالي؟!، أم هناك سبب آخر لهذه الزيارة السعيدة.

فدخل أحمد ليتبادل معهم أطراف الحديث قائلًا:

- لقد علم عاصم بما حدث لك، عندما كادت أن تصطدم بك السيارة وسرعان ما أخبرني، ثم مَرّ عليّ هو وحازم كي نأتي ونتدبر أحوالك.

فقال حازم وهو يضع رِجْلًا على الأخرى:

- أخبرنا يا أدهم ماذا حدث؟، هل أصابك شيء؟.

وسأله أحمد بلهفة وهو يشد على يده في قلقٍ:

- هل حدث لك شيء؟.. أخبرني.

فقال أدهم وهو ينظر في عينَيْ أحمد ويربت على يديه:

- الحمد لله لم يحدث شيئ.

ثم بدأ يروي لهم ما حدث وما فعله ذلك الشاب، وما فعله المسؤول وزملاؤُه في النادي، إلى أن انتهى به الأمر عند قدومهم، ذهب إلى الداخل ليحْضِرَ الشاي الذي أعدَّتْه دعاء، وبعد ذلك جلسوا يتسامرون إلى أن سأله حازم عن ما سيفعله في الأيام المقبلة بخصوص أمه، فأخبرهم عن العمل الذي قُدِّمَ له مع أحد رجال الأعمال، لكنه لم يحسم الأمر بعد، لم يستطع اتخاذ قراره، كان أحمد ينظر إليه بتعجب، تقدح عيناه شررًا، وجَالَ بخاطره عند سماع كلامه بأن من الواضح أنه قد حسم أمره منذ فترة، لم يتحدث بشيء البتة بل تركه يكمل حديثه، لكن حازم كان يدفع أدهم كي يُقْدِمَ على ذلك العمل، وعاصم من جهة أخرى، ظلا هما الإثنان يحثانه على الذهاب، ليس من أجله فقط بل من أجل أمه التي تصارع الموت، كما قال عاصم بأنه ممكن أن يقدم له يد العون مرة أخرى، ولكن في هذه الأثناء لم ينفعه بل سيكون يقدم له ضررًا كبيرًا، لأنه في يوم ما لا بد أن يسدد هذه الديون التي لن يقوى على سدادها، سيظل عُمْرًا كاملًا وهو يسدده، لذا فعليه الذهاب، أخبرهم أدهم بأنه سيفكر مَلِيًّا في الموضوع، كان أحمد ينتظر إلى أن يذهب عاصم وحازم كي يفرغ لأدهم ما في جعبته من كلمات، وبالفعل خرج عاصم وتبعه حازم، وبَقِيَ أحمد وأدهم وحدهما في الغرفة .

*****

دخلت عليهما دعاء وجلست مقابلهما ثم قالت بعدما رحبت بأحمد:

-ما رأيك في العمل الجديد الذي يريد أدهم الذهاب إليه؟.

استشف أحمد من كلامها أنَّ أدهم ابتكر هذه الكذبه كي لا يبقيهم قلقين عليه عند ذَهابه، كاد أن يتحدث ولكنه غيَّر ما كان سيقوله عندما شدّ أدهم على يده، فنظر له ثم قال بعدما كشَّر عن أنيابه:

- إن شاء الله يَحْسِمُ القرار الصائب، ولا يفعلُ شيئًا يندم عليه في وقت لا يكون فيه نَدَمٌ.

قالت دعاء وهي تهمّ بالخروج من الغرفة:

- لا تذهب سأجهز لكما العَشاء.

حدق أحمد إلى أدهم بعدما أغلقت دعاء الباب من خلفها وقال:

- أرى أنك قد حسمت قرارك من زمن.

- وما عساي أن أفعل؟، أنت خير من يعلم بالحال، أخبرني إذن كيف سأدبر المال من أجل العملية؟، هيا أخبرني .

- سنحاول.. بشتى الطرق سنحاول، لا تقدم على فعل قد يودي بحياتك يا أدهم، ماذا ستفعل أمك وأختك إن حدث لك شيء؟.. ها، أخبرني أنت ماذا سيكون حالهما؟.

اقترب منه وشدَّ على يده وقال:

- وهذا ما أريده منك.. أمي وأختي، أريدك أن تعتني بهما إلى حين عودتي يا أخي.

قال له أحمد بلهجة صارمة غاضبة:

- الطريق الذي تريد الذهاب به خطير، هل لك أن تخبرني عن مصيرك إذا علمت الشرطة بما تفعلونه؟!، كيف لك أن تحكم بأنَّ هذا الشخص صادقٌ من الأساس ها؟، وكيف لك أن تَثِقَ بأنهم سيعطونك المال كما قال؟، أو حتى يجعلونك شريكًا فيما يستخرجونه؟

ثم تابع بلهجة أكثرَ صرامةً هذه المرة:

- أدهم.. لا تتخذ قرارًا يجعلنا جميعا نَعَضُّ الأناملَ مِنَ الحسرة والندم، لا تفعل يا أدهم.. لا تفعل.. حبًّا في الله لا تفعل.

قال أدهم وهو يشد على يده مرة أخرى ويربت عليها:

- لقد اتخذت قراري يا صديقي، لا أستطيع أن أجلس هكذا مكتوفَ اليَدَيْنِ بينما أمي تصارع المرض.. لا أستطيع.

صمت لبرهة ثم تابع:

- سيهاتفني الرجل غدًا، وسأبلغه بقراري، ومن ثم سأذهب وأعود بالمال، أخبرنا الطبيب أنه سيجري العملية عندما ينتهي من جلسات العلاج، إلى ذلك الحين سأكون دبرت أمر المال وعُدْت.

وقف أحمد وأخذ يذرغ الغرفة جيئة وذهابًا، ثم قال ويشير إلى أدهم بأُصبعه:

- وهل ستعود حقًا!، أرى بأنك قررت وخططت لكل شيء، غير ذلك فإنَّكَ تكذب عليهم كي لا يمنعوك، حتى أنا.. حتى أنا لا تُصغِي إلى كلامي.

توقف أمامه ثم عاد ليقول:

- ولكن إن كنت ستذهبُ حقًا.

حملق فيه بشدة ثم أردف:

- سأذهب معك.

وقف أدهم ليكون على مقربة منه وقال:

- أحمد.. ماذا تقول؟!.

- كما سمعت.. لن أَدَعَكَ تذهب وحدك.. وإلَّا لن تذهبَ .

- ومن الذي سيعتني بدعاء وأمي؟، لا أقدِر أنْ أَئْتَمِنَ أَحَدًا سِوَاكَ يا صديقي.. هل ستخذلني؟!.

صاح به غاضبًا:

- سيقتلونك.. إن ذهبت وحدك سيقتلونك .

تَوَقَّفَا عن الحديث عندما فتحت دعاء الباب فجأة لتقول بوجهٍ مُصْفَرٍّ وكأن الدماء توقفت عن التدفق فيه:

- مَن؟.. مَن الذي سيقتلونه؟!.

(٩)

توقفت دعاء على الباب في ذهولٍ تام، غيرَ مُصَدِّقَةٍ لما سمعته، ولكن الهيئة التي عليها أدهم وأحمد توحي بأن أخيها مُقْبِلٌ على فِعْلِ شيءٍ خطير، فسألت مجدداً بشفة مرتجفة:

- مَن الذي سيقتلونه؟، أحمد.. أخبرني يا أحمد، ما الذي سيصيب أدهم؟!، لقد سمعتُك تقول له سيقتلونَك، مَن يا أحمد مَن؟.. ولِمَ؟!.

قالت هذه الكلمات ثم انسَكَبَتِ الدموع على وجنتَيْها وجلَسَتْ تبكي على السرير فأمسك أدهم برأسها وضمها إلى صدره ثم قال:

- دعاء.. ليس هناك شيء يدعو للقلق، لقد كنا نتحدث وحسب، لا يوجد شيء، لا تَبْكِ كي لا تستيقِظَ أمي على صوت بُكائِك.

قال أحمد بغضب:

- لا.. بل يوجد.

- أحمد.

تابع أحمد قائلًا غير عابئٍ بصياح أدهم:

- ما دمتَ لا تُصغِي إليَّ فسأخبر دعاء لعلّها تمنعك هي.

اعتلج صدرها بالهم وخفق قلبها عندما سمعت ذلك، فقالت:

- أحمد ماذا حدث لقد أَثَرْتَ قلقي!.

قال أدهم محاولًا تلطيف الأجواء كي لا يتحدث أحمد:

- أحمد يمزح.. ولا شيء غير ذلك.

ثم نظر إلى أحمد وهو يشده من يده ويقول:

- أليس كذلك يا أحمد؟.

- لا.. غير صحيح.. أنا لا أمزح.

قال أدهم بعدما أيقن أنه قد عزم على اخبارها:

- حسناً.. لن أذهب.. إِرْتَحْ داخلك الآن؟، لن أذهب إلى ذلك العمل يا أحمد، لقد تراجعت عن قراري ولن أذهب.

ثم نظر إلى دعاء وأكمل:

- أحمد كان يتحدث معي عن المخاطر التي قد أتعرض لها إن أصبحتُ برفقة ذلك الرجل، ويخبرني أن ذلك العمل يختلف عن غيره، لذلك كنا نتحدث بصوتٍ عالٍ.

توقفت دعاء عن البكاء قليلًا ثم قالت:

- حسنًا.. وماذا عن قوله سيقتلونك؟.

أضاف أدهم:

- كان يقول إن حدث شجار بين ذلك الرجل وشخص آخر لن يتوانى رجاله أن يقتلوا أي شخص في طريقهم، لذلك لن أذهب.

فقالت وهي تمسح دموعها:

- إذا كان الأمر كذلك فلا تذهب، لن نتحمل أن يَمَسَّكَ سُوءٌ.

- حسناً.. لقد صرفت النظر عن هذا الطريق، سأحاول تدبير النقود من مكانٍ آخر.

جلس أحمد بعدما أيقن أن أدهم بدأ يصرف النَّظرَ عن ذلك الموضوع، وفضل عدم اخبار دعاء كي لا ينتابَها القلق دون مبرر، بينما جلس أدهم على الجانب الآخر ودعاء خرجت لتكمل تحضيرَ العَشاء، ظل أدهم يتفقد الهاتف الصغير الذي أحضرَتْه أخته من الداخل، بينما أحمد ينظر له دون حَرَاك، إلى أن نظر إليه أدهم وقال كي يطمئنه:

- كفاك غضبًا، لن أذهب، ولكن علينا التفكير في كيفية تدبير النقود .

- سندبرها إن شاءالله، ما زال أمامنا بعض الوقت سنحاول تدبيرها.

ثم نظر إلى الهاتف الذي في يده وقال:

- لماذا أخرجت هذا الهاتف مجددًا، ألم تقل بأنك لن تستخدمه مرة أخرى وستحافظ عليه ذكرى.

- لقد فكرت أن أبيع هاتفي، لذلك أخرجتُ هذا، إنه جديد كما أهديتني إياه، أتتذكرُ عندما أعطيتَه لي عندما تعطل هاتفي؟.

- أجل أتذكر جيدًا.. كنتَ دائمًا تقول هاتف لَمْسٍ بحجم علبة السجائر .

ضحكا سوياً إلى أن دخلت عليهم دعاء، بالعشاء فاستشفَّت أن كل شيء على ما يرام، ثم خرج أدهم وأحمد بعدما أنتهيا من تناول العشاء، خرجا ليستنشقا بعض الهواء النقي، وليمشوا قليلًا بعدما انتَهَوْا من تناول الطعام، وبعد ما يقارب من ساعتين عاد أدهم مجددًا، كانت الساعة قد شارفت على الثانية عشرة، وجد دعاء قد غلبها النعاس بجوار أمه، فأسدل عليهما الغطاء ثم خرج إلى غرفته، ظل يفكر طوال الليل فيما سيفعله، ومن أين سيجني المال غير أنَّه كان قد حسم أمرَه منذ ساعات بصحبة أحمد ودعاء، ولكن كان هناك صوت بداخله يؤكد بأنه اتخذ القرار.. القرار الذي لا رجعةَ فيه، ثم غلبه النعاس ولم يستيقظ إلا على رنين الهاتف.

****

استيقظ أدهم عندما سمع رنين الهاتف، كانت الساعة التاسعة صباحًا، نظر في الهاتف فوجده رقمًا غريبًا، فَعَنَّ على باله ذاك الرجل الذي أخبره بأنه سيهاتفه بعد يومين ليبلغه بقراره.. إنه البروجي، ارتبك عندما تذكر أن الرجل قد اتصل على هاتف أحمد وليس هاتفه سابقًا، فسرعان ما بادر بالرد، حتى لا يتصل بأحمد، أجابه وهو يقول في قرارة نفسه لعله شخص آخر، فتفاجأ عندما سمع الصوت نفسه، هو إنه هو الرجل نفسه، أخذ أدهم الهاتف وخرج من الغرفة ثم أغلق الباب خلفه، كي لا يلفت انتباه أخته التي استيقظت منذ فترة، فقال البروجي على الجانب الآخر:

- كيف حالك يا أدهم؟.. بالطبع لا تزال تتذكرني.

- أجل أتذكرك.. أنا بخير.. كيف حصلت على رقمي؟!.

- يا أدهم.. هذا سؤال ساذَج جدًا ولقد أجبتُك عليه سابقًا.

صَمَتَ لِلَحظاتٍ ثم تابع قائلًا:

- أردتُ أن أطمئن عليك بسبب ما حدث لك أمس، لقد علمت أنك كنت على وشك الموت، لولا أنَّ اللهَ ستر.

جحظت عيني أدهم وكادت أن تخرج من محجريها، عندما سمع ما قاله الرجل فقال:

- كيف؟!.. كيف علمت؟! .. لم يكن هناك أحدٌ في الشارع، كيف؟!.

- ألم أقل لك أننا نهتم بمن سيعمل معنا جيدًا.

ثم صمت ليستشعر ردَّة فعله وعندما لم يُجِبْ تابع قائلًا:

- أردت أن أتأكد أنك لم تُبَلِّغَ الشرطة، أتدري لقد راهنتُ عليك في قرارة نفسي بأنك لن تفعلها، وعلى كل حال إن فعلتها فلن تضر إلا نفسك، نحن في مأمن، لا أحد يستطيع الوصول إلينا أبدًا ما دمنا لا نريد ذلك .

يستمع له أدهم ويزداد اندهاشًا كلما قال له شيئًا مُسْتَغْرَبًا، لكنَّ توتُّرَه ازداد، وارتفع معدل نبضات قلبه عندما سأله السؤال الصعب الذي سيتوقف عليه الكثير، حين قال:

- أخبرني.. ماذا قررت؟.

ارتبك وازداد وجهه إحمرارًا لا يعرف ماذا يخبره، توارى بعيدًا عن المارة وأخذ يتحدث معه بعض الوقت، إلى أن اختفى تمامًا، ومن ثَم عاد إلى غرفته بعدما أنهى المكالمة، وانغمس مجددًا تحت الغطاء لكن النعاس يأبى أن يأتيه مرةً أخرى، شعرت دعاء بأنه

استيقظ عندما سمعت صوت تخبيط في الغرفة، طرقت على الباب فقام وفتح لها المتراس الداخلي، كان قد أغلقه عندما خرج كي لا تشعر بخروجه، دخلت فوجدته قد أخرج أحد الأحذية التي كان يرتديها عندما كان يعمل في شركة الأمن، كان الحذاء أشبه بأحذية الجيش ذات النعال السميكة والكعب الذي قد يتخطى الخمسة سنتيمترات، استغربت عندما رأته قد خلع الفَرْش الداخلي للحذاء (البِطانة)، كان هناك سكينٌ ومِقَصٌّ وإِزميل ومطرقة صغيرة، مما أثار دهشتها أكثر فسألته عما يفعل، فاخبرها بأن حذاءه الذي يذهب فيه إلى النادي قد انقطع وسيأخذ جزءًا من هذا الحذاء القديم كي يقوم بإصلاحه، فسألته إن كان سيتناول وجبة الإفطار معهما أم لا، فأومأ برأسه إيجابيًا وجلس ليكمل ما بدأه، خرجت دعاء فنهض وأغلق الباب مرة أخرى، ظل يعمل في الغرفة إلى أن نادتْ عليه دعاء فذهب يشاركهما وجبة الإفطار، جلس بجوار أمه على السرير بينما دعاء جلست على طرف السرير، ظلا يمازحان والدتهما بينما كانوا يأكلوا.

انتهى من تناول الإفطار ثم ذهب إلى غرفته كي يكمل ما بدأه، إلى أن طرقت دعاء على الباب مجددًا، كان هذا أكثر يوم أُغْلِقَ فيه هذا الباب، أعطته الشاي ثم ذهبت لتتفقد أمها التي كانت تناديها، ظل صوت التخبيط في غرفته لفترة، ثم بعد ذلك خبأ كل شيء وذهب إلى غرفة أمه، وجدها نائمة ووجد دعاء في المطبخ تغسل بعض الأطباق، فسألها عن الشريحة التي كانت في هاتف أمه ومن ثَمَّ جلبتها له دعاء، فأخذها بحجة أنه يريد أن يشحنها ويستعملها بعض الوقت، لأن شريحة هاتفه أحيانًا تنقطع شبكة الآتصالات الخاصة بها، أخذها ثم بدل ملابسه وأخذ معه الهاتف الصغير ثم خرج، وعندما سألته دعاء عن وجهته أخبرها بأنه سيذهب إلى أمل

كي يسلّم على ماهر وهالة قبل أن يغادرا إلى الصعيد، ثم سيذهب ليشحن الشريحة ويعود مجددًا إلى المنزل.

*****

خرج من المنزل وفي يده شنطة صغيرة، يحمل فيها قطعة حديد على شكل قطعة أبلاكاج صغيرة، بَلَغَت ما يُقاربَ الخمسةَ والعشرين سنتيمترًا في عشرين سنتيمترًا وبِسماكة اثنين من المليمترات، مَرَّ على أحد أصدقائه ويدعى مازن يعمل في ورشة حدادة، أعطاه قطة الحديد وأخبره أن يُشَكِّلَهَا له على شكلٍ مُعَيَّنٍ، ثم أخبره بأنه سيذهب إلى منزل أمل ويعود، طلب منه أن تكون جاهزة عندما يعود، أخبره مازن أنها ستستغرق قرابة ساعة واحدة كي يصنع له ما يريد، ثم بعد ذلك توجه إلى منزل أمل فوجدها تنتظره بصحبة أمها وهالة، كان ماهر قد خرج يشتري بعض الأغراض قبل سفرهم، جلس معهم أدهم ما يقارب النصف ساعة، ثم تركنه ليجلس مع أمل، وذهبتا لتجلسا في الغرفة المجاورة، سألته أمل عن قراره بشأن العمل، فأخبرها عما توصل إليه من قرار، وظلا يتحدثان إلى أن دخلت عليهما هالة تحمل طبقًا فيه بعض الحلويات.

على الجانب الآخر جاء رجل ثلاثيني إلى مازن يسأله عن ما فعله أدهم عنده، وماذا كان معه في الحقيبة التي كانت بحوزته؟، فأخبره بأنه طلب منه سكينًا حادًا، وأشار إلى سكين موجود على المنضدة، قد بدأ العمل به حديثًا ما زال لم يكتمل، فسأله لماذا يريد سكينًا كهذا أو فِيمَ سيستخدمه؟، أخبره بأنه لا يعرف ولكن على الأرجح سيستخدمه في التقطيع لطوله وثقل وزنه فأومأ الشاب برأسه ليوحي بأنه فهم ما يقصده مازن ثم حيّاهُ وانصرف، وبينما هو

ينصرف أخبره مازن بأن أدهم سيعود مجددًا كي يعطيه بعض النقود من أجل أن يكمل السكين، وأخبره أنه بإمكانه انتظاره هنا إن كان يريد منه شيئًا، ولكنه أومأ نافيًا ثم انصرف، السكين الموجود على المنضده متقارب في الطول من قطعة الحديد التي أعطاها له أدهم، لذلك كان سهلًا عليه أن يقنع ذلك الشاب، ولأن أدهم يعرف أنه من الممكن أن يكون هناك من يراقبه؛ أخبر مازن ألا يخبر أحدًا البتة عن ما طلبه منه، ولأن مازن ذو عقلية ذكية فقد استشف من لهجته بأنه جَادٌّ في كلامه، فوضع السكين على الطاولة كي لا يدخل نفسه في مهاترات في الحديث مع أحدهم إن وجد، مازن متوسط الطول يميزه ذكاؤُه وبنيته الجسمانية القوية، كان يتدرب مع أدهم في النادي لفترات متقطعة، بجانب عمله في ورشة الحدادة، ذو بشرة سمراء وعينين بنيتين وشعرٍ قصيرٍ جدًا، ما أن انصرف حتى هاتَف أدهم ليخبره أن الشيء الذي يريده جاهز.

****

اتصل مازن بأدهم كي يخبره بأنه أنجز الشيء الذي يريده، هَمَّ أدهم بالخروج متزامنًا مَعَ الوقت الذي جاء فيه ماهر من الخارج، فاضطر أن يجلس معه بعض الوقت ومن ثم سيذهب، تسامرا في أشياء حول مستقبله مع أمل وخلافه، بعدما قضى ما يقارب الربع ساعة مع ماهر، تحجج بأن والدته تحتاج إلى علاج ولا بد أن يأخذه من الصيدلية ويذهب به إلى المنزل، فسمح له بالذهاب، وأخبره أن يطمئِنهم على والدته حَالَما يَصِلُ، فلوّح أدهم بيده مودعًا وذهب في طريقه إلى مازن، كان وهو يسير في الشارع الرئيسي يلتفت يمينًا ويسارًا وخلفه كي يتفقد إن كان هناك أحدٌ يراقبه، ما أن وصل مازن حتى طَلَبَ مِنْهُ أن يجلس أمام المنضدة ويمسك السكين التي عليها

ويرفعها إلى أعلى، ويضعها نصب عينيه ويلمحها إن كانت معوجّة أم لا.

تعجب أدهم من فعل مازن ومن تحركاته التي تثير الشك، فسأله بعدما جلس على الدَّكَّة التي خلف المنضده قائلاً:

- هل جاء إليك أحد؟.

أجابه قائلًا:

- نعم .. لقد جاء إلى هنا أحد الأشخاص بعد ذَهابك بنصف ساعة.

انحنى أدهم برأسه على السكين مغلقًا إحدى عينيه وهو يقول:

- وماذا قال لك؟.

- سألني عنك وعما طلبتَه مني .

تدفقت الدماء في وجه أدهم، وشعر لوهلة بخيبة أملُه في الشيء الذي ظل يفكر فيه طوال الليل، لقد أصبح سينكشف مع أول خطوة سيخطوها، فقال لمازن:

- وأنت ماذا أخبرته؟.

ضحك مازن وهو يضع قطعة حديد على السندان أخرجها لتوّها من النار ثم قال وهو يضرب عليها بقوة:

- بالفعل أخبرته عما طلبتَه مني.

احتقن وجهه بالدماء أكثر بينما نظر إليه مازن وتابع ضاحكًا:

- وها هي في يدك.. خذها واذهب.

تعجب من كلامه وظل ينظر إلى ما في يده، ليس في يده سوى السكين، فاقترب منه مازن وتابع مازحًا:

- لا تقلق يا صديقي .. لقد أخبرته عن التي في يدك.

- ماذا!.. هل أنت جَاّد؟!.

لاحت على شفتيه ابتسامة ثم قال مازحًا:

- لا.. أنا حازم.

ثم ضحك بصوتٍ عالٍ وتابع بعدها:

- نعم.. لقد أخبرته بأنك جلبت لي قطعة حديد وتريد أن تصنع منها سكينًا، وأخبرته أيضًا بأنك ستأتي بعد مدة وجيزة كي تعطيني بعض المال لاستكمال العمل الذي بقي في منتصفه.

قال أدهم غير مصدقًا وأسارير وجهه منفرجة:

- يا لك من داهيه يا مازن، لم أتوقع منك هذا، سأعطيك ما تريد يا صديقي.. سأعطيك ما تريد، يكفي أنك أنجزت الشيء الذي طلبتَه كما أريده.

ثم نظر إليه وقال:

- أين هي؟.. إعطني إياها لأذهب.

- ما هذه؟.

قال مازن هكذا ضاحكًا وهو يضع قطعة الحديد التي كان يطرق عليها في الماء ثم تابع:

- إرفع السكين التي بيدك إلى الأعلى، ثم أسقطها أرضًا، وبعد ذلك تناولها وضعها مجددًا على الطاولة.

تعجب أدهم مما قاله، ثم رفع السكين بيده على مستوى عينيه، ومن ثَم أسقطها أرضًا وانحنى كي يلتقطها مجددًا، فوجد الشيء الذي يريده معلقًا بقطعة حديدٍ جانبَ رِجْلِ المنضدة، فالتقطها وهو لا يصدق أن مازن أنجزها كما يجب وبهذا الشكل، أخفاها في جيبه كي لا يراه أحد المارة ثم وضع السكين مجددًا على المنضدة، أخرج من جيبه ورقةً من فئة المائة جنيهًا ومَدَّها إلى مازن، فأخرج مازن من جيبه ورقتين من فئة الخمسين واعطاهما له، حاول أدهم معه بشتى الطرق لكنه رفض أن يأخذ شيئًا، وأخبره ما أن يحتاج إلى شيء فعليه أن يهاتفه على الفور، حيَّاه أدهم ثم انصرف متوجهًا إلى سنترال الإتصالات واشترى منه بعض بطاقات الشحن، ومن ثم إلى محلٍّ لبيع الإكسسوارات على الطريق الرئيسي الذي يربط البلدة ببلدة أخرى، اشترى منه ساعة حديثة جدًا وباهظة الثمن مقارنة بغيرها نظرًا لإمكانياتها، وأخذ ماكينة حلاقة ثم أخبر البائع إذا جاء أحدٌ ما وسأله، فيخبره عن ماكينة الحلاقة فقط، أخبره بأن الساعة يريد أن يقدمها لأحد أصدقائه في عيد ميلاده، ولكن يريدها مفاجأة إذْ ما يزال على عيد ميلاده ما يقارب الشهر، لذا طلب من البائع ألا يخبر أحدًا بأمر الساعة حتى وإن كان أحمد أقرب الناس إليه، فأومأ الرجل بالموافقة فورًا.

*****

أخذ أدهم الأشياء التي اشتراها وخبأها جيدًا ثم انصرف، وهو في طريقه إلى المنزل مَرَّ على النادي بعض الوقت ثم خرج متوجهًا إلى بيته، عندما رجع إلى المنزل كانت الساعة قد أوشكت على الثالثة والنصف، فسألته دعاء إن كان يرغب أن تُعِدُّ له الغداء قبل الذَّهاب إلى النادي، أخبرها بأنه لن يذهب اليوم، وعندما سألته عن السبب قال بأن المسؤول سمح له بذلك بالأمس، لقد منحه يومين عطلة نظرًا للحالة التي كانت تعتريه، فسأَلَتْهُ مجددًا إن كان يرغبُ في أنْ تُعِدَّ له الغداء، فلم يردّ فعادت تسأله مجددًا قائلة:

- أدهم.. ماذا بك؟!، هل ما زلت تفكر في ذلك الموضوع؟.

- لا.. لا أفكر به ولكن يشغلني تفكيري حول الوضع الذي نمر به حاليًا، لقد هاتفني صديقي هذا اليوم وأخبرته بأنني لن أذهب للعمل معه، استغرب كثيرًا لرفضي هذه الفرصة بينما أنا في أشد الحاجة لهذه النقود، فقال لي أن أفكر مجددًا، فأخبرته أن قراري قطعي ولا رجعةَ فيه.

قالت وهي تشدّ مفرش الطاولة بيدها اليسرى وتمسك المزهرية التي عليها باليد اليمنى:

- خَيْرَ ما فعلتَ.. لقد فعلتَ الصوابَ يا عزيزي، انتظر بِضْعَ دقائق سأعيد تسخين الطعام لنجلس ونتناوله سويًا.

- حسنًا.. دعيني أساعدك.. هيا بنا.

خرجت دعاء ومن خلفها أدهم أغلق الباب الخارجي للغرفة ثم تبعها إلى المطبخ، وضعت دعاء الأكل على البوتاغاز ثم أشعلت تحته النار، بينما كان أدهم واقفًا على باب غرفة والدته يتفقدها،

فهمست له دعاء بأنها نائمة، وألا يصدر صوتًا حتى لا يوقظها، ما أن انتهت من تسخين الأكل حتى تناوَلَ أدهمُ الأطباقَ وبدأ يضع فيها الطعام، ثم بدأ يساعدها في حمل الأطباق إلى الطاولة حتى انْتَهَوْا من ذلك.

جلست دعاء بجواره على الكرسي ومن ثَمَّ شرعا في تناول الطعام ثم قالت:

- هل تقابلت مع ماهر؟ أم لم تلحق به؟.

- نعم جلسْتُ معه بعض الوقت.. ومع أمل، لقد إختلط عليَّ الأمر، ظننت أنهما سيسافرا اليوم ولكن إتضح أنهما سيذهبا غدًا، على كل حال لقد ذهبت للقاءه قبل أن يغادر كما وعدته، لربما أكون مشغولًا غدًا ولا أستطيع الذهاب إليهم.

سألته قائلة:

- هل أعْلَمْتَ أمل بِقرارك بشأن العمل؟، لقد اغتاظت كثيرًا أليس كذلك؟، أنا أعرف أطباعها جيدًا

- نعم.. لقد أخبرتها.. في البداية كانت ممتعضة كثيرًا، ولكني أخبرتها عن المخاطر التي تحفُّ بهذا العمل، فما كان جوابها إلا أنها تَقَبَّلَت الأمر، بطبيعة الحال لا يوجد في وسعها شيء لتفعله غير ذلك.

قالت دعاء وهي تَزِمُّ شفتيها:

- المسكينة.. كانتْ ترسم لنفسها مستقبلًا باهرًا، لكنها لم تَحْظَ بشيء، وفي الوقت نفسه لا بد أن تتماشى مع وضعك.

رد وهو يتنهد قائلًا:

- ستتأقلم مع الوقت يا عزيزتي.. ستتأقلم.

اتصل به أحمد ليطمئن عليه ويسأله إن كان ذلك الشخص قد تواصل معه مجددًا، فأخبره بأنه اتصل به اليوم وقد بَلَّغَه أدهم قرارَه الأخير بأنه لن يذهب، تنَهَّدَ أحمد شاعرًا بالإرتياح، وأخبره بأنه قد اتخذ القرار الصائب، قال له أدهم بأنه لن يذهب إلى النادي اليوم، لقد أعطاه المسؤول اليوم عطلة أيضًا، وطلب منه أن يمر عليه عندما ينتهي من عمله ليجْلِسَا سويًا، فأخبره بأنه سيتأخر اليوم في العمل بعض الوقت الإضافي لوجود شحنة كبيرة عليهم إنجازها، وأنه سيمر عليه عندما يصل إلى البلدة عند الساعة الثانية عشرة ليلًا ثم أنهى المكالمة.

يعمل أحمد في إحدى شركات اللحوم، يذهب إلى العمل عند الساعة السابعة صباحًا ويعود عند الخامسة مساءً، وإن كان يريد أن يعمل وقتًا إضافيًا ومدته خمس ساعات يحسب له يومًا كاملًا، يتقاضى ثلاثة آلاف جنيهًا ويمنحونهم يومي الجمعة والسبت عطلة رسمية، مما يجعل العمل مُجْزٍ لهم جميعًا.

*****

دقت الساعة الثانية عشرة عند منتصف الليل ولم يأتِ أحمد، ظل يذرع الغرفة جيئة وذهابًا، يذهب ويتفقد أُمَّه حينًا ثم إلى غرفة دعاء حينًا آخر، ظل يضرب الأرض جيئةً وذهابًا مجددًا إلى أن دقت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ولم يأتِ أحمد، شعر بأنه لن يأتي لأنه قد يكون متعبًا من العمل طوال اليوم، جلب دفتره وقلم

وهاتِفه ثم وضعهم أمامه على الطاولة، ذهب مجددًا إلى غرفة أمه وإلى غرفة دعاء ليتأكد بأنهما في سبات عميق ثم رجع إلى غرفته.

دخل الغرفة مجددًا بعدما تأكد من نومهما، وأغلق أبواب الغرفتين اللتين ينامان فيهما، ثم أغلق مِن خلفه باب غرفته بإحكام، توجه إلى خزانة الملابس خاصته وأخرج منها الحذاء الذي كان يصلِّح به في الصباح، ووضع شيئًا بداخله ثم بدأ يعيد الفرش كما كان، ثم فتح الدفتر وبدأ يكتب بعض الكلمات، ثم وضع شريحة الهاتف المحمول في الساعة بعدما عبأها بالرصيد وشحنها جيدًا بالكهرباء، كان قد وضع سابقًا الشريحة الخاصة بأمه بعدما عبَّأها رصيد في الهاتف الصغير، بعدما شحن بطاريته تمامًا، ثم أغلقه وبعدها غلبه النعاس فنام على الكرسي الذي يجلس عليه بعدما إنتهى من كتابة كلماته، استيقظ على رنين الهاتف كان ذلك عند الساعة الرابعة والنصف صباحًا.

انتبه فَزِعًا وهو في موضعه وأخذ يتحسس مكان الهاتف ليجده في جيبه، أخرجه ونظر فيه فوجده رقمًا غريبًا، ففتح الخط ووضع الهاتف على أذنه دون أن ينبس ببنت شفة، فقال الطرف الآخر:

- هل أنت جاهز؟.

فقال بصوت خافت وهو يصوب نظره ناحية الباب الداخلي من الغرفة:

- نعم.. أنا جاهز.

****

(١٠)

استغرب أدهم الصوت في البداية، لم يكن صوت البروجي بل صوت رجل آخر، وقف يتلفَّت حوله ثم توجه ناحية الباب وفتحه حتى يتأكد بأن الجميع نائم ولا أحد يسمعه، إلى أن تابع الرجل قائلًا:

- بعد ربع ساعة ستخرج من المنزل وستترك هاتفك فيه، ستذهب إلى الإستراحة التي في الشارع الرئيسي للبلدة، ما أن تصل ستجد هاتفًا أسفل الإستراحة، ستأخذه وتنتظر إلى أن أهاتفك عليه، وستنتظر إلى أن يأتي الميكروباص، عندما يصلك ستركب فيه دون أن تلتفت حولك.

قال الرجل الذي على الطرف الآخر هذه الكلمات ثم أنهى المكالمة، ومعها بدأ يزداد معدل خفقان قلبه، ويزداد التوتر والقلق لينتج عن ذلك تكور حبيبات العرق على جبينه، ظل يذرع الغرفة جيئة وذهابًا، توقف عن السير بعدما هدأ روعُهُ، وكأنه تقبل الوضع ولا سبيل إليه سوى ذلك، توجه إلى غرفة والدته واقترب منها، ومن ثم فتح الباب فوجدها ما زالت نائمة، فقَبَّلَها وخرج ثم أغلق الباب خلفه وتوجه إلى غرفة دعاء، حيثُ وجدها هي الأخرى لا تزال نائمة، قَبَّلَها أيضًا ثم خرج وأغلق الباب من خلفه ودخل غرفته، وضع الهاتف بجانب الدفتر الذي كان يكتب فيه ثم لبس حذاءه، ووقف يستنشق هواء الغرفة ويتفقدها بنظراته وكأنه سيشعر بالحنين إليها، أغلق الباب من خلفه بإحكام ثم أسقط المفتاح

داخل الغرفة من فتحة الزجاج الخاصة بالباب، تركها مفتوحة كي يلقيه منها ثم بعد ذلك توجه إلى الإستراحة وأقدامه تتخبط في بعضها البعض، وكأنها تأبى السير وتعلن عصيانها عليه.

شعرت دعاء به وهو يغلق الباب، فجال بخاطرها أنه كان يجلس مع أحمد طوال الليل وظلا يتسامران إلى أن أقبل عليهم الفجر، فذهب ليصلي الفجر في المسجد كما يفعل دائمًا عندما ينام في البيت، قامت وتفقدت والدتها فوجدتها قد استيقظت فلما سألتها عن سبب استيقاظها ردت قائلة:

- لقد شَعَرَت بأدهم وهو يسدل عليّ الغطاء ويُقَبِّلُ رأسي.. فاستيقَظْتُ.

وضعت دعاء يدها على خدها تتحسسه قائلة :

- غريب!.. لقد جاء أيضًا إلى غرفتي وقَبَّلَنِي، كنت أعتقد بأنني في حلم أو ما شابه ذلك، إنه ذهب إلى صلاة الفجر.. سيعود بعد قليل.

ثم ذهبت وتوضأت وصَلَّتِ الفجر، وقبل أن تعود إلى الفراش مجددًا، توجهت إلى غرفة أدهم أرادت أن تنتظره فيها إلى أن يعود من المسجد، فتحت الباب وبينما كانت على وشك الدخول واضعة يدها على مقبس الكهرباء؛ إذْ سمعت صوت أمها تناديها، أغلقت الباب مرة أخرى وذهبت لتتفقدها لعلها تكون بحاجة إلى شيء ما.

وما أن دلفت إليها وجدتها تجلس على السرير وتضع يدها على صدرها الذي ظل يعلو ويخفق فهرعت إليها قائلة:

- ماما.. ماذا بكِ؟

قالت وهي تشير إلى إبريق الماء:

- ناوليني الماء.. أريد أن أشرب.

ناولتها دعاء كوب الماء ثم جلست بجوارها على السرير، وما أن انتهت حتى رَدَّت إليها الكوب مجددًا لتضعه مكانه ثم تابعت قائلة بلهجة يشوبها القلق:

- لقد انقبض قلبي فجأة.. لا أعلم لماذا!!.. لعله خيرٌ إن شاء الله.

صفنت بها ثم سألتها قائلة:

- هل رجع أدهم من المسجد؟.

- لم يَعُدْ بعد.. ما زال هناك بعض الوقت حتى يعود، لم ينتهوا بعد.

ثم هدأت أمها وبعد ذلك غلبها النعاس فتوجهت دعاء إلى غرفتها لتخلد في الفراش مجددًا دون حَراك.

****

خرج أدهم من المنزل متوجهًا إلى الشارع الرئيسي، كان يسير في عجلة ولا يلتفت حوله كي لا يوقفه أحد، كان في داخله صراع بشأن المخاطر التي تنتظره هناك حيث لا يعلم إلى أين وجهته؟، وبين حالة أمه التي تزداد سوءًا شيئًا فشيئًا، هناك صوت صراخ في داخله يخبره أن يعود وآخر يحثه على المضي قُدُمًا، ما أسوأ أن يسود الهدوء والطمأنينة من حولك في الخارج ويبدأ الصراع الحقيقي في داخلك، حينها تعلن الحياة بأنه لا راحة لك ما دمت

على قيدها، ولكن أحيانًا قد تمنحك الحياة فرصة حتى تستريح من صراعاتك الدائمة والاسترخاء قليلًا، وها هي قد أتت الفرصة للإسترخاء، وها هو يسمع صوت إقامة صلاة الفجر.. المسجد على بعد خطوات من الإستراحة التي لم يصل إليها بعد، ما زال أمامه بضع خطوات حتى يصلها، أي ما يقارب العشرة أمتار، سيأتي الميكروباص خلال دقائق وربما الآن، قلبه وقدمه يجرّانه ناحية المسجد، ويستوقفه ذلك الصوت القادم من ناحية الإستراحة.. إنه صوت جرس الهاتف الذي حَدَّثَه عنه الرجل، وقف في مكانه لا يعرف ماذا يفعل!!، هل يذهب ليصلي الفجر في جماعة كما تعود أم يذهب ويكمل في الطريق الذي خرج فيه، لو فاته الميكروباص لن يرجع له ثانية، فرصته الوحيدة في الخلاص من هذه الضغوطات هي الذهاب وخوض الرحلة، ولكن الصلاة هي من ستخمد صراعاته الداخلية، يمر أمامه شريط طويل في لمح البصر، الحال الذي سيصيب أمه في حال عدم وجود المال.. أخته وعدم زواجها لعدم وجود المال.. أمل التي يعني لها المال كل شيء.. وكيف سيكون وضعه عندما يحصل على المال، إذًا مر الشريط والعامل المشترك فيه هو المال، لأذهب واجلب المال الذي سيحل كل شيء، هو يعلم تمامًا المخاطر الكثيرة التي تنتظره في هذه الرحلة ويعلم بأنه من الممكن ألا يعود، ولكنه يقول في قرارة نفسه.. "رحلة بلا عودة أفضل بكثير من لا رحلة"، المؤذن ينادي بِحَيَّ على الفلاح والهاتف ينادي له بالمال، وقف ليعود أدراجه وبعدها يقرر ما سيفعله.

توجه ناحية الإستراحة، ثم رفع الورقة المثبتة على الأرض ببعض الحصى، ومن ثَمَّ أخذ الهاتف الذي تَعَالَى رنينه من تحتها، أخذه وأجاب بصوت مرتجف:

- ألو؟.

- كنت أعرف جيدًا بأنك لن تضيع فرصة ثمينة كهذه، أعدك بأنك ستكون سعيدًا في نهاية هذه الرحلة، سترتاح تمامًا عندما ينتهي كل شيء، الآن هناك ميكروباص مُقْبِل عليك اركب فيه دون أن تلفت انتباه أحدٍ من المتواجدين فيه، ولا تتكلم مع أحد، والأهم لا تخبر أحدًا عن وجهتك، هل فهمتني جيداً يا أدهم؟.

- نعم.

جاء الميكروباص وركب فيه، لم يكن فيه إلا مكان واحد شاغرًا في منتصفه بالضبط، وكأنه تُرِك له عمدًا، تفحص وجوه المتواجدين به وهو يركب، كان بعض الركاب وجوههم مألوفة لديه والبعض الآخر لم يتمكن من التدقيق فيه، كان يحاول الإلتفات إلى الخلف لكنه لم ينجح، وكلما أراد أن يحاول تراجع مجددًا، حاول الإتصال على أحمد من الهاتف الذي بحوزته ولكنه وجده يستقبل فقط؛ لا يتصل، وكأنه مصمم خصيصًا لهذه العمليات، رجع برأسه إلى الوراء ليسندها على مسند الكرسي ويفكر مجددًا، هل اتخذ الخطوة الصحيحة؟ أم كان عليه التفكير والتراجع عن هذا الأمر، ما زال أمامه فرصة للتراجع ولكن ماذا إن عاد؟!، هل عودته ستحسن الوضع؟ هل سيجلس مكتوفَ اليدين بينما أمه تصارع المرض؟، لذا آثر أن يكمل طريقه، وبالطبع هو يعرف جيداً كيف يعود.

ظل يفكر حتى قطع تفكيره رنين الهاتف، فما أن أجاب حتى قال له رجُل البروجي:

- يوجد أمامك منعطف على بعد واحد كيلومتر تقريبًا أخبر السائق بأنك تريد النزول عنده، لأنه سيتابع في طريقه مستقيمًا، وستنتظر إلى أن تأتي سيارة أجرة، ستوقفها وتركب في الكرسي الخلفي، ولا تفعل شيئًا يثير انتباه السائق، سأخبرك بوجهتك ما أن تركب السيارة مباشرة.

نظر أدهم إلى لسائق وأشار إليه قائلًا:

- معذرة.. عندما نبلغ المنعطف القادم توقف.. سأنزل عنده.

أومأ السائق برأسه وهو ينظر إليه في المرآه المثبتة أمامه على الزجاج الأمامي للسيارة ثم تابع السير.

كانت المكالمة قيد التشغيل، فصمت لِلحظات إلى أن يخبر السائق ثم تابع:

- ولا تحاول الإتصال مجددًا من الهاتف، إذا فعلت شيئًا مغايرًا لما سأقوله لك لن تضر إلا نفسك، ضع هذا في حسبانك أولًا قبل فعل أي شيء، هيا وانتظر مني اتصالًا آخر.

بعد أن سمع أدهم كلماته الأخيرة ظل يلتفت حوله كالمجنون، كيف علم الرجل أنه حاول الإتصال بأحد ما؟!، ظل يتفقد الجميع من حوله ولكن دون جدوى، سمع السائق يناديه بعدما توقف قائلًا:

- أنت يا أستاذ.. هيا انزل، لا تتسبب في تأخير الركاب.

نزل أدهم وبدأ الميكروباص يبتعد شيئًا فشيئًا، الغريب في الأمر أن السائق رحل دون أن يأخذ منه أجرة، وكأنه أخذها سلفًا، انقشع

الليل وبدأت أنفاسُ النهار تسري، الطريق خاوي لا يوجد فيه أحد ولا تَعْبُرُه أي سيارة .

****

وقف على جانب الطريق ينتظر، إلى أن جاءت السيارة التي أخبره عنها الرجل بأنها ستمر، أشار إلى السيارة وقبل أن تصله دق رنين الهاتف الذي ما زال معه فضغط على زر فتح المكالمة ثم وضعه على أذنه، فقال له الرجل:

- هناك نار مشتعلة في بعض الأعشاب بالقرب منك، إلْقِ فيها الهاتف الذي بيدك، ثم اركب السيارة ولا تلتفت خلفك .

ألقى الهاتف في النار كما أخبره ذلك الرجل، ثم ركب السيارة في الكرسي الخلفي، ما أن جلس على الكرسي وأغلق الباب؛ حتى سمع صوت رنين بجانبه، وجده هاتفًا مثل الذي كان معه تمامًا، وما أن ضغط على زر الإجابة حتى سمع صوت انفجار طفيف من خلفه، أيقن أنه الهاتف الذي ألقاه منذ لحظات.

قال له الرجل والذي بدا أنه سمع صوت الإنفجار:

- لقد انفجر الهاتف أليس كذلك؟.

- أرى بأنك سمعت ذلك.

- أخبر السائق بأن يذهب بك إلى التلة المحترقة، ثم انظر تحت قدميك ستجد ورقه افتحها ستجد فيها نقودًا، إعطها له عندما تصل.

- حسنًا.

أنهى أدهم المكالمة كالسابقة، فيما هو لا يفعل شيئًا إلا تَلَقِّي التعليمات لتنفيذها، لا خِيَارَ لديه سوى ذلك، أخبر السائق بوجهته فهَزَّ رأسه ثم قال بعدما صفن قليلًا:

- هل سلكته من قبل؟

- ها!.

- هل سلكت هذا الطريق من قبل؟.

- لا.. هذه المرة الأولى.

عاد السائق وسأله مجددًا:

- ولِمَ تذهبْ إلى هناك؟.

أجابه قائلًا:

- أذهب لملاقاة بعض الأصدقاء القدامى، لم أرَهُمْ منذ أيام الخدمة العسكرية.

نظر له السائق في المرآة ثم قال مبتسمًا:

- لا بد أنك تؤمِّن نفسك جيدًا.

نظر إليه وعلى وجهه علامات الدهشة والإستغراب قائلًا:

- لا.. لماذا؟!.. هل عليَّ أن أفعل ذلك وانا ذاهب لملاقاة أصدقائي!.

نظر له وهو يبتسم ثم قال:

- أنا أقصد من أجل الطريق ليس أكثر.

- لا عليك يا صديقي .

أسند رأسه إلى باب السيارة وظل يراقب الطريق، نظر إلى المبلغ الذي في يده فوجده كبيرًا نسبيًا على مشوارٍ كهذا، فاستشف من ذلك بأن الطريق طويل أو المنطقة خَطِرَة، لذلك لا يسيرُ فيه إلا أشخاص بأعينهم، ومَن لديه رَبَاطَةُ جَأْشٍ، فسأل السائق قائلًا:

- هل المسافة إلى هذه التلة بعيده؟.

أجابه السائق وهو ينظر إليه في المرآة:

- نعم.. إنها بعيدة.. قد تستغرق ثلاث ساعات فأكثر، أُدْعُ ألَّا يعوقنا شيءٌ في الطريق.

زاد القلق بداخله فقال:

- يعوقنا شيء!.. شيء مثل ماذا؟!.

- ذئاب.

- ماذا!.

- ذئاب يا صديقي.. ذئاب.. هذا الطريق لا تستطيع أن تسير فيه على قدميك، في نهايته منعطف يسمونه وصلة الموت، لذلك لا يقصده الكثير، وبطبيعة الحال اليوم الجمعة فلن تجد فيه أحدًا بتاتًا.

قال أدهم وهو يهز برأسه:

- فلْيُطَمْئِنُ اللهُ قلبك.

أسند رأسه مجددًا إلى مسند الكرسي حتى غلبه النعاس ولم يشعر إلا والسائق يصيح إليه قائلًا:

- يا صديق.. هذه هي وصلة الموت التي بها الذئاب التي حدثتك عنها.

التفت حوله فوجد الغبار يتدفق من كل مكان حوله، فنظر أمامه وإذ بهم يسيرون في طريق ترابي، ولكن عندما أَمْعَن النظر تعجب لِمَا رآه، لم تكن الأرض الترابية وحدها هي التي تفعل كل هذه الجلبة، كانت هناك بعض الذئآب تركض بمحاذاة السيارة، رغم أنه يعيش في الأرياف؛ إلا أنه أول مرة يرى فيها ذئب عن قرب هكذا، كان يشاهده على شاشة التلفاز فقط، ها هم يقفون على امتداد جانبي الطريق، الطريق الذي تعلوه الرمال من الجانبين كأنها جسور على إرتفاع ما يقارب من ثلاثة أمتار، يَزْدَحِمُ بأشجار الكافور العالية المَهُولَة، والذئاب يقف كل واحد منها على حدة وكأنهم يحرسون الطريق، حقيقة آخر ما يتمناه أي شخص أن تتعطل سيارته في طريقٍ كهذا، لَمَعَ في خاطره بأن البروجي جعله يسلك هذا الطريق عن قَصْدٍ ليقنعه بأن لا عودةَ في منتصف الطريق، ولكن لماذا كل هذه الجلبة من الأساس؟ بيد أنه ذاهب برضاه، ولم يرغمه أحدٌ على ذلك، ظلَّا يسيران في هذا الطريق الترابي قرابة النصف ساعة، نصف ساعة بين الذئاب التي تعوي والأتربة التي تُعمي، إلى أن وصلوا مكانًا مهجورًا توقف عنده السائق وقال:

- هذا هو المكان الذي حدثتني عنه .

أعطاه أدهم النقود التي معه ونزل من السيارة، وقبل أن يغلق الباب كان السائق ينظر في المرآة، ما أن أغلق أدهم الباب حتى نزل السائق وفي يده سلاح ناري يصوبه ناحية أدهم، ثم صاح به قائلًا:

- توقف مكانك.. لا تتحرك.

جحظت عينيه وهو ينظر إليه في حالة ذهول تام، عندما شاهده يصوب المسدس في وجهه، احتقن وجهه بالدماء التي جفت من عروقه وصاح قائلًا:

- لاااا.. ماذا تفعل؟!.. لا.. أرجوك.

صوب السائق نحوه دون أن يلتفت لوجهه الذي سيطر عليه الرعب، انحصر أدهم في الزاوية لا يستطيع الهرب ولا يوجد مكان يختبئ فيه، ففي الخلف ذئاب ستمزقه إن عاد وأمامه ذئب بشري يستقوي بالسلاح الذي بيده، ظل يسترجي به والأخير يقف لا يحرك ساكنًا، إلى أن ضغط على الزناد وانتهى كل شيء، وتوقفت مع الرصاصة التي خرجت صرخاتُ أدهم التي كانت تدوي في الأرجاء.

****

كانت الساعة تمامًا عند العاشرة صباحًا حينما استيقظت دعاء، ذهبت وتفقدت أمها فوجدتها جالسةً على السرير، فتحت لها نافذة الغرفة لتدخل الشمس وتغمرها، ثم ساعدتها لتذهب إلى الحمام وعندما انتهت عادت بها مجددًا إلى السرير، ذهبت لتتفقد أدهم فوجدت باب الغرفة مفتوحًا على غير عادة، فالباب يكون مفتوحًا حينما يكون أدهم في الخارج فقط، دخلت وتوجهت ناحية النافذة وفتحتها، فتطايرت من الهواء ورقة كبيرة -كانت على

الطاولة- إلى قدمها، التقطت الورقة ثم جلست على الكرسي لتجد على الطاولة هاتفَ أدهم، فظننت أنه خرج ليستنشق بعض الهواء، ولكن ما أثار شكوكها هو حزام الساعة التي جلبها في الأمس، كان مفكوكًا ولا توجد فيه الساعة نفسها، وظلت تقلب في كومة الورق التي بجانب الطاولة لتجد بقايا قطع مغناطيس، مما أثار فضولها أكثر لتفتح الورقة وتقرأ المكتوب بها، كان مضمون الكلام الذي في الورقة موجه إليها، ويخبرها بأنه قرر الذهاب إلى العمل الذي أخبرها به منذ أيام، وأخبرها عندما تقرأ هذه الكلمات أن تتصل بأحمد وتعطيه هاتفه، وتخبره أن يفتحه ويشاهد الفيديو المسجل عليه.

اتصلت بأحمد على الفور والعَبَرَات تتساقط على وجنتيها وقلبها يخفق من القلق و شدة التوتر، أجاب أحمد على المكالمة، وجدته نائمًا، فاليوم عطلته الرسمية من العمل، استغرب عندما وجد رقمها هي التي تهاتفه مما أثار قلقه، فأجاب مسرعًا ليسري التوتر في عروقه تزامنًا مع سماعه بكائها وتلَقَّى الصدمة الكبرى بقولها:

- لقد ذهب يا أحمد.. لقد ذهب أدهم إلى ذلك العمل يا أحمد .

- ماذا!.. ماذا تقولين؟!، هل.. هل ذهب إلى ذلك الرجل؟!.

قال هذه الكلمات ثم انتفض من مكانه وبدّل ثيابه متجهًا إليها، بعدما أخبرته بأمر الرسالة التي تركها، لا تبعد المسافة كثيرًا بين المنزلين، في غضون دقائق كان أمام المنزل، فتحت له دعاء غرفة أدهم فدخل وجلس على الكرسي المقابل للباب، أغلقت

الباب الداخلي كي لا تستيقظ أمها التي نامت مجددًا على صوت بكائها الذي ما زال قائمًا، قال لها أحمد بعض الكلمات التي هدَّأت من روعها، أعطته الورقة ليقرأها ومن ثم أعطته الهاتف.

فتح الهاتف ثم فتح الفيديو المسجل الذي أخبره عنه أدهم في الرسالة، مدة الفيديو بضع دقائق، شغل الفيديو ودعاء تجلس إلى جانبه وتستمع لما يقوله، فأوقف الفيديو والتفت إلى دعاء وقال:

- ربما هناك ما لا تودين سماعه.. سأشاهده لاحقًا.

قالت باكية واجمة مُمتَقِعَة الوجه:

- لا عليك.. لن أصدر صوتًا.. ولعل داخلي يرتاح عند سماعه.

- لكن عِدِيني بألا يصدر منكِ أي صوت، وأن تَكُفِّي عن البكاء، والأهم من ذلك ألا يعلم أحد شيئًا مما سيقوله أدهم.

- حسنًا.. أَعِدُكَ .

مسحت دموعها ثم استأنف أحمد الفيديو فظهر أدهم على الشاشة وهو يقول:

- أخي أحمد.. لا أريدك أن تغضب مني.. لقد اتخذت خطوة لا رجعةَ فيها.. ليس من أجلي وأنت تعلم هذا جيدًا.. لقد اتخذتها من أجلنا جميعًا يا عزيزي.. من أجل أُمي التي لا سبيلَ لنجاتها إلا بالمال.. ومن أجل أُختي التي ترفض الزواج نظرًا للحالة المادية.. ومن أجلك يا عزيزي.. من أجلك.. هل تظن أنه من السهل عليَّ أن أراك بهذه الحالة يا صديقي.. يلزمك

كثيرٌ جدًا حتى تحسن وضعك المادي.. ويلزمك أكثر حتى تتزوج.. أحيانًا ينبغي علينا المخاطرة لأيام حتى نرتاح بقية العمر.. لقد آثرت أن أخوض هذه الرحلة.. وإن كنتُ أعلم جيدًا أنها ممكن أن تكون رحلة بلا عودة.. ألم نَقُلْ سابقًا رحلة بلا عودة أفضل بكثير من لا رحلة.. سأنتبه لنفسي جيدًا.. أُدرك أنك تودّ أن تقول لي هكذا.. وأعلم أنك تودّ أن تذكرني بكلماتي عندما كنت أقول لك.."وأنت تفعل ما يحلو لك تذكر أن هناك من يخشى عليك من عثرات الحياة".. لم يَعُدْ في الحياة متسع يا صديقي كي نفعل ما يحلو لنا.. أنت تعلم تمامًا أنني ذاهب رغم أنفي.. لقد ذهبت وأنا أدرك تمامًا بأنك لن تترك دعاء وأمي وحدهما.. أنت الأخ والسند.. وسنجتمع عما قريب إن شاء الله.. والآن هناك شيءٌ مهم وددت إخبارك به.. لقد أمَّنْتُ نفسي جيدًا تحسبًا لأي غدر من تجاه البروجي.. أو أيٍّ كان اسمه.. لقد اشتريت ساعة حديثة جدًا بالأمس.. ففككتها وأخذت القطعة الموجود بها الجهاز فقط.. وضعت في الساعة خط قديم وشحنته بالإنترنت.. لقد فعَّلت عليها خاصية الموقع وربطتها على هاتفي.. ما أن أعيد تشغيلها ستظهر لك إشعارًا عندك على الهاتف.. عندها ستدخل على الخرائط وتحدد المكان المتواجد به.. إن لم أَعُدْ خلال المدة التي حددها البروجي.. وما دمت لم أهاتفك بعد هذه المدة.. ستبلغ الشرطة مباشرة.. وستتبع الموقع المباشر.. ألم أقل لك سوف أعود يا أخي.. وإن لم أَعُدْ.. ستعيدني أنت.. سأحاول الإتصال بك حينما أصل هناك.. لقد وعدني البروجي بأنه سيسمح لي بالإطمئنان على عائلتي بين الفينة والأخرى.. ولكن لا بد أن لا

ندع شيئًا محضَ صدفة يا صديقي.. إِعْتَنِ بنفسك كثيرًا.. واعْتَنِ بأمي وأختي من أجلي.. فَلْتُبْقِ هاتفي معك كي تعلم عندما أعيد تشغيل الجهاز.. إلى اللقاء يا صديقي العزيز .

انتهت الرسالة التي زادت القلق والخوف في قلب دعاء، بينما أعطت إلى أحمد بارقةً من الأمل، انهارت دعاء بالبكاء بينما أخذَ أحمد يُكَفكِف دموعَهُ التي كادت تتساقط، هَمَسَ لدعاء كي تُهَدِّىءَ من روعها حتى لا تسمع أمها بكائها.

فقالت وهي تبكي وترتعش:

- أحمد .. ما هي طبيعة العمل الذي ذهب إليه أدهم؟.

قال في ارتباك وهو يبعد وجهه عنها كي لا تلاحظ ذلك:

- لقد أخبرك به أدهم.. ألم يخبرك قبل يومين عن ماهية ذلك العمل؟.

قالت باللهجة ذاتها:

- أنت تكذب عليَّ.. كما كَذَبَ عليَّ هو الآخر، أخبرني يا أحمد أرجوك.. أرِحْ قلبي أرجوك، أخبرني وأعدك بأنني لن أفشي بذلك السر إلى أحد.

- دعاء.. لا تجعليني أندم لأنني فتحت التسجيل أمامك.

- لن تندم.. أقسم لك بأنك لن تندم لكن أخبرني، لا أصدق الكلام الذي أخبرني به أدهم، ولا أصدقك الآن، كلام أدهم يوحي بأن هناك شيء ما ممكن أن يحدث، لماذا جهاز التتبع

إذًا.. ولمَ ستبلغ الشرطة إن لم يتواصل معك؟!، ومن البروجي هذا؟!.

صمتت هنيهة ثم مسحت دموعها وقالت:

- أخبرني أرجوك.. لن تندم إنك أخبرتني، لو ظللت هكذا سوف أموت من القلق.

تنهد ثم قال:

- أنا لا أريد أن أخبرك خوفًا من ذلك.

قالت بعدما تدفقت الدموع من عينيها مجددًا:

- إذن هناك شيء كبير تُخَبِّئُهُ.. هيا.. هيا أنا أسمعك.

ما كان على أحمد إلا أن يخبرها بعد كل هذا الإصرار، علاوة على ذلك لقد سمعت الكلام الذي قاله أخوها، ظل يقص عليها بالتفصيل وهي تنصت له، كانت تفعل إيماءات مختلفة وهو يحكي لها، تندهش وتتعجب تارة، وتقلق وتتوتر تارة أخرى، تفعل كل هذا وهي تكتم فمها بيدها، حتى لا تصدر أي صوت يثير انتباه أمها إلى أن انتهى تماماً.

ساد الصمت لِلَحظات ولزمت دعاء مكانها دون حَراك، إلى أن كسر أحمد ذلك الصمت قائلًا:

- دعاء.. أنا لم أخبرك لتكوني بهذه الحالة.. أنا أخبرتك لأنك لا بد أن تعرفي.. ولأنني لم أستطع أن أحمل هذا الحمل وحدي.. سابقًا عندما كان يحدث معي أي شيء كنت أحكي إلى أدهم.. الآن ليس لدي سواكِ.. هل ستخذليني؟!.. أدهم لم يخذلني

قط.. وأنا أتطلع لِمِثْلِ ذلك منك .. وأيضًا أُمُّكِ لا يجب أن تراكِ على هذه الحالة.. سأدخل وأخبرها بأنه ذهب للعمل في شركة الأمن.. سأقص عليها الكذبة التي ابتكرها ذلك اللعوب.. ولكن برأيك هل ستنطلي عليها هذه الفكرة؟.. سآخذ إجازة من العمل بضعة أيام حتى أكون بجانبكما عندما تحتاجان إليَّ.. ولكن عليكِ مساعدتي.. سيرجع أدهم بالتأكيد.. عليكِ أولًا أن تتقبلي فكرة أنه ذهب.. كي نستطيع الحفاظ على أمك.

ثم رمقها بعينيه وهو يعطيها منديلًا، وأردف:

- ثم أَنَّكِ الآن رَجُلُ البيت.. هل رجل البيت يبكي؟ أم يقف شامخًا كالشجعان!.

ابتسمت دعاء عندما سمعت هذه الكلمات، لتمتزج ابتسامتها السقيمة بدموعها التي تتساقط على وجنتيها وهي تنظر إليه، إلى أن تابع قائلًا:

- هيَّا.. هيَّا يا دعاء سأذهب وأُحْضِرُ أمي حتى تجلس معكما في المنزل إلى أن يعود أدهم، ستعينك على أعمال المنزل، وستهتم بأمك معك، لطالَمَا أرادت أن تفعل ذلك لصديقتها، وأيضًا حتى تتسنى ليَّ الفرصة في دخول منزلكم في غياب صاحبه.

دخلت وأيقظت أمها كانت الساعة قد شارفت على الثانية عشرة ظهراً، أيقظتها من أجل موعد الدواء، كما أخبرتها بأن أحمد في الخارج ويريد رؤيتها، وسرعان ما ابتسمت عندما سمعت اسمه وسمحت له بالدخول، فهي تحبه من حب أدهم له منذ الصِّغَر،

فمن يشاهد احترامه وخلقه الحسن ولا يحبه!، دخل عليها أحمد وقدم لها التحية، ثم صمت لبعض الوقت وعندما سألت ابنتها عن أدهم أخبرها أحمد بأنه ذهب لعملٍ جديد، من أجل مال براتب أكبر من الذي كان يتقاضاه في النادي، في بادئ الأمر كانت حزينة جدًا، لكن أحمد أخبرها بأنه لم يخبرها من قبل حتى لا تمنعه، وتبادلت دعاء أطراف الحديث معهما بصوتها الذي يكتمه الدموع، وأخبرتها بأن أخاها قد فعل الصواب، وأن الموضوع مسألة وقت وسيعود، فتقبلت الأم ذلك ولكن بالها وقلبها لا يزالان مشغولين بصغيرها.

****

في غرفة طينية ذات نافذة عالية تكاد يصل إلى السقف مفتوحة يخرج منها صوت إحداهن ينادي، هاهي تظهر واقفة على الباب وتنادي مجددًا ولكن الصوت ما زال غير واضح، فتحت الستار من على النافذة لتتضح هويتها، إنها كوثر تنادي على ابنتها أمل، تنادي عليها بصوت صاخب يسمعه مَن في الشارع جميعًا ولكن لم تسمعه أمل، لم تسمعه لأنها خلدت إلى النوم في تمام الرابعة فجرًا، كانت تكتب إلى شخص ما أو إحدى صديقاتها على الواتساب.

كشفت عنها أمها الغطاء قائلة بحنقٍ:

- أمل.. استيقظي.. سوف تذهب هالة وماهر بعد قليل، استيقظي كي نتغدى سويًا قبل أن يذهبا.. أمل.

- أجل يا أمي.. اذهبي وسألحق بكِ.

قالت أمل كلمتها بتذمر وهي لا تزال نائمة، وما أن استفاقت أمسكت الهاتف ثم فتحت الواتساب حتى تشاهد الرد على سؤالها الذي تركته معلقًا ونامت دون أن ترى الإجابة، سحبت الشاشة لتظهر إجابة السؤال وهي كالتالي:

- نعم.. لقد ذهب.. لقد خرج إلى طريق اللاعودة.

****

(١١)

نهضت أمل من نومها فَرِحة، وزادت من معدل إضاءة هاتفها حتى تتمكن من القراءة جيدًا، وحتى نتمكن نحن من رؤية ما كُتِبَ، فبادرت بالرد مسرعة حيث كتبت في لهفة:

- هل أنت جاد؟!.. أَذَهَبَ في طريق اللاعودة؟!.

ثم أرسلت ما كتبته لتعود وتكتب أخرى في حماسة شيطانية:

- حقًا!!.. أَذَهَبَ في طريق اللارجوع؟!، حقًا ألن يعود مجددًا؟!.

- هل خالت عليه المكيدة؟، ألن يكون موجود في عالمنا مرة أخرى؟.

ثم سحبت الشاشة سحبة قوية لتظهر بضعة أسطر أخرى مكتوب فيها الآتي:

- ماذا كان قراره الأخير؟.

- لقد قرر الذهاب بالطبع.

- كيف هذا؟!.. هذا شيء لا يصدق!، لقد علمت بأنه لن يذهب أبدًا، بل وأقسم على ذلك .

- ألم أقل لك سأقنعه، أو أنك نسيت بأنني أمل.

- لا لم أنسَ قط.. وكيف ليَّ أن أنسى؟!.

- أنا أتأكد فحسب .

- ولكن أخبريني.. كيف أقْنَعْتِهِ؟!، لدي فضول لأعرف كيف جرت الأمور!.. هيا أخبريني .

- حسنًا سأخبرك.. جاء إليَّ مساء أمس، كان متعبًا جدًا، يخيم عليه القلق والتوتر، هذا كله في كفة وخوفه على أمه في كفة أخرى.

- أجل.. أكملي.. لقد تشوقت لأعرف ماهية الأمر.

- لقد لعبتُ على العاطفة لديه وأنا أعلم تمام العلم أنه سينصاع لي، كنا نجلس وحدنا فوجدته منهمكًا في تفكيره فسألته ماذا بك؟، فرد مُدَّعِيًا بأنه لا يوجد شيء يدعو للقلق، فَعُدْتُ أسأل مجددًا:

- أدهم.. ماذا بك؟!.. أخبرني، أنت تُقلقني عليك بحالتك هذه .

فقال وهو يرتعد خوفًا على أمه:

- يوجد لدي سبيل لجني المال، لكنه قد يكون فيه خطورة.

- خطورة!!.. عن أي خطورة تتحدث؟!.

- قلت له هكذا وكأنني أرتعد لأنه سيهلك نفسه في التفكير، فأخبرني بشأن العمل في شركة الأمن وخلافه، فقلت له بأن هذه فرصة لا تعوض، وأن الفرصة لا تأتي إلا مرة واحدة، وإن

فقدها فلن يستطيع تدبير المال من أجل أمه، وظللت أرسم أمامه طموحاتي وآمالي، فتأثر نسبيًا من الكلام إلى أن عاد في اليوم التالي يقول :

- لقد صرفت النظر عن ذلك الطريق الذي حدثتك عنه بالأمس.

صرخت به وبدأت أتشنج كأنني أبكي قائلة:

- هل أنت مجنون!، هل أنت مدرك لما تقوله!، ماذا عن أمك!، ماذا عن أختك!، ماذا عني يا أدهم؟!، ماذا عن المستقبل؟!، أتدري إن كان الأمر بيدي لذهبتُ ووجدت عملًا ما لأساعدك، وأقف بجانبك في محنتك، لو أعلم بوجود أحد أستدين منه مالًا يكفي العملية لذهبت واستدنت منه، لكن أفلا يريد هذا الدائن استرداد ماله ثانية عاجلًا أم آجلًا؟!.

ثم بكيت وأنا أقول بصوت متقطع:

- اذهب يا أدهم.. اذهب وعُدْ بالمال، عُدْ بالمال لكي يحيا الجميع من حولك.

- أكاد أجزم بأنه كان سيبكي وهو يستمع إليَّ، بل بالفعل بدأ يُكفكِفُ دموع عينيه بعدما إنتهيت.

- بفعلتك هذه يا عزيزتي قد وضعت قدم من أقدامك في الجنة التي جهزتها لكِ، فلتعلمي بأنني سأبدأ أخاف منكِ من الآن.

أغلقت شاشة الهاتف عندما دخلت عليها أمها مجدداً لتخبرها بأنهم انتَهَوْا من تناول الغداء وأن هالة ستذهب الآن، خرجت لتودع أختها وزوجها ثم عادت إلى الغرفة لتأوي إلى الفراش مجددًا

*****

خرج أدهم من السيارة بعدما أعطى السائق النقود التي بحوزته، وما أن نزل من السيارة حتى وجد السائق ينزل منها مسرعًا ويمسك في يده سلاحًا ناريّ مما جعله يتفاجأ، وما جعله يرتعد أكثر ويزداد رعبًا عندما وجه السلاح نحوه، وصاح به ألا يتحرك من مكانه، ظل يرجوه كي لا يقتله ولكنه لن يتفوه بكلمة إلى أن ضغط على الزناد، أغمض أدهم جفونه بعدما استسلم للقدر، دوى صوت إطلاق النار في الأرجاء ليصدر صداه جوًا يخيم عليه الرعب، فتح أدهم عينيه وكأنه يلفظ أنفاسه الأخيرة، لكنه تناهى إلى مسامعه صوت عواء قادم من خلفه، نظر خلفه فوجد ذئبًا ممددًا على الأرض يسبح في دمائه، ظل السائق يضحك ويقهقه بصوت عالٍ، ثم قال مازحًا:

- أظننتَ بأنني سأقتلك؟!.. يا لك من أبله.

قال أدهم وهو يلملم خيبته وهو يستند إلى السيارة بعدما خارت قواه:

- نعم لقد ظننت ذلك.. كيف حدث هذا أنا لم أره؟!.

قال السائق وهو يضع المسدس في السيارة وما زال يضحك عاليًا:

- لقد رأيته في المرآة قادمًا من خلفك، يتسحب ببطء كي ينقض عليك، فسحبت مسدسي وأطلقت عليه، أو أنك كنت تريد أن يلتهم رأسك أيها الفتى الضخم.

قال وهو يعدل من هيئته:

- غريب!.. لماذا يوجد سلاح ناري بحوزتك؟!

- ألم أقل لك لا بد أن تؤمن نفسك جيدًا، لذلك أحمله معي.

أشاح بنظره إلى السلاح الذي في يده ثم قال:

- هذا السلاح قد جعل الشجاع جبانًا في نظر الجبان، وجعل الجبان على الذئاب فارسًا مغوارًا، هذه الحديدة التي في يدك يا عزيزي قتلت ذئبًا لو أمسكنا لَفَتَكَ بنا .

سكت هنيهة ثم تقدم ناحية الرجل ومد يده ليصافحه وهو يتابع ممتنًا:

- شكرًا لك لقد أنقذت حياتي.

- لا عليك يا عزيزي.. انتبه لنفسك جيدًا.

جاءت سيارة دفع رباعي بمقعدين على صوت إطلاق النار واقتربت منهما، يوجد بها أربعة أشخاص، في الأمام اثنين وفي الخلف اثنين، نزل من الخلف شخص حتى يجعله يركب بينه وبين الآخر، يجلس في الأمام بجانب السائق شاب في العشرينات من عمره، متوسط الطول نحيف الجسد، يضع على رأسه قبعة صغيرة، التفت نحو أدهم ثم قال:

- الحمد لله على سلامتك يا أدهم.

اقترب منه سائق سيارة الأجرة وأعطاه النقود التي أعطاها إليه أدهم ثم قال:

- إنه نظيف لا يوجد معه شيء.

- حسنًا.. اذهب أنت يا حسن وانتظر إلى أن أهاتفك.

ثم رجع إلى سيارته وانطلقوا في طريقهم فقال الشاب العشريني:

- لم تخيب ظن وضّاح بك يا أدهم، أعرفك بنفسي، أنا كامل البروجي، شقيق وضاح، هو ينتظرنا في المكان الذي سنستقر فيه، ومن ثَم سنبدأ العمل.

قال وهو ما زال مذهولًا بما حدث:

- أنا لن أقبل عملًا يضرني قبل أن يضركم .

ثم صمت بضعة لحظات وتابع:

- ولكن.. هل لي أن أسألك سؤالًا؟.

- بالطبع.

- ما دام السائق الذي ناديته بِحَسن معكم لمَ جعلتني أعطيه النقود ولم وقفنا في هذا المكان بالتحديد .

- جعلتك تعطيه النقود كي تطمئن له.. بالتالي من الممكن أن تخبره بشيء ما.. وهو كان يسألك بعض الأسئلة غير المباشرة لكي يوقع بك.. أما بالنسبة للوقوف في هذا المكان بالتحديد..

فلأنه مليءٌ بالذئاب كما رأيت.. فمن الطبيعي عندما تخرج من السيارة سيأتون عليكم.. ولكن عندما يسمعون صوت العيار الناري سيولون فرارًا.. حينها سينتظر معك السائق بضع دقائق.. وقتها ممكن أن تطمئن له أكثر لأنه أنقذ حياتك.. فتحكي له عن أي شيء يفيدنا مثلًا.. وفي الوقت نفسه صوت ذلك العيار الناري هو الإشارة لنا بأنكما قد وصلتما.

ثم التفت إلى أدهم وأعطى أحد الجالسين بجانبه كيسًا قماشيًّا أسود اللون وأكمل:

- والآن اتضح كل شيء أليس كذلك؟، ستضع هذا الكيس القماشي على وجهك إلى أن نصل، ويستحسن أن تنام لأن طريقنا طويل.

وضع أدهم قطعة القماش على وجهه ثم تابعوا السيرَ في طريقهم ما يقارب ثلاث ساعات أخرى، كان يحاول رسم انحناءات الطريق والمسار الذي تسلكه السيارة ولكنه كان صعبًا نسبيًا، حيث كَثُرت الإلتواءات في الطريق، ولكنه استشف بأنهم يسيرون في طرق صخرية بسبب تأرجح السيارة من حين لآخر، ثم إلى أرض رملية جعلت السائق يضغط على وقود السيارة حتى تقاوم الرمال، وهكذا إلى أن توقفت السيارة، وسمع صوت صرير بوابة يفتحها أحدٌ ما، فتقدمت السيارة مرة أخرى، تقدمت بضعة أمتار فقط ثم نزل منها كامل بينما كان لا يزال الرجلان اللذان بجواره كما هما، ذهب كامل إلى أحد الأشخاص وبعدها أشار إلى مَن بجوار أدهم لينزلوه ويأتوا به، أنزلوه وجاءوا به حيثما يقف كامل وذلك الشخص الذي معه.

رفع كامل الغطاء عن رأسه ليغمض أدهم عينيه ويفتحها عدة مرات حتى انقشع الضباب واتضحت الرؤية تمامًا، نظر أمامه فوجد شخصًا ضخمًا يقف على بُعد عدة أمتار يحملق إليه، ثم أشار إليه بيده وقال:

- الحمد لله على سلامتك يا أدهم، أهلًا بكَ في مزرعة البروجي.

*****

في وقت القيلولة تجلس ثُريا مع صديقتها فاطمة وابنتها دعاء، بينما أحمد في الخارج، حيثُ ذهب إلى مسؤول النادي الذي كان يعمل فيه أدهم، عندما اتصل عليه وأخبره بأن يذهب إليه ويأخذ ما تبقى لأدهم من مال، وعندما ذهب إِليه أحمد أعلَمَه أن أدهم قد جاءه بالأمس يريد الإستقالة من العمل، وأنه سيذهب إلى عمل آخر حتى يستطيع جني المال للعملية، وقال له ما أن يدبر ما تبقى له من مال أن يتواصل مع أحمد ويعطيهِ له، تسلم المبلغ ثم رجع مجددًا إلى منزل أدهم حتى يعطي النقود إلى دعاء، عندما اقترب من المنزل سمع ضحكاتهن تتعالى من النافذة المطلة على الشارع، طرق أحمد الباب فاستقبلته دعاء ثم دخل ليشاركهن طعام الغداء، أعطى دعاء النقود حتى تحتفظ بها ومن ثم أعطاها بعض الأغراض التي كان قد اشتراها للمنزل، وبينما هم يمزحوا ويضحكوا إِذْ سمعوا طرقات على الباب فقامت دعاء كي ترى من الطارق، وعندما فتحت الباب تفاجأت عندما كشفت عن هوية الطارق.

فقالت لها باستغراب:

- أمل!.. خير إن شاء الله!.. هل حدث شيء؟!.

قالت أمل بلهجة مندفعة وهي لا تزال تقف على الباب وكأنها لا تعلم شيئًا:

- أين أدهم يا دعاء؟.. لماذا لم يَرُدّ على هاتفه؟!.

- تفضلي بالدخول يا ابنتي.. لا تتكلمي وأنتِ تَقِفِينَ في الخارج.

قالت فاطمة هذه الكلمات عندما سمعت صوتها في الخارج، ففسحت دعاء لها المجال كي تدخل، دخلت فوجدتهم جميعًا يجلسوا حول المائدة مما أثار حفيظتها، نظرت إلى أحمد فوجدته غير مبالٍ بتذمرها، استغربت من لامبالاته بذهاب صديقه، فهو على علم بالمكان الذي ذهب له، رحبت بها فاطمة وأشارت إليها حتى تجلس بجوارها.

ظلت ترمقهم جميعًا وتتعجب من لامبالاتهم لذهاب أدهم، وكأنه ينام في الداخل، حتى دعاء التي إذا تأخر في الخارج بعض الوقت تظل تتصل به، ظلت تقلب نظرها بينهم جميعًا حتى نظرت إلى دعاء فوجدتها تُمْعِنُ النظر إليها، فبادرت بالسؤال قائلة:

- أين أخوكِ يا دعاء؟.. هل ذهب إلى العمل كما عرفت؟!.

- نعم لقد ذهب، ولكن كيف عرفتِ بأنه ذهب؟!، ألم يخبرك بالأمس بأنه لن يذهب!، بل وأنه صرف النظر تمامًا عن الأمر .

صمتت لبرهة تقلب نظرها بين أحمد ودعاء وقد بدت عليها علامات الارتباك فقالت:

- لقد استيقظت اليوم متأخرة عن غير عادة، وانشغلت مع هالة لأنها كانت ستسافر، وبعدما رحلت مسكت الهاتف،

فوجدته أرسل لي رسالة مفادها بأنه سيذهب، وأنه لا بد أن يخاطر من أجلنا جميعًا، كي يجلب النقود من أجل العملية، وعليه تحمل كَمّ المخاطر التي سيتعرض لها.

- مخاطر؟!.

قالت فاطمة هكذا وهي تضرب على صدرها في ذهول وخوف، ثم التفتت إلى أحمد وتابعت:

- أين ذهب أدهم يا أحمد؟، وما المخاطر التي تتحدث عنها؟؟!.

نظر أحمد إلى أمل بغضب وهو يقول:

- هل ارتحتِ الآن؟؟!.

ثم حوّل نظره ناحية فاطمة وتابع:

- لا يوجد مخاطر ولا شيء، إن أمل حساسة زيادة عن اللزوم.

ثم التفت إلى أمل يحدِّجها بنظراته وهو يتابع:

- أليس كذلك يا أمل؟.

قالت أمل وهي تكَفكِف عينيها مندفعة:

- لست حساسة.. لقد ذهب أدهم من أجلنا، أنا لا أريد شيئًا سواه، حتى لقد عرضت عليه أن أبحث عن عمل كي أساعده، لا أريد سوى العيش معه في أمان.

ثم مسكت بيد فاطمة التي كلما تحدثت كلما احتقنت الدماء في وجهها، شدَّت على يدها وهي تتابع بكلمات متقطعة:

- لقد أخبرني.. لقد أخبرني بألا أنتظره.. ألا أنتظره لأنه قد لا يعود.

قالت كلماتها الأخيرة ومن ثم ظلت تشهق وتبكي، غريب!.. لا أعلم من أين تأتي بهذه الدموع؟!، وكيف تصطنع هذا الأسلوب؟!، لو كان الأمر بيدي لضربتها ضربًا يهشم رأسها.

حملقت فيها فاطمة فاغرة فاها من الذهول، هي تعلم بأن أمل صادقة تمامًا وخصوصًا بأن أدهم يحبها كثيرًا وهي كذلك الأمر، مسكت بيدها وهي تقول لها والدموع تسيل على وجنتيها:

- أمل.. أخبريني، أين ذهب أدهم؟!، أخبريني يا أمل.

قالت فاطمة هذه الكلمات ثم انهالت بالبكاء، فتحدث أحمد قائلًا:

- لم يحدث شيء لأدهم، أدهم في مأمن وسوف أجعلك تتحدثين معه عمًّا قريب.

قالت أمل غير عابئة بصراخ دعاء وثريا بها، قالت بلهجة منكسرة وهي لا تزال تبكي:

- لا ليس بخير .. لقد أخبرني بأنه ذهب في طريق اللاعودة .

صاح بها أحمد مزمجرًا وهو يشير لها بيده قائلًا:

- اصمتي.. ولا تتكلمي مرة أخرى.

ليحول نظره إلى دعاء التي انتبه لها عندما صرخت قائلة:

- ماماااا.

سقطت فاطمة من على الكرسي الذي تجلس عليه على الأرض مغشيًا عليها، ركض نَحْوَها أحمد ليحملها من على الأرض ويضعها على سرير أدهم، ركضت ثريا إلى المطبخ وجلبت الماء، دعاء وأحمد بجوارها يحاولان أن يجعلنها تُفِيقُ مِن غَشْيَتِهَا، جلبت ثريا الماء لكن دون جدوى.. كل محاولاتهم تبُوء بالفشل.. الوضع يزداد سوءًا.. ركضت أمل إلى خزانة أدهم.. جلبت منها زجاجة العطر خاصته.. قربتها من أنفها حتى تجعلها تستنشق رائحتها لعلها تجدي نفعًا.. تبلل ثريا بعض المناديل وتضعها على جبينها، جميعهم يحاولون لكن دون جدوى، الجميع يحاولون بينما أمل ما زالت تقف في ركن الغرفة لا تحرك ساكنًا تتظاهر وكأنها تبكي، اتصل أحمد بالطبيب المتابع للحالة فأخبره بأنه في المستشفى، وأخبره أيضًا بأنه سيرسل له سيارة إسعاف لتنقلها إلى المستشفى، لقد اتصل به أحمد بعدما فشلوا في جَعْلِها تستفيق، ظلوا يحاولون معها بشتى الطرق إلى أن جاءت سيارة الإسعاف، وضعوها في السيارة ثم ركبت معها دعاء وثريا ولحق بهم أحمد بعدما أغلق المنزل جيدًا، بينما تَرَجَّلَت أمل إلى منزلها على مهل تبتسم ابتسامة صفراء.

*****

أشار ذلك الشخص إلى الرجال الذين بجواره حتى ينزلوه ويجلبونه، وسرعان ما استجاب الرجال له وأحضروه إليه، وقف على بُعد ثلاثة أمتار تقريبًا ثم أمرهم ذلك الشخص برفع الغطاء القماشي من على وجهه، وعندما رفعوا الغطاء عن وجهه كانت الرؤية مشوشة، فظل يفرك عينيه كي يتمكن من الرؤية، نظر أمامه بعدما وضحت الرؤية فوجد رجلًا في الأربعينات من عمره تقريبًا، ذا

بنية جسدية ضخمة غلبت عليها الدهون والترهلات، حليق الرأس ذو لحية كثة وشوارب كثيفة.

نظر له ذلك الرجل وقال:

- أهلًا بك يا أدهم، أهلًا بكَ في مزرعة البروجي.

ثم اقترب يحدِّق فيه بنظراته وتابع:

- أنا وضاح البروجي، أنا الذي كنت أحدثك في الهاتف.. أهلًا بك.

كان أدهم ينظر إليه في ذهول، ويجول بذهنه كيف لهذا السمين أن يعلم عني كل ذلك!، وهو لا يستطيع الركض لعشرة أمتار، حتى، قال له أدهم محاولًا رسم ابتسامة على وجهه متجاهلًا نظراته:

- أهلًا بكَ سيد وضاح.

ثم توجه وضاح إلى كرسيه الذي كان يجلس عليه، ومن ثَمَّ جلس عليه وأشار إلى أدهم متابعًا:

- لقد رحبّنا بك يا أدهم، حان وقت العمل.

ثم أشار إلى الرجلين اللذين بجواره وتابع:

- فتشوه جيدًا وأعلموني إن وجدتم معه شيئًا، ثم اصطحبوه إلى الغرفة التي سينام فيها، وأعطوه ثيابًا تناسبه للمبيت.

سمع أدهم كلماته واحتقن الدم في عروقه، يريد أن يضع الجهاز الذي معه في مكانٍ ما كي يؤمن طريقة عودته، ولكن كيف

يفعل ذلك؟ كيف سيفعله والمكان ممتلئ بالأشخاص المدججين بالسلاح؟، بدا في حيرة من أمره وهو لا يستطيع التحرك يمينًا ولا يسارًا، ماذا سيفعل؟.. في غضون هذه الثواني التي كان يفكر بها عما سيفعله، خطرت في باله فكرة لا بأس بها، ولو صحّت ستجدي نفعًا بالتأكيد، بدأ يترنح ثم وضع يده على رأسه وكأنه شعر بدوار مفاجىء، ظل يترنح وكأنه يريد أن يفرغ ما في معدته من طعام، متوجهًا ناحية السيارة التي جاء فيها، ثم استند إليها وهو محنيّ الظهر، وضع إصبعه في حلقه كي يتقيأ حتى لا يشك به أحد، وبعدها وضع يده على بطنه وهو ما زال يفتعل حركات توحي بأن معدته تؤلمه فعلًا، ثم التقط الجهاز من تحت رأس الحزام بيده في لحظات، وجثا على ركبتيه وهو يستند إلى السيارة، حول نظره إلى الخلف فوجد بعضهم يحول وجهه إلى الجهة الأخرى والبعض الآخر ينظر إليه، ولكن هناك ما زاد توتره وقلقه، شاهد كامل يقترب منه ببطء ليتفقده، في هذه الأثناء ظل يحول نظره سريعًا بين الأماكن التي من الممكن أن يضع بها جهاز التعقب، لا بد أن يكون مكان مخفيًّا وثابتًا لا يتحرك من موضعه إن انقلبت السيارة نفسها، إلى أن استقر على الشاسيه من الأعلى، وسرعان ما مد يده ووضعها عليه فالتصقت بها كأنها قطعة من السيارة نفسها، بفضل فكرة المغناطيس الذي لصقه في الجهاز التي لم تكن دون جدوى.

اقترب منه كامل ووضع يده على كتفه ثم قال:

- هل أنت بخير؟!.. ماذا حدث لك؟.

وقف أدهم وهو يمسح على وجهه ثم قال:

- لا عليك.. أنا بخير، لقد شعرت بالغثيان بسبب المسافة الكبيرة التي قطعناها، هذا كل شيء.

ثم قال له وهو ينظف البنطال من التراب الذي عَلِقَ به عندما جلس على ركبتيه:

- أنا جاهز.. الآن أصبحت بخير للغاية.

أخذه كامل ثم توجه به إلى غرفة الحراس، وقام الحارس بتفتيشه جيدًا، فلم يجد معه شيئًا ومن ثَم أعطاه بدلة للنوم، أشار وضاح إلى أحد الحراس ليصطحبه إلى المكان الذي سينام به.

ظل أدهم يلتفت حوله في المزرعة ليتفقدها، مَن يدخلها للوهلة الأولى تثير ذهوله، البوابة الرئيسية العملاقة والسور المرتفع الذي يحيط بالمزرعة، مساحة المزرعة حوالي خمسة أفدنة مستطيلة الشكل، ذات سور صخري ارتفاعه يقارب ستة أمتار وعرضه يفوق المتر تقريبًا، على مدخلها بوابة كبيرة جدًا ارتفاعها مماثل لارتفاع السور وعرضها مثل ارتفاعها، البوابة إلكترونية مصنوعة من الحديد الثقيل جدًا، علاوة على ذلك موصدة بمتاريس عملاقة من الداخل، لذلك من الصعب جدًا بل من المستحيل الخروج أو الدخول ما لم تُفتح البوابة بواسطة الحرَّاس الذين يقفون عليها، يوجد على البوابة من الجانبين بُرْجَا مراقبة أعلى من السور قليلًا، لكل منهما أربعة نوافذ يوجد في كل برج حارس يحمل سلاحًا ناريًّا من الأسلحة الثقيلة، عندما تدخل من البوابة تجد طريقًا بجانب السور الأيمن عرضه يقارب ثمانية أمتار، آخر هذا الطريق توجد فيه غرفة سامر كبير الحراس، وبجانبها في الزاوية برج مراقبة آخر، وفي الزاويتين المقابلتين في

نهاية المزرعة الأبراج نفسها ولكنها أقلُّ نسبيًا في الإرتفاع، يحيط المزرعة من الخارج طريق واسع، المزرعة مقسمة إلى قسمين يفصلهما عن بعضهما سور صخري بارتفاع السور المحيط بالمزرعة، القسم الأمامي ويمتلئ بأشجار المانجو وبعض الفواكه الأخرى، ويحتل ثلثي المزرعة، ويوجد فيه خمس غرف على جانبي السور بخلاف غرف الحراس، ثلاثة منهم بجانب بعضهم، يفصلهم عن السور الأيسر الموالي للشارع الخارجي طريق يؤدي إلى القسم الثاني للمزرعة ويبلغ عرضه أربعة أمتار فقط، تطل عليه نوافذ الغرف الثلاثة، وطريق آخر من أمام الغرف يؤدي إلى ساحة صغيرة موجودة في منتصف المزرعة، وغرفتان في الزاوية التي تربط السور المقابل بالسور الذي بالمنتصف، تَبْعُدُ الغُرْفَتَانِ قرابة الثلاثة أمتار عن الجدار الخلفي، أمامهما طريق يؤدي إلى الطريق الرئيسي للمزرعة، وطريق آخر على امتداد الجدار الأوسط، إحداهما غرفة الطعام والأخرى غرفة البروجي الكبير الذي مات منذ سنوات، وهذه الغرفة تلتصق تمامًا بالجدار الأوسط وهي الغرفة الوحيدة الشاغرة حاليًا، أما عن القسم الآخر الذي خلف الجدار الأوسط توجد عليه بوابة يصعب اختراقها، يربطها بالبوابة الرئيسية الطريق الذي يمر من جانب الغرف الثلاث، يوجد في الداخل في برجي المراقبة على السور المقابل للجدار الأوسط حارسان في الأعلى لكلٍ منهما سلاحه الناري، وفي القسم الثاني يوجد ست غرف، ثلاث بجانب السور الأوسط، غرفتان منهما متلاصقتان ببعضهما وواحدة تبعد عنهما بضعة مترات، وثلاث بجانب السور المقابل منها غرفتان أكبر بكثير من الغرف الأخرى، يختلف تصميمهما من حيث المساحة والإرتفاع.

كان أدهم يتفقد المزرعة وهو في حيرة من أمره، ويجول في خاطره إلى أين سيذهب به قدره؟!؛ وقد أصبح في حالٍ لم يعد القرار فيه بيده، وهو يتساءلُ لِمَ كل هذه الكمية من السلاح وأبراج المراقبة، ظل يحدق في كل مَن يراه، عسى أن يجد شخصًا من بينهم مختلف يرشده إلى الصواب، لكنه عاد من شروده على صوت كامل وهو يصيح بالحارس الذي يصطحبه قائلًا:

- إلى أين تذهب؟!، لماذا تذهب من ذلك الإتجاه؟!.

كان الحارس يذهب باتجاه غرفة الطعام ومن جوارها غرفة البروجي الكبير فتوقف عندما سمع صياحه،التفت إليه ثم قال:

- لقد أمَرَنا سيدي وضاح أن نفتح غرفة البروجي الكبير حتى يمكث بها أدهم.

اقترب منه كامل وهو يستشيط غضبًا ثم قال:

- لماذا؟!.. ألا يوجد مكان في الغرف الأخرى؟، كيف تفتحون الغرفة؟

- لا أدري يا سيدي.. هذا أمر سيدي وضاح.

رمقه كامل في حنقٍ ثم قال:

- انتظر.. لا تذهب إلى الغرفة حتى أعود .

- أمرك يا سيدي

ذهب كامل متوجهًا إلى أخيه الأكبر وضاح، كان يجلس في استراحته الخاصة، التي هى على مقربة من البوابة، بينما أدهم

يتفقد تعابير وجه الحارس الذي بدت عليها علامات الإرتباك، فطن حينها أن هذا الإرتباك نابع من المشادَّة التي ستحدث الآن بين الأخوة كامل ووضاح، وها هو يسمع صياحهما والكلمات التي تتراشق منهما لبعضهما البعض.

كان وضاح يجلس على كرسيه تحت المظلة يشعل سيجارته وأمامه طاولته التي تعددت عليها أنواع الفاكهة، اقترب كامل من أخيه بعدما احتقن وجهه بالدماء وصاح قائلًا:

- وضاح.. كيف تعيد فتح غرفة أبينا مجددًا؟!، كيف تفعل هذا يا وضاح؟!، ألم نقل بأننا لن نفتحها مجددًا؟!.

نظر إليه وضاح بعدما أطفأ سيجارته المشتعلة حديثًا بعصبية، ثم قال بحنقٍ:

- في الأصل كيف تتجادل في قرارات أخيك الأكبر!.

- كيف تفعل ذلك بدون أن تستشيرني يا وضاح؟!.

- وماذا كنت ستقول أنت؟.. ها.. أخبرني، بالطبع كنت سترفض.

ثم أمسك به وضاح وسحبه من يده، ثم أمره أن يركب السيارة ومن ثم أغلق الزجاج جيدًا، تناقشا سويًا مع بعضهما البعض بينما أدهم وجد الصوت قد اختفى تمامًا، وبعد ذلك بدقائق عاد كامل مجددًا وسأل الحارس قائلًا:

- أين وضعتم الأشياء التي كانت بالغرفة؟

- لقد أمر السيد وضاح أن نضعها في غرفتك يا كامل، لا تحزن لقد فعل أخوك الصَّواب.

التفت كامل ليكشف عن صاحب الصوت الذي جاء من الخلف، شاب يظهر بملابس الحراس لكن هيبته تَقول عكس ذلك، وطريقة كلامه مع كامل التي تشعرك بأنه ذو مكانة في هذه المزرعة، وبالفعل ما أن اقترب فابتعد الحارس قليلًا ليفسح له المجال محييًا إياه، شاب في طول أدهم تقريبًا وبنيته الجسمانية تبدو قوية، ذو عينين بنيتين وشعر ولحية قصيرة، بشرته تميل إلى السمار.

تغيرت ملامح وجه كامل إلى شيء من الرضا، بعدما كان محتقنًا بالدماء، وأمر الحارس أن يتابع مجددًا إلى غرفة البروجي الكبير، ولكن ذلك الحارس الذي أقبل عليهم قد أَمَرَ الحارس بالإنصراف، وأَبْلَغَ كامل بأنه سيصطحبه بنفسه إلى الغرفة، ثم تقدم وتلاه أدهم، فتح الحارس الغرفة ثم دخل ومن بعده أدهم، كانت الغرفة متوسطة الحجم توجد بها نافذة واحدة من الخلف تطل على السور ويوجد عليها حديد قد تآكل من الصدأ، وهي ذات أرض ترابية وسقف خشبي مما أثار فضول أدهم، ليسأل الحارس وهو يمرر أصابعه على الجدار يتحسس الغبار الذي عليه قائلًا:

- مَن البروجي الكبير هذا؟!، ولماذا غضب كامل من أخيه هكذا؟!.

كان الحارس يمتنع عن الكلام معه، ولكن الإبتسامة التي تزين وجهه وطريقة كلامه جعلته يتحدث إليه، حيث قال:

- البروجي الكبير هو أبوهما.. مات منذ سنوات، كان يحب كامل كثيرًا، وكامل كذلك الأمر يحبه كثيرًا، هذه الغرفة لم

يدخلها أحد منذ أن مات البروجي الكبير، أنت أول غريب يدخلها من بعده.

قال أدهم متعجبًا:

- أول غريب!.. لهذا السبب غضب كامل، أليس كذلك؟.

- نعم.. وغير ذلك كان يأتي كل فترة ويجلس في الغرفة وحده بجانب أشياء والده، ولكن السيد وضاح يعرف جيداً كيف يرضيه.

قال أدهم بعدما رفع حاجبيْه وهو يبتسم:

- لهذا وضع أشياء البروجي الكبير في غرفة كامل.. أليس كذلك؟!.

- نعم.. ألم ترَ كيف فرح ونسي كل شيءٍ عندما أخبرته؟!.

- أجل.. لقد رأيته.. ولكن ألا توجد غرف أخرى هنا؟.

- توجد.. ولكن السيد وضاح يريد أن يجعل كل واحد منكم في غرفةٍ لوحده،كي لا يزعج أحدكم الآخر.

شاح بنظره إلى الأرض الترابية ثم نظر إلى الحارس وقال:

- ولكن أرضية الغرفة هنا ترابية، لاحظت أن غرفة الحارس التي تم تفتيشي بها ذات أرض خرسانية.

- كان البروجي الكبير يحب رائحة التراب عندما تتساقط عليه الأمطار، لذلك كان ينثر عليها حبات الماء من حين لآخر لتخرج رائحة التربة الممتعة، ويخلق لنفسه أجواء شاعرية.

- صحيح.. من الواضح أنه كان يحب الطبيعة.

- نعم.

ثم مد أدهم يده إلى الحارس حتى يصافحه ويشكره على هذه الفقرة البسيطة التي شاركه الحديث بها وقال:

- أنا أدهم حمدي.. تشرفت بمعرفتك كثيرًا.

مد الحارس يده هو الآخر وعلى وجهه ابتسامة خفيفة ثم قال:

-بيشوي.. أنا بيشوي، شكرًا لك يا أدهم .

شد أدهم على يده وهو يقول:

- لقد ذكرتنى بأحد أصدقائي، علّنا نكون ذلك .

- سنتقابل كثيرًا، ستجدني عندما تسنح الفرصة، ولكن دعني أقدم لك نصيحة، لا تحاول الإختلاط بأحد الحراس، ولا تخرج من غرفتك دون أن يأذن لك أحد.

ثمَّ هَمَّ بيشوي بالخروج وقبل أن يغلق الباب خلفه استوقفه أدهم قائلًا:

- ألن أراك اليوم ثانية؟، تعرف بأنني لا أعرف أحدًا هنا سواك.

- سأحاول أن أجلب لك العشاء، الآن أغلق الغرفة وارْتَحْ قليلًا.

ذهب بيشوي وأغلق أدهم الباب وبدأ يتفقد الغرفة، الغرفة مجهزة ببعض الأشياء، حيث يوجد فيها حمام واسطوانة غاز

وموقدة صغيرة، ويوجد أيضًا بعض الأغراض التي تخص الشاي والقهوة وخلافه، يوجد فيها سرير يتسع لشخصٍ واحد عرضه متر تقريبًا وأيضًا قارورة ماء كبيرة، ملأ أدهم كوبًا من الماء ثم نثره على الأرض الترابية، واستلقى على السرير ليعيش هذه الأجواء الجميلة.. أجواء البروجي الكبير، ظل يفكر في ما سيفعله أحمد عندما يعلم بأنه ذهب وفي ردة فعل دعاء، وكيف سيتعامل أحمد مع الوضع؟، وماذا عن أخته إذا علمت بالأمر الحقيقي الذي ذهب إليه؟، وتحول تفكيره إلى السيارة التي وضع بها الجهاز ذات المغناطيس، وكيف سيشغل الجهاز حتى يعرف أحمد مكانه؟، كل هذه أشياء تدور في عقله ولكن ما يشغل تفكيره أكثر هذه الأسوار العالية المنيعة والحراس الذين عليها، كيف سيتجاوز كل ذلك؟!، هذا هو السؤال الأهم.

مرت الساعات إلى أن أعلن الليل سدوله، تنبأ أدهم الذي غفا على السرير إلى وقع طرقات على الباب، نهض مسرعًا يظن أنه بيشوي، ثم هَمَّ ليفتح الباب، تفاجأ عندما وجد حارسًا آخر غيره، ظهرت عليه علامات الدهشة مما جعل الحارس يسأله قائلًا:

- لماذا تنظر بدهشة هكذا؟!، هل كنت تنتظر شيئًا غير الطعام؟!.

حدق به وهو يحاول أن يجعل ردة فعله متوازنة مع كلماته التي سيقولها، رمق الطعام بعينيه ثم قال:

- لا.. بل كنت أنتظر طعامًا غير الطعام.

قَطَّبَ الحارس حاجبيه وقال في حنقٍ:

- هذا هو الطعام الموجود حاليًا، وعليك التكيف مع ذلك لأن هناك نظام غذائي ستتبعه طوال الفترة التي تقضيها هنا.

أعطاه الحارس الطعام ثم التفت حتى يرحل وهو يقول:

- إغلق الباب وتناول طعامك، ثم نَمّ جيدًا لأنك ستسيقظ مبكرًا.

أغلق أدهم الباب وجلس يتناول طعامه وهو يفكر في كلام الحارس، جال بخاطره إن كان بيشوي أخبرهم بما تحدث به معه، لذلك لم يجعلوه يجلب له الطعام، على كل حال هو في بداية الرحلة وينتظره الكثير والكثير كي يعود إلى أهله بالمال، ما أن انتهى من طعامه حتى ذهب إلى الحمام وتوضأ ثم أقام الصلاة، هو لا يعلم أي فرض سيصلي أو في أي اتجاه ستكون قبلته، ولكنه يقول عسى أن يقبلها الله، وبعدما انتهى من صلاته أخلد إلى سبات عميق إلى أن استيقظ على وقع طرقات على الباب.

*****

(١٢)

وصلت سيارة الإسعاف إلى المستشفى ثم نزلت منها ثريا فدعاء، ثم بعد ذلك نزل المسعفون وأنزلوا فاطمة على مَهَل، في هذه اللحظات كان أحمد ينزل من سيارة الأجرة التي استقلها ويركض ناحيتهم، وعندما أدخلوها إلى الإستقبال طلب منهم الطبيب أن يصعدوا بها إلى الطابق الأعلى، استقلُّوا المصعد إلى الطابق الأعلى، ثم لحق بهم الطبيب سريعًا، هو يعلم المضاعفات التي قد تحدث لفاطمة إن مرت بنوبة زعل أو خلافه وها قد حدث، خرجوا من المصعد فوجدوا الطبيب يقف أمام الباب، فأخبرهم أن يذهبوا بها إلى العناية المركزة، أمرهم بعد ذلك بالخروج ومن ثَم بدأ يضع بعض الأجهزة، خرجت دعاء الغارقة في دموعها تحتضنها ثريا، بينما أحمد يذرع المكان جيئة وذَهابًا، بدأت ثريا تهدىء من روع دعاء التي شعرت لوهلة بأن على أكتافها حمل كالجبال، تذكرت أدهم وكيف كان يعاني في مثل هذه المواقف، وزاد بكاؤها عندما تذكرت كلماته وهو يقول ربما لا أعود، كان الخوف يحطِّمُ قلبها وهي تفكر، ماذا لو خرج الطبيب وأخبرهم بأن عليه أن يجري العملية في أسرع وقت ممكن، كما أخبرهم من قبل إن حدث لها شيء سيضطر إلى إجراء العملية في أسرع وقت، وأخبرهم أيضًا بأنه لا يستطيع أن يجري العملية إلا حين توفُّر النقود، ما هذه المحنة التي وقعوا فيها؟، اقترب منها أحمد ثم قال بصوت هادئ:

- دعاء.. ماذا ستفعل أمك لو رأتكِ على هذا الوضع، عليكِ أن تستجمعي نفسكِ بسرعة، ستخرج أمك بعد قليل، لا بد أن تراكِ بحال أفضل من هذا.

قالت وهي تمسح دموعها التي ما زالت تنحدر على وجنتيها:

- صحيح.. هل ستخرج أمي الآن؟!، هل ستخرج حقا؟!، أخبرني يا أحمد أرجوك، أرِح قلبي.

ضمتها ثريا وهي تربت على ظهرها وتقول:

- ستخرج.. إن شاء الله ستخرج.

رجع أحمد ليضرب المكان ذهابًا وإيابًا مجددًا، ينتظر بترقب خروج الطبيب حتى يخبرهم بما آلت إليه حالة والدة صديقه، ذهب إلى النافذة الموجودة في آخر الممرّ كي يستنشق بعض الهواء النقي، أخرج هاتف أدهم حتى يتفقده إن كان قد فتح جهاز التتبع الذي حدَّثه عنه كما أخبره، أم ما زال لم يستطع فتحه، ظل يتفقد الهاتف فلم يجد فيه أي جديد، بينما هو يتفقد الهاتف ظهرت أمامه بعض الرسائل، ومن ثَمَّ جاءت أمامه الدردشة التي بين أدهم وأمل، فغلبه الفضول كي يفتحها ويقرأ الرسالة التي أرسلها لها ليخبرها فيها بأنه سيسافر، ولكنه تفاجأ عندما فتح الدردشة التي بينهما، لم يكن بها رسالة عن أنه سيذهب، أو شيء من هذا القبيل من الأساس، بل كانت آخر الرسائل عن هالة وزوجها ماهر، وعن اللقاء الأول بزوج أختها وما الإنطباع الذي أخذه عنه، زادت حيرته أكثر وسيطر عليه الفضول أن يسحب الشاشة كي يشاهد الرسائل التي تسبقها، لعله يجد الرسالة التي حدثتهم عنها، لم يجد شيئًا أبدًا من هذا القبيل، كل ما شاهده هو كلمات توسل من أمل لأدهم

كي يذهب إلى ذلك العمل، وألا يلقي بالًا لِمَن يحاول أن يمنعه، وهكذا إلى أن وصل إلى الرسائل التي كانت قبل أن يتصل البروجي بِه، خرج من الواتساب وفتح تطبيق الماسنجر لعله يجد الرسالة التي أخبرتهم عنها، وجد رسائل قديمة مر عليها قرابة أسبوع، شرد بعض الوقت يفكر هل أمل تكذب؟، ولكن ما مصلحتها في أن تكذب كذبة كهذه، ولماذا أمام الجميع؟، وفي حضور والدة أدهم بالخصوص، أو أنه يظلمها بتفكيره هذا، على كل حال هو يعرف بأنها تحب أدهم ولا تقدم على عمل يضره، ولكنه عزم على أن يسألها حول ذلك، قطع شروده صوت يناديه من الخلف فاندهش عندما التفت له، ثم قال مستغربًا:

- حازم!!.. ماذا تفعل هنا؟!.

أجابه حازم وهو يقترب منه:

- لقد علمنا بالوضع وجئنا على الفور.

- جئتم!!.. هل جاء عاصم معك؟!.

- نعم.. لقد جئنا سويًا، هو يجلس أمام غرفة العناية المركزة.

بدأ أحمد يسير ناحية العناية حيث تتواجد دعاء وأمه ثم سأل حازم قائلًا:

- كيف علمتما؟!، من الذي أخبركما؟!.

- لقد رأى أحد المارة سيارة الإسعاف أمام منزل أدهم وعلى الفور أخبر عاصم، ركبنا سيارته وذهبنا إلى منزل أدهم فأخبرنا جيرانه بأنكم هنا، فعدلنا وجهتنا إليكم .

صمت حازم هنيهة ثم تابع:

- تعلم جيدًا.. بعدما ذهب أدهم لا بد أن نكون بجانب أمه في هذه الأيام الصعبة، حتى وإن كان كرمة لأيام طفولتنا وما قدمته لنا من عطف وحنان.

توقف أحمد يحدِّق إليه مندهشًا ثم وجه له سؤاله قائلًا:

- من أين علمت بذهاب أدهم؟!، مَن الذي أخبرك؟!.

التفت حازم حوله في ريبة وراح يقول مرتبكًا:

- هل نسيت بأنه أخبرنا سابقًا؟، وبما أنه غير موجود فهذا يؤكد بأنه ذهب.. أليس كذلك؟.

أومأ أحمد برأسه، عندما تذكر بأن أدهم قد أخبرهم سابقًا، عندما قاموا بزيارته عند علمهم بأن سيارة اصطدمت به، وصل أحمد إلى العناية فوجد عاصم يجلس في الجهة المقابلة لأمه ودعاء، تبادلا التحية وقبل أن يجلسوا خرج الطبيب من العناية فركض عليه أحمد وسأله عن حال فاطمة، أخبرهم الطبيب بأن الحالة قد ساءت بسبب تعرضها لنوبة عصبية ولكنها مستقرة الآن، ثم أعطى إلى أحمد ورقة كتب فيها بعض الأدوية وأخبره أن يحضرها من الخارج على وجه السرعة.

أخذ أحمد الورقة ثم ركض إلى الخارج وتبعه عاصم ومن خلفه حازم، جلست دعاء بعدما اطمأنت قليلًا على والدتها، بأن حالتها مستقرة، ولكن زاد حنقها عندما رأت أمل تقترب منهما، ها هي تمشي في الممر من بعيد تتبختر متجهة إليهما، قابلتها دعاء وهي مستشيطة غضبًا وما أن اقتربت منها حتى صرخت فيها قائلة:

- لماذا أتيتِ إلى هنا؟.. ألم يَكْفِكِ ما فَعَلْتِهِ هناك؟.

أمسكت بها ثريا من يدها، لتهدىء من روعها، بينما بدأت أمل في البكاء، وهي ترتمي على الكرسي المقابل، ووضعت رأسها بين يديها وواصلت البكاء، نظرت ثريا إلى دعاء وطلبت منها أن تذهب إلى أمل كي تهدىء روعها.. فرفضت، ربتت على يدها ونهضت من جانبها، وجلست على الكرسي المقابل بجوار أمل التي ما زالت مستمرة في بكائها، ربتت على ظهرها وهي تقول:

- أنا أعلم يا ابنتي بأنك لا ذنب لك في ذلك، ولكن أنتِ تعرفين دعاء، هي غاضبة بسبب حالة أمها ليس أكثر.

كَفَّتْ أمل عن البكاء ورفعت وجهها ونظرت إلى ثريا التي مدت يدها لتمسح على وجنتيها متابعة:

- هيا.. اجلسي بجوار دعاء وواسيها.

نهضتا ثم جلستا بجوار دعاء على الكرسي المقابل، تحاول أمل أن تخبىء نظرات الخبث التي بداخلها وتصطنع هيئة الفتاة المنكسرة الضعيفة، وهي متمكنة في فعل ذلك لذا من السهل جدًا أن تجعلك تصدقها، بدأت تُعِدُّ نفسها ثم تكلمت مصطنعة نبرة حزينة جدًا قائلة:

- أنا آسفة جداً يا دعاء، لم أكن أعلم بأن الأمور ستئول إلى ذلك، لم أكن أعلم بأن والدتك لا تعلم شيئًا، صدقيني لم أكن أعلم ماذا أقول، خوفي وقلقي على أدهم جعلني لا أرى شيئًا أمامي.

تنهدت ثم مسكت بيدها وتابعت:

- وكأن حبه قد أصابني بالعمى، فجعل قلبي يحترق شوقًا لليوم الذي سيخرج فيه إلى النور مجددًا، وما أنا إلا خائرة القوى لا أستطعت كبح مشاعري ولا أستطعت الخروج من تلك الغفلة، سأظل ماكثة في مكاني إلى أن يرجع الذي سيأخذ بيدي إلى النور ويعيد إليَّ أنفاس الحياة مجددًا.

ربتت دعاء على يدها بعدما تأثرت بكلماتها، فأمل بارعة في قلب الكفة إلى صالحها دائمًا، مما جعل دعاء تضمها وهي تقول:

- سيعود.. إن شاء الله سيعود.

*****

خرج أحمد مسرعًا من المستشفى، فيما توجه عاصم إلى سيارته برفقة حازم، وقف أمام باب المستشفى ينتظر سيارة أجرة، كي يستقلّها حتى يحضر العلاج الذي أخبره عنه الطبيب، فتفاجأ عندما وجد عاصم قادمًا نحوه بسيارته، نزل حازم الذي كان يركب في الأمام، وترك باب السيارة مفتوح، اتكأ عاصم على يده اليمنى حتى يميل قليلًا ليرى وجه أحمد وهو يحدثه، حيث قال:

- هيا.. اركب ليس لدينا متسع من الوقت.

ركب أحمد على الكرسي الأمامي بجانبه، أخبره عن الصيدلية التي جلب منها الدواء في المرة السابقة، كان الدواء نفسه تقريبًا أومأ برأسه وأخبره بأنه يعرف المكان، ثم زاد من سرعة السيارة، ساعده على ذلك الطرقات الخاوية التي لا يوجد فيها أي معوقات، ظل الصمت سائدًا لفترة إلى أن كسره عاصم قائلًا:

- انظر ماذا فعل صديقك بأمه⁉.

بنظرة باغضة أجابه أحمد:

- هو يريد تحسين مستواهم وحسب.

رمقه عاصم وهو يقول مستغربًا:

- وإن كان على حساب نفسه؟!.

- نعم.. وإن كان على حساب نفسه.

ثم حدَّق إليه وتابع:

- وإن لم يفعل على حساب نفسه.. فعلى حساب مَن سيفعل؟!.

نظر عاصم في المرآة إلى الخلف حيث حازم، وقال:

- عجيب أمر صديقك يا حازم!.

قال حازم وهو يبتسم بتهكم:

- دعه يحاول يا عزيزي.. دعه يحاول.

التفت له أحمد ثم قال له باللهجة الساخرة نفسها وهو يرمقه بسخط:

- على الأقل عندما يعود يكون قد نال شرف المحاولة يا حازم، ولن يقولوا لقد مرضت أمه وهو يقف لا يحرك ساكنًا.

أنهى عاصم فقرة السخرية التي جَرت بينهما بقوله:

- هل أخبرك شيئًا؟، هل هناك شيء يجعلك واثقًا بأنه سيعود سالماً؟!.

- لا.. لم يخبرني بشيء، حتى.. لقد ذهب بعدما أخبرنا بأنه عدّل وجهته عن ذلك العمل، وكان قراره قطعيًّا لا رجعة فيه

.

ثم صمت لحظات وبعدها تابع:

- لكنه سيعود .. إن شاء الله سيعود سالمًا.

- وما كل هذه الثقة؟!، وأنا أعرف جيدًا أن العمل في أماكن كهذه خطير جدًا، وهو لا يعلم هوية الرجل الذي سيعمل معه، ولا شيئًا عن العمل الذي يقوم به .

حدّق فيه وهو يبتسم ثم قال:

- هذا أدهم يا صديقي، وأنت تعلم أدهم جيدًا، إنه على دراية كاملة بما يفعله.

ضغط عاصم على مكابح السيارة ليوقفها فجأة وهو يقول إلى أحمد:

- ها قد وصلنا الصيدلية التي قلت عنها، هيا.. اذهب وأحْضِر الدواء، نحن في انتظارك هنا.

نزل أحمد متوجهًا إلى الصيدلية مسرعًا، بينما عاصم قد التفت إلى حازم وأغلقا زجاج السيارة وظلا يتسامران، فيما دخل أحمد الصيدلية مسرعًا فوجد الطبيب مشغولًا مع إحدى المرضى، انتظر إلى أن انتهى ثم أعطاه الروقة التي كتبها الطبيب، وبعد بضع دقائق أحضر الطبيب له العلاج، حاسبه على العلاج ثم انصرف مسرعًا إلى

السيارة، لفت انتباهه أنهما يتحدثانِ خلسة بعدما أغلقا زجاج السيارة ولكنه لم يُلقِ بالًا إلى حديثهما، كل ما يهمه في الأمر أن يعود مسرعًا إلى المستشفى، وها هم في الطريق إلى المستشفى يسود الصمت بينهم، عاصم منتبه إلى الطريق وأحمد يقلب في العلاج ليتأكد بأن الطبيب لم ينسَ شيئًا وحازم مشغول بهاتفه، عندما وصلوا المستشفى توقف عاصم خارجًا ثم نزل أحمد ونزل حازم من الخلف ليركب بجانب عاصم، أشار له عاصم بأنهما سيذهبان، وطلب منه بأن يخبره إن حدث شيء مغاير ثم انصرف، صعد أحمد الدرج بسرعة إلى أن وصل الطابق العلوي، أعطى الممرضة العلاج كي تعطيه إلى الطبيب ثم جلس بجوار أمه.

*****

دوَّى جرس إنذار على اثره بدأ الحراس بتولي مهامهم، استيقظ أدهم على صوت طرقات على الباب فنهض وفتحه، فرك عينيه حتى يحدد هوية الطارق لعله بيشوي، لكنه لم يكن هو كان الظلام لم ينقشع بعد، أعطاه الحارس بدلة وحذاءً للعمل، ثم قال:

- خذ.. ارتدي هذه الملابس، واتبعني عند البوابة الرئيسية، سننطلق بعد عشر دقائق.. لا تتأخر .

- إلى أين؟

- إلى العمل.. ولا تتحدث كثيرًا، أو أنك تظن أيها الضخم بأنك جئت إلى هنا لتنام!، هيا أسرع.

قال الحارس هذه الكلمات بوجه عابسٍ، ثم سحب الباب من خلفه وانصرف، هو يدرك تمامًا بأن أدهم يمكنه أن يفتك به في ضربة واحدة، لكنه يستقوي بالسلاح الذي يحمله وبالمكان وأصحابه، لذلك يتحدث كما يشاء، بدَّل أدهم ثيابه وأخفى حذاءه، ثم خرج وأغلق الباب من خلفه بإحكام، هو يعلم بأن لديهم مفاتيحها، وأن موضوع الخصوصية الذي حدثه عنها الحارس ما هي إلا تأمين لأنفسهم وحسب، حتى لا يتحدثون مع بعضهم البعض، ولكن ما يجعله مطمئنًّا أنها غرفة البروجي الكبير، لذلك من الصعب أن يدخلها غير ولديه فقط.

توجه ناحية البوابة الرئيسية، ولكنه لم يسلك الطريق المؤدي إلى الطريق الرئيسي، بل سار من بين الأشجار العالية كي يتفقد المكان، ظل ينحرف إلى أن وصل إلى الطريق الأيسر الذي يطل عليه الثلاث غرف، وسرعان ما توقف عندما شاهد كل غرفة يخرج منها شخص يلبس نفس ملابسه، سمع صوت اثنين من الحراس قادمَيْن نحوه في الطريق فعاد مسرعًا إلى الطريق الموالي لغرفته، ثم توجه بعدها إلى البوابة الرئيسية.

ما أن وصل البوابة الرئيسية؛ حتى وجد الأشخاص الذين كانوا يقفون أمام الثلاث غرف يجلسون في السيارة من الخلف، فأدرك بأنهم زملاءَه الذين سيرافقونه في هذا العمل، ولكنه تفاجأ كثيرًا عندما تمعن في السيارة التي يركبونها، إنها هي السيارة نفسها التي كان قد وضع بها الجهاز، بدأت تظهر على وجهه ابتسامة لا إرادية وكأن الأمور ستكون أكثر سلاسة مما توقع.

زاد من سرعة خطواته عندما صاح به الحارس قائلًا:

- أسرع أيها الضخم.. لا بد أن نصل قبل بلوغ الشمس .

هَمَّ بخطواته أكثر ليدخل في مساحة الإنارة التي يصدرها كشاف العمود الذي تقف تحته السيارة، ليلفت انتباه زملائه الذين يرونه للمرة الأولى، كانوا يقاربونه في السن تقريبًا وفي الطول لكن كان لأدهم رأي آخر في موضوع الجسم، كانوا يضحكون عندما قال الحارس أيها الضخم، ظنًا منهم بأنه يمزح أو يسخر منه، ولكن عندما شاهدوه أدركوا بأنه كما وصفه الحارس بالفعل، مما جعل أحدهم يقول في انبهارٍ وكأنه أعجب بعضلاته المفتولة:

- يا إلهي!.. إنه ضخم يا رجل!.. ظننتك تمزح.

ركب السيارة وهو يلتفت إليهم لكنه لا يبالي بالنظرات التي ترمقه، أحدها بالإعجاب من زملائه والأخرى بالإمتعاض من الحارس الذي يقف بسلاحه في صدر السيارة، بينما كان زملاؤه الثلاثة يجلسون مقابله على الجانب الأيمن من السيارة، توجد في أرضية السيارة أدوات حفر يدوية مثل المعاول والفؤوس وهكذا، كان هناك ثلاثة حراس في الأمام مع السائق، واحد بجواره في المقدمة واثنان في الكرسي الخلفي، كان ينظر إلى زملائه ويبادلهم الإبتسامة، وعندما يحوّل نظره إلى الحارس يقطب حاجبيه كما يفعل، دارَ محرك السيارة وشَرَعَ الحراس بفتح البوابة الرئيسية شيئًا فشيئًا، وبدأت السيارة تتحرك إلى خارج المزرعة في طريق مماثل لنفس الطريق الرئيسي الداخلي للمزرعة، لكنهم انبهروا بالأشجار التي في الخارج التي يرونها للمرة الأولى، أشجار من مختلف الأصناف من الفاكهة، لا يفصلها عن مزرعة البروجي سوى الشوارع الرملية التي تحيط بالمزرعة التي يبلغ عرضها قرابة العشرين مترًا، ولكن ما أثار استغراب أدهم هو أن المزرعة الكبيرة

التي بالخارج ليست مُحَاطَةً بسور، لماذا هذه المنطقة بالأخص والمزرعة كلها ملك للبروجي؟!، بدأ ينقشع الليل لتتضح الرؤية أكثر فأكثر، الحارس يقلب نظره بين الأشجار خشية حدوث أي شيء مغاير لا يتوقعونه، يتحرك يمينًا ويسارًا مع اهتزاز السيارة مما جعله يفسح المجال إلى أدهم الذي ينظر إلى الحراس الذين يجلسون في الأمام، اتسعت عينيه عندما شاهد الحارس الذي يجلس خلف السائق، ابتسم وهو يقول في قرارة نفسه؛ يا إلهي إنه بيشوي!، يا للعجب كان يبحث عنه هناك وها هو يرافقه في رحلته الأولى، اطمأنَّت نفسه قليلًا وشعر بحماس بأن الأمور تبدو أسهل بكثير مما توقع، لكنه لا بد أن يتوخى الحذر جيدًا، انعطفت السيارة يمينًا مبتعدة عن الأشجار ودخلت في طريق رماله أكثر نعومة وسط صحراء وجبال عالية، قطعت السيارة بعد ذلك المسافة نفسها التي قطعتها من المزرعة، إلى أن دخلت بين الجبال واختفت تمامًا عن الأنظار، توقفت السيارة ونزل منها الحراس وبعدهم السائق ثم نزل أدهم والبقية، أمرهم الحارس الذي كان معهم أن يحملوا أدوات الحفر ثم دخلوا في باطن جبل مجوف من الداخل، به مساحة فارغة كبيرة جدًا تشبه باحة كبيرة بها بعض الأعمدة في المنتصف، نظر أدهم إلى بيشوي وابتسم فنظر له بيشوي نظرة توحي له بأن لا يتحدث له بشيء أمامهم.

صاح بهم شخص يشبه وضاح كثيرًا ويماثله في الطول لكنه نحيف الجسم، ولديه شعر طويل ولحية تميل إلى الحمرة، عرفوا بعدها بأنه سامر كبير الحراس، صاح وهو يشير بيده قائلًا:

- فليحمل كل واحد منكم فأسًا ومعولًا ويتقدم إلى ناحية الجانب الأيمن هناك.

وأشار بيده إلى منطقة عليها بعض الصخور وتوجد فيها آثار حفر قديمة، حمل كل منهم معولًا وفأسًا وتوجهوا وفق ما قال، كان الجبل من الداخل أشبه بالمظلم مما جعل أحدهم يتعثر في صخرة ويسقط أرضًا، مد أدهم يده حتى يساعده في النهوض فمد له الآخر يده بامتنان، ما أن وصلوا إلى حيثُ أمرهم كبير الحراس حتى صاح فيهم كي يتوقفوا، ثم قال أحد الحراس:

- هنا.. مكان العمل سيكون هنا، ولكن سننتظر إلى أن تشرق الشمس كي تنير المكان جيدًا، حتى تشاهدوا ما تفعلونه، وحتى ذلك الحين استريحوا .

ثم جاء حارس آخر يحمل معه خبزًا وبعض أنواع الطعام، أعطاهم إلى أدهم ثم قال:

- خذ أيها الضخم.. تناولوا وجبة الإفطار حتى تستطيعوا العمل جيدًا عندما يعم الضوء المكان.

وأشار إلى قارورة ماء وإبريق وبعض الأكواب الزجاجية ثم قال:

- وتوجد هناك أغراض للشاي، إذا أردتم اشعلوا حطبًا وأَعِدُّوه، أمامكم ساعتان تقريبًا افعلوا خلالهما ما شئتم، إلا أن تخرجوا من باطن هذا الجبل.

أعطاهم الحارس هذه الأشياء ثم ذهب إلى مدخل الجبل حيث يجلس زملاؤه، قام الشخص الذي تعثّر في الصخرة منذ دقائق وأحضَرَ أغراض الشاي ثم وضعها بينهم وقال:

- سأجمع الحطب لأعد كوبًا من الشاي.

ثم أشار إلى الإبريق والأكواب حيث تركهم الحارس، وتابع:

- فليغسل أحدكم تلك الأغراض.

فقال أحدهم:

- حسنًا سأتولى هذا الأمر.

تقدم ذلك الشاب بضع خطوات وهو يحملق في الأرض بحثًا عن قطع خشب كي يشعل النار فقال له أدهم مازحًا:

- دعني أساعدك.. حتى لا تتعثّر مجددًا.

سمع أدهم ضحكة الشاب وهو يقول:

- حسنًا أيها الضخم.. حسنًا.

اقترب منه ثم قال بصوت منخفض:

- أدهم.. اسمي أدهم.

تناول الشاب قطعة خشب من الأرض ثم التفت له وقال:

- وأنا يمان.. تشرفت بك ياصديقي.

- شكرًا لك الشرف لي.. أهذا يومك الأول هنا؟!.

- نعم.. لقد أتيت للتو.

صفن أدهم قليلًا ثم قال:

- من الواضح بأننا جميعاً أتينا للتو

- صحيح.. لعلها تكون رحلة سعيدة لنا جميعًا.

جمع أدهم مجموعة من الحطب لا بأس بها وكذلك يمان، ثم توجها إلى زمليهما فوجداهما قد انتهيا، أشعل أدهم النار بالكبريت الذي تركه الحارس ثم شرعوا في تناول الطعام، جلس يمان بجانب أدهم، يمان متوسط الطول والجسم، يتميز بعينيه السوداوين وشعره الأسود الناعم، يتميز بحسه الفكاهي وشخصيته القوية.

نظر يمان إلى زميليه اللذين يجلسان مقابله وقال وهو يشير إلى أدهم الذي يجلس بجانبه مبتسمًا:

- لقد أخبرني زميلنا أدهم بأنه أتى بالأمس، وأنا كذلك أتيت للتو، أُدعى يمان

صمت يمان هنيهة ثم تابع:

- دعونا نتعرف على بعضنا البعض، وكيف أتينا إلى هنا؟، وما السبب الذي دفعنا للمجيء والعمل في هذه الأماكن، لنقطع الوقت في الحديث معًا.. هيا يا رفاق.

بدأ الشخص الجالس مقابله مباشرة بالحديث قائلًا:

- أنا زين.. أتيت منذ يومين.. ومن حينها لم أخرج من غرفتي.

- لمَ لَمْ تخرج من غرفتك؟.

سأله الشخص الجالس بجانبه مترقبًا الإجابة، فقال له زين:

- الذي يرى كمية الحراس والأسلحة التي معهم، من الطبيعي أن يظل في غرفته يااا...

- سهيل.. اسمي سهيل، أتيت البارحة قبل الغروب بقليل .

نظر سهيل إلى زين وعلى وجهه ابتسامة خفيفة ثم تابع:

- من الواضح أنك تأخذ حذرك يا عزيزي.

ابتسم أدهم ويمان اللذان بدآ يلقيان للحديث اهتمامًا أكبر بعدما شاهدوا التغيير على وجه زين، كانت ملامح وجهه يسيطر عليها الخوف والتوتر، زين متوسط الطول وذو جسم نحيف، أصهب اللون حليق اللحية، يبدو عليه دائمًا وكأنه متوترٌ، تنهد وهو ينظر إليهم ويقول:

- ولمَ لا تسميها خوف.

قال أدهم بعدما راودته شكوكه:

- خوف!!.. من ماذا؟!.

فتابع زين بلهجة الخوف والتوتر نفسها:

- جميعنا نعلم بأننا جئنا إلى هنا ومن الممكن ألا نعود مجددًا، وجميعنا خرجنا من بيوتنا مغلوبين على أمرنا، أليس كذلك؟.

نهض سهيل ليجلب الشاي من على النار وهو يقول:

- بلى .

ثم تابع زين وكأنه بدأ يسترجع ذكريات الماضي قائلًا:

- ثلاثة أولاد وبنت وحيدة.. هذه هي أسرتنا.. أنا الأخ الأكبر.. تُوُفِّي والداي في حادث منذ عدة سنوات.. أصبحت مهمة تربية إخوتي تقع على عاتقي.. كنت أعمل في إحدى شركات صيانة الأجهزة الإلكترونية.. راتبي لم يسد إحتياجات إخوتي.. اضطررت للعمل في إحدى محلات صيانة الهواتف بعد العمل بالشركة.. كنت أخرج من المنزل في السادسة صباحًا ولا أعود قبل العاشرة ليلًا.. ذات يوم كنت عائدًا من العمل خائر القوى.. أحمل في يدي بعض أكياس الطعام والخبز.. كنت ذاهبًا إلى المنزل لإيقاظ إخوتي بعدما أُعِد لهم وجبة العشاء.. كانت تجتاحني السعادة لأنني استطعت أن أجلب لهم ما يريدون.. قبل دخولي الشارع الذي نسكن فيه لاحظت حركة غير معتادة.. هذا ليس الشارع الهادئ الذي نعهده.. وجدت أحدهم يركض.. فركضت مسرعًا خلفه.. أكياس الطعام في يدي تتأرجح يمينًا ويسارًا.. أحاول أن ألحق به كي أعرف لماذا يركض هكذا.. فيأتي آخر من خلفي يركض مسرعًا.. جميعهم يركضون إلى نهاية الشارع.. كلما ركضت تبدأ الأصوات تتضح من حولي.. ويزداد التجمهر أكثر فأكثر.. أوقفت أحد الراكضين لأسأله.. بعدما وقف وسألته ويا ليتني لم أسأله.. أخبرني بأنه يوجد حريق في منزل في نهاية الشارع.. ركضت مسرعًا لادخل بين الحشد الهائل.. أتخبط بين هذا وذاك.. وقفت فجأة والدموع تسيل من عيني.. سقطت الأكياس من يدي بعدما انهارت قواي الخائرة أكثر.. لم يعد هناك أرجل لتحملني.. سمعت أحد المحتشدين يصرخ ويقول هناك أطفال بالأعلى..صرخت بصوت دَوَّى في الأرجاء.. أَخَوَاتي.. قطعت الحشود التي أمامي.. هربت من

الأيادي التي تحاول أن تمسك بي.. ركضت صاعدًا إلى الأعلى.. لحق بي أحد الجيران.. دفعت الباب بقدمي.. دخلت مسرعًا إلى الغرفة التي ينامون فيها.. وجدتهم ممددين على الأرض.. حملت أختي وأخي الأصغر.. حمل جاري أخي الثاني.. في هذه الأثناء جاءت سيارة الإسعاف ومن خلفها الإطفاء.. ذهبنا بهم إلى المستشفى.. عندما وصلنا المستشفى كان أخي الأصغر قد فارق الحياة.. لقد مات صغيري دون سابق إنذار.. تشوهت أختي من الحريق وكذلك أخي.. وأنا أجلس لا حول لي ولا قوة.. تدمر عالمي قبل أن أتم بناءه.. قال لي الطبيب بأنه في استطاعته أن يجري لهم عمليات تجميل ستزيل هذه الحروق.. ولكنها ستكلف مبالغ باهظة.. كان اتصال البروجي لي بمثابة القشة التي يتعلق بها الغريق.. وسرعان ما وافقت على عرضه.

توقف زين لبرهة ثم أردف وهو يمسح دموعه التي تساقطت على وجنتيه:

- اعذروني يا رفاق لقد أحزنتكم دون داعٍ.

اقترب منه أدهم وربَّت على كتفه ثم قال:

- لا عليك يا صديقي.. نحن إخوة.. لا تحزن هذا تقدير الله.

بدأ الجميع يخفف عنه ويواسيه وأخذت الشمس تشرق شيئًا فشيئًا، ولكنها لم تُنِرِ الجبل من الداخل بعد، كانوا قد توقفوا عن تناول الطعام، ومن الواضح بأنهم لم يعد لديهم شهية للطعام، جمع يمان الطعام ليعيده مجددًا كما كان ثم تناول كوب الشاي وبدأ يروي حكايته ويقول:

- ذات يوم من الأيام الأولى للجامعة.. تعرفت على إحدى الفتيات ..أحببتها كثيرًا.. وهي كذلك الأمر.. ظللنا مع بعضنا البعض أربع سنوات نحب بعضنا.. وكنت صادق في ذلك.. إلى أن جاء يوم التخرج.. أتعرفون يا رفاق إحساسَ المَرْءِ حين يكون أسعدُ يومٍ في حياته هو نفسه أسوأَ يومٍ فيها.. البنت التي أحببتها كثيرًا.. كان والدها شريكًا في شركة كبيرة.. ينتظرها أن تتخرج حتى يزوجها إلى ابن صديقه الذي يمتلك نصف الشركة الآخر.. رغم أنها كانت تمانع وبشدة.. إلا أنه كان مُصِرًّا على موقفه.. بذريعة أنه يعلم مصلحتها جيدًا.. وأن ذلك الحقير الذي تحبينه لا يستطيع أن يوفر لكِ حياة كريمة.. فأخبرته بأنها تريد أن تكمل دراستها.. وبعد ذلك ستتزوج به.. بالطبع وافق.. ولكنه اشترط عليها أن يتم خطبتها.. فوافقت حتى تكسب الوقت حتى أُصْبِحَ قادرًا على مجابهة صديق والدها ماديًا.. لقد حاولت بشتى الطرق.. أقسم لكم بأنني حاولت.. لكن فقري كان قدري.. فلم تفلح أي طريقة.. رغم أنني حاولت جاهدًا.. باءت كل محاولاتي بالفشل.. وبعد عدة سنوات عندما حان موعد الزواج.. أتت إليَّ دون علمه وطلبت مني أن نهرب سويًا.. ولكن كيف لي أن أفعل ذلك؟!.. كيف أفعل وأترك خلفي والدي الذي لا يقوى على العمل؟!.. ووالدتي التي أنهكها المرض.. وأختي.. أختي التي تحملت كثيرًا وساندتني كثيرًا.. أخذتها وذهبت إلى والدها كي أرجوه مرة أخرى.. أخبرته بأنني لم أستطع أن أهرب مع ابنته خشية من أن تجلب له العار.. وخوفًا عليها وعلى أهله.. وما كان جوابه إلا أن جعل أحد أفراد الأمن يلقي بي خارج الفيلا.. حاولت كثيرًا ولم أستطع.. وعلمت أنها حاولت الإنتحار كثيرًا..

ذهبت إليها في المستشفى كي أخبرها أن تتزوج به.. فَعَلَتْ ذلك للثأر إلى كرامتي التي لم تعد موجودة من الأساس.. ولكنه قابلني بالنبرة الصارمة نفسها .. وطلب مني أن أبتعد عن ابنته وإلا.. وإلا سيؤذي عائلتي.. وغير ذلك سيلقى بي في السجن بأي تهمة ما.. أتدرون يا رفاق دائمًا ما أقول أن الثأر يكون لثلاثة أشياء.. الثأر من أجل العِرض.. والثأر من أجل الوطن.. والثأر من أجل الكرامة.. وأكاد أجزم أن ذلك أصعبهم.. فعندما تثأر للعِرض أو للوطن ترتاح.. وتشعر حينها بالفخر.. أما هذا فدائمًا ما تشعر بالخيبات عندما تتذكر ما ضيعته من حياتك.. عندما تتذكر بأنك كنت تعلم من البداية أن الموضوع لن يكتمل.. وبالفعل لم يكتمل.

مسح على وجهه وتابع:

- دخلت في مرحلة إحباط شديدة.. لدرجة أن الجميع ظن بأنني فقدت عقلي.. وهي كذلك الأمر ظنت ذلك.. فتزوجت بابن صديق والدها.. أنا لا ألومها على ذلك.. لقد فعَلَتْ كل ما بوسعها.. كنت أفكر دائمًا في كيفية الإنتقام من والدها.. ولكن كيف سأنتقم وأنا لا أملك حتى نقودًا كي أحلق لحيتي التي تجعدت من كثرة الركود.. وبعد فترة جدت رنين هاتفي ذات يوم يدق.. هذا شيء غير معهود.. لم يهاتفني أحد منذ زمن طويل.. كان البروجي.. قال لي جملة واحدة.. هل تريد الإنتقام منه؟.. إن كنت تريد ذلك فتعالَ واعمل معي.. ثم بعد ذلك رتبت أموري وأتيت.

توقف هنيهة وزفر زفرة ثم تابع:

- يا لها من قصة مثيرة.. ولكن للشفقة.. أليس كذلك يا أدهم؟

ربَّتَ أدهم على ذراعه وهو يقول:

- هَوَّنَ الله عليك ياصديقي.. لعل الله يأتيك بالخير .

نظر أدهم إلى سهيل الذي بدا متأثرًا بما قاله يمان وزين ثم قال:

- وأنت يا سهيل.. ما الذي جاء بك إلى هنا؟.

التفت لهم سهيل الذي تميز بطوله وجسمه المتناسب مع طوله، وشعره الأصفر وملامحه البرتقالية وعينيه العسليتين، نظر وهو يرسم على وجهه ابتسامة مصطنعة ثم قال:

- أنا!!.. أنا حكايتي بسيطة جدًا مقارنة بالقصص التي قالها زين ويمان.. أنا الإبن الأكبر لأبي.. أبي العقبة الوحيدة لي في هذه الحياة.. لدي ثلاثة إخوة ولد وبنتان.. كل ذنبي في الحياة أنني الأكبر.. كان والدي دائمًا يعنفني على أتفه الأسباب.. إن ذهبت لشراء أي شيء وتأخرت قليلًا يصيح بي.. وإن جلست حتى أذاكر.. يظل ينعتني بالفاشل.. لقد كان مصدرًا كبيرًا للطاقة السلبية التي لو وُزِّعَت على البلدة لأصابتها بالفشل.. كنت أذاكر خوفًا منه.. لا أفهم شيئًا.. ولكني في الوقت نفسه لا أستطيع أن أسأله عن شيء.. إن سألته فالإجابة معروفة.. لماذا لم تفهم؟.. وماذا كنت تفعل والمدرس يشرحها لك؟.. كنت أكثر طالب يجلس مع الكتب.. ولا أفهم شيئًا.. إلى أن رسبت في إحدى السنوات.. وبعد ذلك رسبت في الثانوية العامة أيضًا .. عنفني والدي كثيرًا.. كان دائمًا ينعتني بالفاشل..

كنت أنا الولد المنحرف في نظره دائمًا.. كان دائمًا يشعرني بأنني ضائع طائش.. لا يُرجى مني شيءٌ.. والذنب الذي اقترفته لكل ذلك أنني رسبت في الثانوية.. وعندما نجحت ودخلت الجامعة.. رسبت ايضًا في السنة الأولى.. ظل يقول لي بأنني لن أفلح أبدًا.. لم يكن بيدي أي شيء.. كان دائمًا يبدد ثقتي بنفسي.. كلماته كانت تسحبني عِوَضًا عن أن ترفعني.. كنت أشعر فعلًا بأنني عالة عليهم.. وذات يوم نشب شجار بيني وبينه.. بسببه طردني من المنزل.. هاتفت أحد أصدقائي لأتحدث معه.. جلست على الرصيف ترمقني نظرات المارَّة.. طلب مني صديقي أن أذهب إليه.. ذهبت فاستقبلني بترحاب.. طلب مني أن أمكث معه بضعة أيام إلى أن أدبر أموري.. بطبيعة الحال والداه غير موجودين في المنزل.. والده يعمل في الخارج في إحدى الدول العربية ويصطحب أمه معه.. كان هذا عرض لا أستطيع رفضه.. وخصوصًا أنني لن أجد من يأويني في بيته.. لذلك قبلته وبامتنان.. في يومنا الأول جلسنا وتناولنا العشاء.. نظر إليَّ فوجدني آكل بِنَهَم.. بعدما انتهيت من تناول الطعام وجدته لم يأكل إلا لقمة أو لقمتين.. وعندما سألته لماذا لا تأكل؟.. أخرج لي كيسًا صغيرًا من جيبه وقال بأنه لا يحتاج إلى طعام البطون.. كنت أنظر إليه باستغراب.. ما هذا الذي في يدك.. قال إنه غذاء الدماغ يا صديقي.. أنصحك أن تجرب.. سينفعك كثيرًا.. سيجعلك تنسى ما فعله أبوك.. بل ستنسى أباك نفسه.. إن كنت تريد ها هو.. ثم ألقاه أمامي وهو يبتسم.. رفضت أن أفعلها.. ولكن يدور في عقلي صراعي مع الحياة.. وصراخ أبي.. ونظرة الجميع لي.. فقررت أن أبتعد عن العالم..فتحت الكيس ومع أول مرة

كنت أشعر بأن العالم يدور من حولي.. ومرة تتبعها الأخرى فالأخرى.. إلى أن أصبحْتُ مدمن هيروين.. نعم يا رفاق كما سمعتم مدمن هروين.. لم يبحث عني أبي.. بل لم يشغل باله بي من الأساس.. أمي هي التي كانت تبحث عني.. كانت كل يوم تذهب إلى الجامعة وتسأل زملائي.. فأخبرها أحدهم بأنها قد تجدني عند ذلك الشخص.. جاءت أمي دون تردد.. كنت مُغَيَّبًا تمامًا عندما جاءت.. دقت جرس الباب ففتح لها.. سألته عني فأخبرها بأنني في الداخل.. دخلت بلهفة وهي تقول له أن يخبرني بأنها تريدني.. لكنه أشار إليها على الأرض.. وعندما التفتت وجدتني ممددًا فاقدًا الوعي.. لا أحرك ساكنًا.. ظلت تصرخ لكن دون جدوى.. أخبرت والدي الذي جاء بدوره يعنفني.. ثم ألقى بي في مصحة لعلاج الإدمان.. ولم أخرج منها إلا بعدما تعافيت تمامًا.. لم يقم بزيارتي ولو لمرة واحدة.. تخيل لم يتضامن معي حتى.. كان كل يوم يتولّد لدي فيه شعور بالكره تجاهه.. كان دائمًا يذكرني بهذه الأيام.. مع أنه كان يتوجب عليه أن يحتضِنَنِي.. ويَشُدَّ من أزري كي لا أعود إلى ذلك الطريق مجددًا.. مرت الأيام على هذا المنوال إلى أن هاتفني البروجي.. قلت في قرارة نفسي بأنها فرصة كي أثبت للجميع وله بأنني لست فاشلًا.. ومن ثم انطلقت في طريقي.

قال أدهم عندما انتهى سهيل من حديثه:

- ألا تَرَوْنَ بأننا جميعًا ضحيةٌ لأشياء لم نقترفها، أو لم تكن بأيدينا، والأكثر من ذلك بأننا الأبناء الأكبر لأسرنا.

صمت لبرهة ثم نظر لهم وأردف:

- ولكن ما يثير قلقي، كيف علم البروجي بكل ذلك؟!، جميعنا قصصنا مشابهة لبعضها.

قال يمان وهو ينظر لأدهم:

- وأنت يا أدهم.. ما الذي دفعك حتى تأتي إلى هنا؟.

التفت إليه أدهم وقال:

- أنا!.. سأروي لكم قصتي من البداية، من الواضح أن هناك ما دفعنا جميعًا، دفعنا لنأتي إلى هنا، كما قال زين، أتينا ونحن مغلوبون على أمرنا يا رفاق.

بدأ أدهم يقص عليهم حكايته وهم منصتون له. وفيما تقترب أشعة الشمس أكثر وأكثر من الفتحات الموجودة في قمة الجبل، يزداد معدل الضوء بالداخل فيزداد معه معدل الرؤية، وما أن انتهى أدهم من قصته حتى عَمّ الضوء داخل الجبل، كأن هناك مصابيح تتلألأ في جوف الجبل، دخل عليهم الحارس بيشوي وأخبرهم أن ينهضوا ويبدأوا بأعمال الحفر، خلع أدهم قميصه فظهرت عضلاته البارزة في الضوء وأثارت إعجاب جميع من حوله، بدأ يضرب هو وزملاؤه الأرض لتتكور على أجسامهم حبيبات العرق، الذي جعلت عضلات أدهم تلتمع أكثر فأكثر، كان زملاؤه يشعرون بأنهم في مأمنٍ بجواره نظرًا إلى حجمه الضخم، ظلوا يمزحون طوال فترة العمل، بطبيعة الحال هم يعملون بجانب بعضهم في مساحة تقارب مساحة غرفة متوسطة الحجم، ظلوا يعملون قرابة الأربع ساعات إلى أن تعامدت الشمس على الفتحات الموجودة بالجبل، فنتج عن ذلك حرارة بالغة لا يقوى بعضهم على تحملها، سمح لهم كبير الحراس أن يرتاحوا بعض الوقت، إلى أن تغرب الشمس سيعاودون

العمل مجددًا لمدة ساعة أو ساعتين ومن ثم سيعودون إلى المزرعة بحلول الليل، أسند كل واحد منهم ظهره إلى كومة من الرمل وفي يده بعض الطعام، أنْهَوْا طعامهم ثم أخلدوا إلى سبات عميق من شدة التعب ولم يستيقظوا إلَّا مَعَ حلول الليل.

****

(١٣)

جلس أحمد على الكرسي المقابل لدعاء وأمه، وجد أمه تربت على ظهر أمل التي ظهر عليها بأنها كانت منهمكة في البكاء، كانوا ينتظرون خروج الطبيب في ترقب حتى يُطَمْئِنَهم على وضع فاطمة، خرج من المستشفى متوجهًا إلى أحد المطاعم، اشترى منها شيئًا من الطعام ثم عاد مجددًا، وجدهنَّ يجلسن كما تركهن فجلس بجوار أمه وأعطاها بعض السندوتشات كي تعطيها إلى دعاء وأمل، في بادئ الأمر رفضت كلٌّ من دعاء وأمل بحجة أنهما لا تشتهيان الطعام، ولكن أحمد أصرّ أن تتناولا طعامهما، ثم انتبه إلى صوت باب الغرفة التي فيها فاطمة يُفتح، فنهض من مكانه ثم توجه مسرعًا عندما رأى الطبيب يخرج من الغرفة وبادره متلهِّفًا بالسؤال عن حالة فاطمة، كان الطبيب يحاول تغيير تعابير وجهه التي سيطر عليها الإرهاق والتوتر في الداخل، ولكن ماذا يفعل لا بد أن يخبرهم بما سيحدث، وما يمليه عليه عمله هو أن يخبرهم بأن حالتها تزداد سوءًا كلما مضى يوم، بل كلما مضت ساعة أو حتى دقيقة، أخبره الطبيب بأن عليهم الإسراع في اتخاذ قرار بشأن العملية، ولكن ليست المعضلة هنا تكمن في جرَّة قلم سيوقعها أحدهم، بل في المال الذي ستستنزفه العملية، لا يمكنها دخول غرفة العمليات إلا بعد دفع جميع تكاليف العملية، لذا عليهم أن يسرعوا في إحضار المال، لا يهم إن ذهب أحدهم للسرقة أو للإختلاس أو حتى للنصب على أحد المساكين، المهم أن يتوفر المال بأي طريقة.

أبلغه الطبيب بما يجب عليه فعله، كما أبلغه بأنه ما هو إلا فرد في المنظومة، فالمستشفى لا يسمح لفرد أن يفرض رأيه أو يتعاطف مع أحدهم، وإن فعل ذلك فبالطبع سيستغنون عنه، بدا الطبيب صادقًا في كلماته، التوتر ونظرة الحزن التي تخيم على وجهه يوحيان بذلك، شدَّ على يد أحمد وهو يغادر ويؤكد عليه بأن عليهم الإستعجال، قال له أحمد بأنه سيحاول بشتى الطرق، سيحاول... ولكن كيف سيحاول؟!.

غادر الطبيب وعاد أحمد إليهم مجددًا، يحاول إخفاء التوتر والقلق الذي يظهر على وجهه، جلس على المقعد مقابلهم ثم أخرج هاتف أدهم من جيبه وفتحه لعله يجد أي جديد، سألته دعاء التي انشغلت بأمل بخصوص ما أخبره به الطبيب، الحالة التي عليها أحمد توحي بأن هناك فاجعة ستحدث، أخبرها وهو يحاول أن يخبأ توتره بأنها بخير، ولكن طريقة كلامه المتقطعة أصابتها هي الأخرى بالقلق والتوتر أكثر، ظلت تسأله مجددًا مُدَّعِيَة بأنه يخبِّء عليها شيئًا، فبعد محاولات منها أخبرها بما قاله الطبيب، أنه كلما مر يومٌ تسوء الحالة أكثر، وأن عليهم الإسراع في إحضار المال.

ظلت تنهمر العَبَرَات على وجنتيْها مجددًا، بينما تواسيها أمل تارة وتبكي تارة أخرى، في هذه الأثناء كان أحمد يفكر في حل أمر المال، فتح هاتف أدهم مجددًا ليتفقده ولكن كلما فتحه يجد وسواس ينخر بداخله عندما ينظر فيرى أمل أمامه، كيف أرسل لأمل الرسائل التي أخبرتهم بها وهي غير موجودة على الهاتف، أو غير موجودة حتى في قائمة المحذوفات، ولماذا جاءت إلى منزل أدهم لتقول هذه الكلمات لدعاء؟، في حين أنها كانت من الممكن أن تهاتفها وتخبرها بما تريد، تبدد هذا الوسواس عندما رمق أمل

بعينيه فوجدها تبكي بجوار دعاء، أخبرهن بأنه سيذهب بعض الوقت حتى يحاول التصرف بشأن النقود، ثم هَمَّ بالذهاب في طريقه إلى الخارج.

****

استغرب أدهم عندما استيقظ ووجد الظلام يخيم في الأرجاء، فسأل بيشوي الذي كان يوقظه عن عدم إيقاظهم للعمل مجددًا، كان بيشوي يمسك بشعلة من نار في يده اليسرى، مد له اليد اليمنى ليساعده على النهوض، وأخبره بأنه لا يعلم وأن كبير الحراس هو الذي أمر بعدم إيقاظهم.

نهض أدهم وزملاؤه الذين تفاجأوا عندما وجدوا الجبل قد انسدل عليه الظلام مرة أخرى، تركوا أدوات الحفر ثم توجهوا إلى السيارة كي يعودوا إلى المزرعة، ثم يرجعون لإكمال ما بدأوه في الصباح، هذا اليوم الأول في الحفر وقد حفروا قشرة على سطح الأرض عمقها لا يتعدى الثلاثين سنتيمترًا بمساحة غرفة متوسطة، أعاقتهم الصخور التي كانت على وجه الأرض، وغير ذلك الحراس كانوا متراخين في مسألة الحفر، تركوهم يحفرون ما يحفرونه دون اعتراض أو فرض أي تعليمات، توقفت السيارة أمام بوابة المزرعة، ظل أدهم يتفقد البوابة من الخارج وارتفاعها الشاهق وكذلك السور الذي يبلغ عرضه أكثر من متر وارتفاعه يتخطى حاجز الستة أمتار من الصخور، فتحت البوابة الهائلة وها هي تحدث صريرًا كصوت القطار أو ما شابه، دخلت السيارة ثم أُغلِقت البوابة مرة أخرى، يجلس كامل ووضاح في استراحة بجانب الطريق الرئيسي ينظران إليهم بترقب وهم ينزلون من السيارة.

وقف كامل ثم قال وهو يشير إلى كبير الحراس:

- اصطحبهم إلى الساحة الصغيرة كي يتناولوا وجبة العشاء، ثم اصرفهم إلى غرفهم.

فأومأ سامر برأسه وهو يلتفت إليهم، ثم ذهب بهم إلى الساحة الصغيرة وهو مكان في وسط المزرعة، مجموعة من أشجار الزينة المتراصة بجوار بعضها، لا يوجد لها سقف يفصلها عن ضوء السماء ولا يوجد فيها أعمدة إنارة، ضوء القمر وحده يتكفَّلُ بهذه المهمة، كل من يجلس في هذه الساحة يخرج منها صافي الذهن، لجمال منظرها الذي يشعرك بالأمان، فغالبًا ما تجد الطمأنينة والهدوء بين أوراق الشجر وليس الصخور الكبيرة، يوجد بها عدة مقاعد خشبية كبيرة، جلسوا عليها ثم قدم أحد الحراس لهم الطعام ومن ثم شرعوا في تناوله، كانت المعاملة حتى ذلك الحين معاملة حسنة، ولكن هناك ما يشغل تفكير أدهم ألا وهو أمه وأخته وجميع أحبته، أراد سهيل أن يتكلم ولكن أشار له يمان بعدم التحدث، هناك أحد خارج هذه الأشجار يستمع لما يقولونه، شعر به يمان عندما دهس على أحد أغصان الشجر والأوراق التي أحدثت صوتًا ثم توقف فجأة، حينها غَيَّرَ أدهم مجرى الحديث وبدأ يتحدث عن الأمنيات والطموح، إلى أن دخل عليهم كبير الحراس ومعه أربعة حراس أمر كل حارس أن يصطحب واحدًا منهم ويعيده إلى غرفته، كان بيشوي من بين هؤلاء الحراس، وبالفعل اصطحب بيشوي أدهم وتوجه به إلى غرفته، وصلا إلى الغرفة ثم فتح بيشوي الباب ودخل أدهم.

وقف أدهم في الداخل بينما بيشوي في الخارج يتظاهر بأنه يغلق الباب، فقال له أدهم:

- ماذا بك؟؟!.

- لا شيء.. لا يوجد شيء.

- ألن أراك اليوم؟؟!.

- إن سنحت الفرصة سآتي لك.. الآن إغلق الباب .

ثم أغلق أدهم الباب وذهب بيشوي، بدأ أدهم في خلع ملابسه ثم توجه إلى الحمام حتى يستحم، وفي هذه الأثناء وضع إبريق الشاي على النار، خرج من الحمام ثم أعدّ كوب الشاي وجلس على السرير يحملق في السقف، وضع كوب الشاي على الطاولة المجاورة إلى السرير وجلب كوب الماء وبدأ يخلق لنفسه جوًا شاعريًا بنثر الماء على الأرض الترابية، ثم استلقى مجددًا على السرير لقد أنهكه العمل في الحفر، لذا غلبه النعاس إلى أن فزع على صراخ أحد في الخارج.

****

كان الليل قد أرخى سدوله عندما خرج أحمد من بوابة المستشفى، استقل سيارة أجرة نقلته إلى منزل عاصم، هو لا يعرف أحدًا غيره يستطيع أن يقترض منه هذا المبلغ، ولكن كيف سيطلب منه وهم مدينون له بمبلغ إن ظل أدهم يعمل عامًا كاملًا لن يستطيع سداده، مَرَّ في خاطره وهو يقف على بوابة الفيلا خاصته أنه لا بد أن يدبر المال حتى ولو تذلل له، لا بد أن يحافظ على الأمانة التي استودعها صديقه لديه، بيد أنه لا يستطيع خذلان أدهم.

دق الجرس عدة مرات وظل يضرب على البوابة بيده لكنه لم يجد ردًّا من الداخل، أخرج هاتفه وحاول الإتصال بعاصم لكن دون جدوى، إلى أن سمع صوتًا خلف البوابة يصيح قائلًا:

- إصبر .. إصبر .. ستحطم البوابة.

كان حازم هو الذي يجيب على الطرف الآخر، تعجب عندما وجد أحمد هو الطارق حيث قال:

- أحمد!.. هل حدث شيء؟!.. ما هذه الحالة؟.

رد أحمد بلهفة وهو يدخل من البوابة:

- أين عاصم؟!.. ستموت والدة أدهم إن لم تُجْرِ العملية في أقرب وقت، والمستشفى لن تجري العملية دون نقود.

ثم أمسك يد حازم وشدّ عليها متوسلًا متابعًا:

- حازم.. صديقي، أنت تستطيع إقناع عاصم بذلك، أرجوك.

قال حازم وهو يسحب يده من بين يديه:

- وما دخلي بهذا الموضوع!.. أنت تعلم جيدًا، لم يسدد أدهم دينه القديم بعد، هل تظن أن عاصم سيعطيك مرة أخرى؟!.

- أين هو؟.. هل هو بالداخل؟.

- نعم في الداخل.

توجه حازم بصحبته إلى الداخل بعدما أغلق الباب خلفه، كان عاصم يجلس أمام التلفاز، أخفض الصوت قليلًا عند دخولهما، قال له أحمد بلهجة توسل وإلحاح:

- عاصم.. أرجوك يا صديقي، لا تردّني خالي الوفاض.

قال له في تعجب:

- أحمد!!.. ماذا بك؟!.

- والدة أدهم، والدة أدهم إن لم تُجْرِ العملية في أسرع وقت ستموت، أرجوك يا صديقي.

عدَّل عاصم من جلسته واتَّكأ على كرسيه وهو يقول:

- وما عساي أن أفعل يا أحمد؟!.

- المستشفى لن تجري العملية إلا إذا توفرت النقود، أريد أن تقرضني بعض المال، وسأرده لك فور رجوع أدهم.

ضحك عاصم محدثًا قهقهة ثم قال بتهكم:

- فور رجوع أدهم!، تقول فور رجوع أدهم، وأين هو أدهم؟!، كيف له أن يترك أمه في هذا الوضع ويذهب؟.

صمت لبرهة كي يشعل سيجارته ثم تابع بعدها قائلًا وهو ينفث دخانه إلى أعلى:

- لم يسدد أدهم دينه بعد، فكيف لي أن أعطيك وأنا أعلم بأنك لن تستطيع السداد، وهل سيعود فعلًا؟!، معذرة لا أستطيع، ليس معي نقود.

اقترب منه أحمد وقال له بإلحاح متوسلًا:

- أرجوك يا عاصم، ستموت إن لم تُجْرِ العملية أرجوك.

تنهد عاصم وهو يطفىء سيجارته ثم وقف وشبّك يده خلف ظهره ومن ثَم ظل يذرع الأرض جيئة وذهابًا، ينظر إليه أحمد في ترقب ليسمع كلمته الأخيرة، بينما حازم يجلس في تلذذٍ وكأنه يستمتع بالمشهد.

توقف عاصم بعدما حسم قراره الأخير ثم قال:

- سيبيع المزارعون المحصول خلال بضعة أيام، عندما يأتوني بالمال.. سأذهب إلى المستشفى وأعطيهم تكاليف العملية، لا أقدر أن أقدم أكثر من ذلك.

انفرجت أسارير أحمد ثم وقف حتى يصافحه ويعبر له عن شكره وامتنانه قائلًا:

- لن أنسى لك معروفك هذا يا صديقي.. شكرًا لك.

ثم استأذن وهَمّ بالخروج لكنه توقف عندما سمع عاصم يقول:

- لقد فعلت المرة السابقة كُرمة لك، وهذه المرة كُرمة للأيام الخوالي.

قال له وهو يفتح الباب لينصرف:

- كنت أعلم بأنك لن تخذلني يا صديقي.

*****

فَزِعَ أدهم من نومه على صوت صراخ مكتوم يُدَوِّي في الخارج، نزل من على السرير مسرعًا ثم اقترب من الباب وحاول فتحه لكن دون جدوى، لقد أغلق الحارس الباب من الخارج كما أمر كبير الحراس، تحسس الحائط ووضع أذنه عليه.. ما زال الصراخ موجودًا، انتبه إلى نافذة الغرفة فتوجه إليها، حاول التشبث بحديد النافذة فلم يستطع الوصول نظرًا لارتفاعها، حرك السرير ناحية النافذة حتى يساعده على الوصول ثم وقف عليه، وضح الصراخ شيئًا فشيئًا، واضح من خشونة الصوت بأنه شاب وما زال في مقتبل العمر، الصوت قادم من القسم الآخر من المزرعة، بجانب الجدار الأوسط تمامًا، ظل يتنصت على الصراخ إلى أن سمع صوت خبط عالٍ يوحي بأن أحد ما يدفع بابًا حديديًّا، ومن ثم سمع صوت متراس يغلق وانتهى معه الصراخ، ظل يذرع الغرفة جيئَةً وذهابًا يفكر في ذلك الصوت، أغلق المتراس الداخلي للباب ثم جلس على السرير وظل يفكر إلى أن غلبه النعاس .

استيقظ على صوت طَرق على الباب، نهض وهو يفرك عينيه بيده ثم نظر إلى النافذة فوجد الظلام ما زال يكسو المكان من حوله، فتح الباب فوجده بيشوي.

فَرِح أدهم وتعجب في الوقت نفسه قائلًا:

- بيشوي!.. هل حان الذهاب إلى العمل؟!.

قال بيشوي وهو يزيح الباب بيده حتى يفسح إلى نفسه مجالًا للدخول:

- لا.. لم يَحِنْ بعد، متبقي ساعة تقريبًا، لكن كبير الحراس كلفني أن أوقظكم اليوم ثم خرج حتى يتفقد الأحوال في

الخارج مع بعض الحراس، وتوليت أنا الوضع إلى أن يعود، فوجدت قدمي تسير بي إلى هنا.

ابتسم أدهم وهو يفسح له المجال قائلًا:

- تفضل يا صديقي.. تفضل، سأعدّ لنا كوبين من الشاي.

سكت قليلًا مفكرًا ثم تابع:

- كنت أريد أن أسألك عن شيء.

- تسألني عن ماذا؟!.

كانت تظهر على بيشوي دائمًا ملامح الحزن والحسرة، وكأنه يحمل على عاتقه همومًا كالجبال، شعر بالإطمئنان تجاه أدهم، الإطمئنان الذي لم يشعر به من قبل تجاه أحد، مما جعله يأتي إليه دون سابق إنذار، وأدهم كذلك الأمر شعر بأنه مختلف تمامًا عن بقية الحراس الموجودين في المزرعة، كان يشعر بأن هناك شيء وراء هذا الحزن الذي يملأ عينيه.

انتهى أدهم من إعداد الشاي ثم قدمه إلى بيشوي وجلس بجواره على السرير وبادر بالحديث قائلًا:

- أخبرني أولًا.. ماذا بك؟!، لِمَ يخيم عليك الحزن هكذا؟.

وضع بيشوي كوب الشاي من يده على الطاولة الصغيرة التي بجانبه ثم قال وهو يلتفت إلى أدهم:

- لا شيء.. وأي حزن هذا الذي تتحدث عنه؟!.

- واضح على وجهك بأن هناك شيء يحزنك.

حدَّق إليه أدهم ثم تابع:

- سأستمع إليك إن أردت أن تتحدث، أشعر بأنك مختلف عن أولئك الأشخاص كثيرًا يا بيشوي، لا أجد فيك الغلظة التي أراها بهم، أنت مختلف .

ابتسم بيشوي ابتسامة سقيمة ثم قال:

- مختلف!!.. كيف هذا؟!، كيف تقول ذلك وأنت لا تعلم عني شيئًا؟!.

- أخبرني إذًا.. أعلم بأنك تريد أن تتحدث، يوجد في داخلك الكثير والكثير لتبوح به، يظهر هذا في عينيك، يظهر هذا في انكسارك.

رجع بيشوي إلى الخلف ليستند بظهره إلى الحائط محاولًا تغيير مجرى الحديث قائلًا:

- كنت تريد أن تسألني عن شيء.. ما هو؟!.

اقترب منه أدهم وخفض صوته ثم قال:

- بالأمس سمعت صوت صراخ يأتي من الجانب الآخر من المزرعة، ما هذا الصراخ؟.

- صراخ!.. عن أي صراخ تتحدث؟!، لست أدري!، لقد أخبرنا البروجي بأن القسم الثاني من المزرعة لا يوجد فيه سوى الغرف التي ينامون فيها فقط.

رد أدهم مستغربًا:

- كان صوت شاب تقريبًا، وكان مكتومًا، وانتهى الصراخ بفتح باب حديدي ثم إغلاقه.

سكت لبرهة ثم عاد ليسأله:

- ماذا يوجد في القسم الآخر للمزرعة؟.

- لا أعلم!!.. لم أدخل إلى الداخل سوى بضع مرات فقط، غير ذلك ما زلت حديثًا هنا مقارنة بغيري، لا أعلم.. ولا تتحدث مع أحد في هذا الموضوع.

استطرد أدهم الحديث قائلًا:

- ألا تريد أن تخبرني ما بك بعد؟.. أو أنك لا تثق بي؟!.

نظر له بيشوي دون أن ينطق بكلمة واحدة فأردف أدهم قائلًا:

- دعني أخبرك ما الذي جاء بي إلى هنا، لعلك تطمئن وتبوح بما يثقل على قلبك، ما زال أمامنا متسع من الوقت، أليس كذلك؟.

أومأ بيشوي برأسه فبدأ الآخر يروي له ما جاء به إلى هنا، كان ينصت له بإمعان فشعر أدهم بأنه مهتم لسماعه، كان يحكي بكل عفوية وكأنه أحد أصدقائه، يتأثر بيشوي عندما يلزم الأمر وكذلك يندهش ويتعجب عندما يلزم الأمر، ظل يقص عليه إلى أن دقت صافرةُ الإنذار في الخارج معلنة وقت الاستيقاظ، خرج بيشوي وأخذ أدهم معه بعدما أغلقوا الباب جيدًا، ثم أخبره أن يذهب وينتظره عند البوابة الرئيسية، وتوجه كي يحضر باقي زملائه حتى ينطلقوا في رحلتهم، تجمعوا جميعًا بالقرب من البوابة، في هذه

الأثناء كان سامر كبير الحراس يدخل بالسيارة من البوابة، وركبوا بها ثم سارت بهم نحو الجبل الذي كانوا يعملون فيه.

*****

استيقظت دعاء تتحسس ظهرها الذي تملك منه الألم بسبب النوم على الكرسي، وجدت ثريا تنام على الكرسي الآخر في الجهة الأخرى للسرير، وأمها تنام على السرير بينهما دون حَرَاك، أمسكت برأسها فوجدت الألم الذي كان بها في الأمس بدأ يقل تدريجيًا، كانت تشعر بصداعٍ في رأسها بعدما رحلت أمل بحجة أن والدتها ستقلق عليها كثيرًا، أَسندت دعاء يدها إلى السرير ووضعت رأسها عليه ثم غلبها النعاس، استيقظت على صوت الممرضة التي جاءت حتى تعلق لأمها الدواء، الشمس تغمر الغرفة معلنةً عن بداية يوم جديد، خرجت من الغرفة إلى الممر الخارجي كي تستنشق بعض الهواء وتستجمع قواها، وجدت أحمد نائمًا على الكرسي في الخارج ذهبت وأيقظته.

جلست إلى جواره ثم قالت وهي تنظر إليه في ريبة وتفرك أصابعها ببعضها البعض:

- أين ذهبت بالأمس؟!.. لماذا لم تخبرنا عن وجهتك؟.

قال وهو يمسح على جبينه بعدما استفاق من غفوته:

- ذهبت لأدبر طريقة من أجل الحصول على المال.

تغيرت ملامح وجهها عند شعورها بأن هناك بصيص أمل، حيث قالت بلهفة:

- ها.. وهل وجدت طريقة؟.

- نعم.. لكن بعد عدة أيام.

- كيف؟.

- قال لي عندما يبيع المزارعون المحصول سيأتي ويدفع تكاليف العملية.

- مَنْ ذلك يا احمد؟!،

رجع برأسه إلى الوراء ثم قال:

- لا تشغلي بالك بهذا الموضوع، المهم أنني استطعت أن أجد طريقة.

ساد الصمت للحظات إلى أن كسرته دعاء قائلة:

- أتدري.. لقد قلقت أن لا نستطيع تدبير ذلك المال، خشيت أن يحدث شيء لأمي، خاصة في غياب أدهم، لقد قلقت جدًا، ولكن كان يتبدد قلقي عندما تأتي في مخيلتي، وأتذكر وجودك بجانبنا.

فقال وهو يحدِّق إليها:

- لقد قلقت عليكِ بالأمس، خِفت أن يحدث لكِ شيء، عندما ذهبت كنتِ منهمكة في البكاء، لذلك قطعت وعدًا على نفسي بألا أعود دون أن أدبر المال .

احمرَّ وجهها من الخجل، فهي لم تعهد هذه الكلمات من أحمد، هي دائمًا تضعه في مكانة أخيها وهو كذلك، لكنها لم تعهد هذه اللهجة التي يتحدث بها، على كلٍ لقد أسعدها بخبر أنه دبر أمر

النقود، وكذلك أبهج قلبها في هذا الوضع الصعب بكلماته وطمأنها بأن هناك من يعبأ بأمرها، حاولت أن تخبىء خجلها وعادت لتقول:

- لقد خشيت أن يحدث لك شيء عندما خرجت هكذا في الليل، لقد كنت شارد الذهن.

رد قائلًا بعدما لاحت على شفتيه شبه ابتسامة:

- الحمد لله.. لم يحدث شيء، سأدخل لأطمئن على والدتك.

نهض ثم توجه إلى الغرفة حيث وجد أمه قد استيقظت هي الأخرى، جلس بجوارها ليطمئنها ثم دخلت عليهم دعاء ومن خلفها أمل التي جاءت لِتَوِّهَا، عندما رآها أحمد تذكر أمر الرسالة التي أخبرتهم أن أدهم أرسلها لها فغلبه الفضول ليسألها قائلًا:

- أمل.. كيف أرسل إليكِ أدهم الرسالة التي أخبرك بها؟.

ارتبكت أمل عندما وجدتهم ينظرون إليها، حاولت أن تخفي توترها خلف ابتسامة صفراء، وتحدثت حيث قالت:

- لقد أرسل لي رسالة نصية، لماذا؟.

ثم قال وهو يُخْرِجُ هاتف أدهم من جيبه:

- لقد ترك أدهم هاتفه هنا، تفقدت الهاتف لعلني أجد شيئًا يصلني به فلم أجد، وكذلك تفقدت الرسائل وخلافه، لكني لم أجد أنه أرسل أي رسالة، هل أنتِ متأكدة أن أدهم هو الذي أرسلها لكِ.

زاد ارتباكها عندما شاهدت الهاتف بحوزته، صمتت هنيهة كي تحاول السيطرة على ارتباكها ثم قالت:

- لا.. كانت من رقم آخر غير رقمه، عندما جاء إليَّ كان معه هاتف آخر صغير، أظن أنه أرسلها منه.

صمتت لبرهة ثم أردفت:

- هو يعلم إن أرسلها على الواتساب أو الماسنجر سأشاهدها على الفور، ومن ثَم سأهاتفه، ولو حتّم الأمر سآتي له على المنزل، وسيعلم الجميع بأنه ينوي الذهاب، ولكن عندما تكون نصية من رقم غريب، فلن أهتم ولن أقرأها إلا في الصباح، هذا إن لم أكن قد قرأتها من الأساس.

قَلَّبَت النظر بينهم سريعًا ثم بادرت بالإجابة على سؤال توقعت أن يسأله قائلة:

- وعندما فتحت الرسالة وقرأتها حاولت أن أحفظ الرقم كي أتصل به، ولكني حذفته بالخطأ.

قالت دعاء ببلاهة:

- صحيح.. لأجل ذلك كان يسألني عن شريحة الهاتف القديمة الخاصة بأمي.

تبددت شكوك أحمد تمامًا حول أمل، هو كان يشك بأنها هي التي دفعته إلى الذهاب من أجل مطامعها وليس شيء آخر، ولكن بات كلامها مقنعًا وتأكيد دعاء أثبت ذلك.

*****

ذهب أدهم برفقة زملائه إلى الجبل حتى يتابعوا عمل الحفر، في هذا اليوم لم يذهب بيشوي معهم، وعندما وصلوا إلى الجبل جلسوا ليتناولوا وجبة الإفطار ثم ينتظرون إلى أن تشرق الشمس، قص عليهم أدهم ما حدث ليلة أمس وما سمعه من صراخ وخلافه، وأخبرهم بأن الصراخ جاء من القسم الآخر للمزرعة، قال له يمان:

- قد يكون بعض الحراس يتشاجرون مع بعضهم.

وكزه سهيل وهو يبتسم قائلًا:

- لا تشغل بالك يا صديقي.. هناك مالٌ وفير في انتظارنا عندما نخرج الذهب.

سطعت الشمس وعلى أثرها جاء إليهم أحد الحراس يأمرهم بأن ينهضوا ويبدأوا في الحفر، ظلوا يحفرون إلى أن أنهكهم التعب، فأذن لهم كبير الحراس بالراحة إلى أن يحل المساء، ناموا جميعًا بعدما خارت قواهم فاليوم تعمقوا في الحفر، حتى وصل حفرهم إلى عمق مترٍ واحدٍ تقريبًا، ما أن خَيَّمَ الظَّلامُ؛ حتى أيقظهم الحارس ثم توجهوا إلى المزرعة، ومن ثَم إلى الساحة لتناول العشاء ثم إلى غرفهم.

في هذا اليوم لم يرَ أدهم بيشوي، كان ينتظره أن يأتي ولكنه كان انتظارًا دون جدوى، دخل الحمام واغتسل ثم بدل ملابسه وأعد كوبًا من القهوة كي يساعده على الإنتباه لعل بيشوي يأتي بعد قليل، مر الوقت ولم يأتِ فتمدد على السرير وظل يحملق في السقف الخرساني ويحدّق في الإنبعاجات التي فيه، بدأ يغلبه النعاس لكنه فزع مجددًا على صوت قادم من الخارج، الصراخ المكتوم نفسه

الذي سمعه بالأمس وفي التوقيت نفسه، لكن يختلف في شيء واحد فقط.. أنه أنثوي.

*****

عند الساعة الواحدة بعد منتصف الليل استيقظت أمل على صوت إشعارٍ جاء إلى هاتفها، مسكت الهاتف بغير اكتراث ثم فتحته، كانت الرؤية مشوشة، ولكن عندما انتبهت إلى المرسل نهضت مسرعة وعدّلت من جلستها كي تتمكن من مراسلته.

كانت الرسالة كالتالي:

- معذرة.. لم أستطع أن أردّ عليكِ، كنت أجلس مع مجموعة من الناس، لقد وصلت المنزل للتو، هيا أخبريني.. ماذا حدث؟.

بدأت بالكتابة وهي ممتعضة:

- ألم أقُل لك.. ألم أقُل بأنه قد يفتضح أمري.

- لماذا؟!.. ماذا حدث؟.

- لقد ترك أدهم هاتفه مع أحمد.

- وما المشكلة في ذلك؟.

- لِمَ لم تخبرني بذلك مسبقًا؟.

- معذرة لم أتذكر.. هيا أخبريني.

- ألم تقل لي أن أخبرهم بأن أدهم ترك لي رسالة بأنه سيذهب، ومن ثم أفتعل مشكلة ثم أغادر لأنه لم يُعْطِ لرأيي أي أهتمام.

- أجل.. وماذا فعلتِ؟.

- لقد أخبرتهم كما قُلت بالضبط، وقبل أن أفتعل المشكلة كانت أمه تجلس معهم وعندما سمعت كلماتي سقطت أرضًا على إِثرها.

- وبعد ذلك.. ماذا حدث؟.

- ذهبت خلفهم إلى المستشفى، ظللت أبكي حتى أستعطفهم، وبالفعل استعطفتهم بحجة أنني لم أكن أعلم بأن أمها تجلس برفقتهم.

- وصدقوكِ.. أليس كذلك؟.

- بالطبع.. أتدري.. من السهل جدًا أن تستعطف أُناس يتعاملون بقلوبهم لا بعقولهم.

- ولكن من الواضح أن أحمد لم تنطلِ عليه الحكاية.

- كيف؟!.

- ظل يسألني كثيرًا، سألني عن كيفية إرسال أدهم الرسالة لي وهكذا، وأخرج الهاتف وأخبرني بأنه لا يوجد عليه رسائل وما شابه.

- وماذا قلتِ له.

- تجمد الدم في عروقي عندما شاهدت الهاتف، بعدما فكرت أخبرته بأنه أرسلها لي من رقم غريب، رسالة نصية، وقبل أن يسألني عليها أخبرته بأنني بينما كنت أحاول الإتصال على الرقم قمت بحذفه مع الرسالة.

- وهل انطلت عليه؟!.

- في البداية لم يقتنع تمامًا، لكني أخبرته بأن أدهم عندما جاء لي آخر مرة، كان معه هاتف صغير، واقتنع تمامًا عندما أَكَّدَتْ دعاء على كلامي.

- أكدَتْ على كلامك!.. كيف؟.

- قالت بأن أدهم كان يسأل عن الشريحة القديمة الخاصة بأمها.

- وأين هذا الهاتف الآن؟.

- لا بد أنه تركه في المنزل.

- هناك شيء غريب في أحمد، عنده ثقة كبيرة بأن أدهم سيعود.

- كيف يعود وهو قد ذهب في طريق اللاعودة؟!.

- لهذا السبب أريدكِ أن تتقربي منهم أكثر، حتى إذا حدث شيء مغاير يكون لدينا علم.

- حسنًا.. وهو كذلك.

انتهت المحادثة ثم أغلقت أمل هاتفها وظلت تفكر فيما ستفعله!، وكيف ستعلم بخطة العودة التي رسمها؟!، ظلت تفكر إلى أن غلبها النعاس مجددًا.

*****

ظل أدهم في حيرة طوال الليل بسبب الأصوات التي يسمعها في القسم الآخر للمزرعة، كان دائمًا ما يجول بخاطره بأن هناك شيء خاطئ يحدث، في الصباح الباكر ذهب إلى الجبل حتى يتابع الحفر برفقة زملائه، أخبرهم بما سمعه وأن هذه المرة الصوت مؤنث وليس مذكر، اندهش زملاؤه وبدأ يمان يحك رأسه مفكرًا ثم قال:

- من الممكن أن يكون وضاح أو أخوه أو حرَّاسه يمارسون الرذيلة مع إحداهن.

قال سهيل الذي بدا له كلمات يمان منطقية:

- هذا شيء وارد.

ثم تابع زين بدوره:

- وإلا لما كانوا جعلوا غرفهم في منطقة مستقلة.

فقال أدهم بعدما فكر مليًا:

- هذا وارد.. جميع ما قلتموه وارد، ولكن ماذا عن صراخ الشاب أول أمس؟!، هناك شيء ما يحدث في القسم الآخر من المزرعة، وسأعرف ماهو.

كان التفكير ينخر بداخله، ما هذا الصوت الذي يسمعه كل يوم؟!، وفي التوقيت نفسه، غرق في التفكير إلى أن جاء الحارس وجعلهم يبدأون في العمل الذي لا نهاية له، ولكن هناك شيء جعلهم يفكرون في هذا الوضع الذي بدا مثيرًا للقلق، يحفرون من عدة أيام ولكن كل حفرهم كان في أرضٍ رملية، كانت الصخور على القشرة السطحية فقط، وأيضاً هناك ما جعلهم يتهامسون فيما بينهم أكثر، وهو كيف يحفرون دون جهاز الكشف عن المعادن، عندما سألوا كبير الحراس أخبرهم بأنهم يأتون ليلًا، وأن الدليل الذي معهم أخبرهم أن يحفروا قرابة المترين حتى يتمكنوا من الكشف جيدًا، بات الأمر مقنعًا بعض الشيء وواصلوا العمل على هذا المنوال، كلما تعمقوا في الأرض كلما قلت المساحة التي يحفرونها نظرًا لزيادة المجهود.

عندما رجعوا إلى المزرعة ودخلوا إلى غرفهم ظل أدهم مستيقظًا حتى يرى هل سيسمع ذلك الصراخ مجددًا.. أم لا، ظل يذرع الغرفة جيئة وذهابًا حتى لا يغلبه النعاس، ومن ثَمَّ سمع صرخات مكتومة وكأن على فم صاحبها غطاء كي لا يفتضح الأمر، ولكن اليوم لم تكن صرخة واحدة بل صرخات، بات الوضع بالنسبة إلى أدهم جدّيًّا بأنه لا بد أن يكشف ذلك السر الذي أصبح مريبًا جدًا، ذهب في الصباح إلى الجبل ومن ثَمَّ أخبر زملاءَه بما حدث.

مرت ثلاثة أيام على هذا الوضع وكلما أخبر بيشوي كان يخبره بأن لا يصغي إلى تلك الأصوات وأن يتابع عمله دون إحداث مشكلة، حتى لا يتسبب لنفسه بأي ضرر، يئِس أدهم من إخبار بيشوي بما يحدث، هو يخبره لأنه يشعر فعلًا بأنه مختلف تمامًا عن الموجودين في المزرعة، لكن الآخر كان يفضل الصمت، وهذا ما

جعل أدهم يشعر بأنه يخفي أشياء كثيرة جدًا وراء صمته وحزنه الدائمين.

*****

مرت عدة أيام والحالة الصحية لفاطمة تزداد سوءًا، كان الطبيب ينتظر النقود من أحمد، وأحمد ينتظر عاصم ليجلب منه النقود، وعاصم ينتظر المزارعين، أي معضلة هذه التي هم فيها الآن، معضلة كبيرة جدًا وضحيتها فاطمة التي تصارع المرض وربما بعد ساعات قد تصارع الموت أيضًا، وكأن في قدرها أن تصارع فقط وكأن في قدرها أيضًا أن تستسلم للخصم العنيد، كلما اتصل أحمد بعاصم أخبره بأن المزارعين لم يحصدوا المحصول بعد، أي معضلة تلك التي تكون حياة أحدهم متوقفة على حصاد حبيبات القمح.

جاءت أمل إلى المستشفى حتى تكون برفقة دعاء، في هذه الأثناء ذهب أحمد برفقة والدته إلى المنزل كي يبدلان ثيابهما، وتعدُّ أمه بعض الطعام ليأخذاه إلى دعاء.

دخلت أمل على دعاء فوجدتها تجلس بجوار أمها النائمة كالعادة، جلست بجوارها بعدما احتضنتها وظلت تتحدث معها، وبينما هي تتحدث معها ظلت تتثاوب مما جعل دعاء تسأل:

- ألمْ تَنَمِي جيداً بالأمس؟.

بدأت أمل تصطنع نبرة حزينة، وتشكل ملامح وجهها لتتماشى مع لهجتها التي تجعل من يشاهدها للوهلة الأولى يبكي، فقالت:

- ومَن يؤنسه النوم وهو في هذا الوضع يا عزيزتي.

- سيتحسن الوضع يا أمل إن شاء الله.

بدأت أمل تدخل في نوبة بكاء، ليس البكاء الذي نعرفه، بل البكاء المصطنع الذي تفعله التماسيح، قالت وهي تمسح وجنتيها:

- يا ليت.. أنا أدعو الله كل يوم أن تعود الأيام الخوالي.

ضمتها دعاء مبتسمة ثم قالت:

- ستعود.. أقسم لك بأنها ستعود.

أبعدت أمل رأسها لتكون هناك مسافة بينها وبين دعاء، حتى تتمكن من تبادل الحديث معها ثم رسمت على وجهها ابتسامتها المصطنعة وتملكتها علامات الدهشة قائلة:

- دعاء.. هل أنتِ جادة؟!، أرى أن السهر قد أثر عليكِ.

- نعم .. أنا جادة ولم يؤثر عليَّ السهر ولا شيء.

بدت علامات الحيرة والاستغراب يسيطران على وجهها أكثر، بعدما سمعت هذه الجملة مرة أخرى، فعادت لتسأل مرة أخرى:

- إذن كيف ستعود؟!.

ردت دعاء:

- لقد دبر أحمد المال من أحد الأشخاص، في غضون أيام قليلة ستجري أمي العملية، وسنذهب من هنا قريبًا.

احتضنتها أمل بفرحة كبيرة، وأخذت تصيح وتهلل كأنها طفل صغير، من يشاهد تصرفاتها لا يصدق ما تخفيه في جوفها، ولا

يخطر أبدًا في باله بأن هذه ما هي إلا أفعى سامة، تنفث سُمَّهَا في الظلام الحالك لتلدغ كل من تسلط عليه نظرها، وسرعان ما تحولت ملامحها وقطبت وجهها وعادت تقول بلهجتها الحزينة مجددًا:

- ولكن أدهم!.

ثم صمتت لبرهة وتابعت:

- ماذا عن أدهم؟، هو لم يَعُدْ بعد، ولا نعرف عنه شيئًا.

أمسكت بيد دعاء وشدت عليها، ونظرت إليها فيما تكونت العبرات في عينيها التي تشبه عين الأفعى، وتابعت بعدما اغرورقت عيناها وبدأت الدموع تتساقط على وجنتيها:

- ولا نعرف إن كان سيعود.. أم لا.

شدت دعاء على يدها وقالت مبتسمة:

- سيعود.. ألم أقل لكِ ستعود الأيام الخوالي مجددًا.

مسحت دموع التماسيح خاصتها وبدأت تتفتح وجنتاها وتشرق ابتسامتها الصفراوية السامة ثم قالت مسرعة:

- كيف؟!.. أخبريني يا دعاء.. هيا أخبريني.

ابتسمت الساذجة وقالت لها:

- وهل تعتقدين أن أدهم سيذهب إلى مكانٍ كهذا دون أن يؤمن نفسه جيدًا يا عزيزتي؟.

زادت حيرتها أكثر وأكثر فتابعت دعاء:

- لقد وضع أدهم خطة جيدة حتى إذا حدثت أشياءٌ مغايرة يستطيع العودة مجددًا.

بدت على وجهها ملامح الدهشة والتعجب أكثر، فقالت مسرعة:

- كيف ذلك؟!.. تابعي يا دعاء لا تتركيني عالقة.

فتابعت دعاء قائلة:

- لقد أخذ أدهم ساعة بها جهاز تتبع، هذه الساعة مغلقة الآن، ولكن ما أن يعيد تشغيلها سيعلم أحمد بمكانه فورًا، وحينها سيبلغ الشرطة.

قالت أمل في تلعثم وكأنها ابتلعت لسانها:

- كيف!.. كيف هذا؟!، لم يخبرني أدهم بذلك، كيف حدث ذلك؟!، ومتى حدث؟!.

قالت وهي تبتسم:

- ألم أقل لكِ بأن أدهم وضع خطة للعودة قبل الذهاب، هو لم يخبرنا بشيء، ترك رسالة إلى أحمد على الهاتف تفيد بكل شيء قبل أن يذهب، قال أنه قام بتوصيلها على الهاتف الخاص به، وعندما يكون في خطر سيقوم بتشغيلها.

قالت أمل التي لم تَعُدْ قادرة على إخفاء ارتباكها وتوترها:

- وجهاز التتبع هذا.. أين يضعه؟.

- لم يقل شيئًا عن هذا الموضوع، علاوة على ذلك هو لم يعرف المكان هناك جيدًا حتى يخبرنا.

نظرت دعاء إليها ثم تابعت وهي تبتسم:

- ولكن مَن يفكر في ذلك كله يا عزيزتي لم يصعُب عليه إخفاء ذلك الجهاز الذي لا يبلغ عقلة الإصبع، وأنتِ تعرفين أدهم جيدًا، إنه بارع في ذلك.

صمتت أمل لبرهة وكأن أحد ما ضربها بمطرقة على رأسها، ثم عادت لترسم ابتسامتها الصفراء على وجهها مجددًا وتقول:

- أجل.. إنه بارع في الإخفاء، ألم يُخْفِ عليَّ أمر ذلك الجهاز.

ساد الصمت للحظات ثم قامت أمل لتنصرف بحجة أنها نسيت بأنها على موعد مع ابنة خالتها هبة، ثم همّت مسرعة إلى خارج بوابة المستشفى، وعندما توارت تمامًا عن الأنظار رفعت هاتفها لتتحدث مع أحدهم قائلة :

- ألم أقل لكَ بأن أدهم لا أمان له؟.

- لماذ؟!.. ما الذي حدث؟!.

- إنه أذكى بكثير مما توقعنا جميعًا.

- أخبريني دون مقدمات، ما الذي حدث؟!، لقد أَثَرْتِ قلقي.

- إنه يحمل معه ساعة صغيرة بحجم عقلة الإصبع، يوجد بها جهاز تتبع.

صاح الشخص الذي يحدثها على الجانب الآخر قائلًا:

- ماذا؟!.. ساعة!.. أي ساعة هذه!.. عليك اللعنة يا أدهم.. عليك اللعنة.

فتابعت أمل:

- الساعة متصلة على هاتفه الذي بحوزة أحمد، هي مغلقة الآن، وما أن يشعر بخطورة، سيعيد تشغيلها، ومن ثَمَّ سيعلم أحمد موقعه ويبلغ الشرطة.

خرج الرجل الذي كان يتسم بالهدوء عن طوره وظل يردد قوله:

- عليك اللعنة يا أدهم، هل بعد كل ذلك أنتَ الذي ستوقع بنا؟!، اللعنة عليك .

عاد ليسأل أمل مجددًا:

- هل عَلِمْتِ أين يخفيها؟.

قالت:

- لا.. لن يخبرهم، قالت أخته بأنها بقدر عقلة الإصبع، من السهل جدًا إخفاؤها، عليك الآن أن تجعلهم يجدونها .

- إن لم يجدوها سنضيع جميعًا، وسيضيع كل شيء.

قال هكذا ثم زفر زفرة قوية وتابع:

- برأيك أين سيخبئُها؟، وكيف سنخرجها منه؟!.

- لا أعرف أين سيخبئُها، ولكن أعرف جيدًا طريقة تستطيع أن تخرجها منه.

- كيف؟!.. أخبريني ما دمتِ بارعة في الحِيَل والخداع.

بدأت أمل تشرح له ما عليه فعله، ولكن الضوضاء التي أحدثتها السيارات أخفت صوتها تمامًا فلم يعد مسموعًا، ثم بعد ذلك أنهت مكالمتها ووضعت الهاتف في حقيبتها وواصلت طريقها، في هذه الأثناء شاهدها أحمد الذي كان يركب سيارة أجرة عائدًا إلى دعاء.

*****

في مكتبٍ راقٍ يجلس أحدهم على كرسيه الفاخر، والذي لَفَّهُ حتى لا يظهر إلا ظهره وصوته فقط، رفع سماعة الهاتف الأرضي وبدأ يكتب رقمًا في عجالة، بدت على يده علامات التوتر والقلق، وها نحن نشاهده يمسك بمنديله ويمسح حبيبات العرق التي تكورت على جبينه، هناك رنين على الجانب الآخر، يَضرِبُ بيده على المكتب ويزفر زفرة قوية كي يهدىء من روعه.

فتح الطرف الآخر المكالمة وظل منصتًا، والذي ظهر إلينا بأنه وضاح البروجي، إلى أن قال هذا الشخص المختفي:

- هناك كارثة قد تحدث يا وضاح إن لم تلحق بها.

- ماذا؟!.. أي كارثة هذه؟!.

- أدهم.. ألم أخبرك بأن تأخذ حذرك جيدًا من، يوجد معه جهاز تتبع بحجم عقلة الإصبع، حاول أن تستخرجه يا وضاح، ولكن إياكَ والعنف، أتسمعني جيدًا، إياك والعنف .

- ولكن كيف سأستخرجها منه؟!.

- سأخبرك.. أنصت إليَّ جيدًا.

عندما بدأ يخبره اختفى الصوت تمامًا، لنشاهد صورة تتحرك فقط، صورة من الظهر ولا شيءَ آخر، وها هو يشعل سيجارته الغليظة، وها هو يلف الكرسي ولكنه يضع السيجارة أمامه فيحجب الدخانُ الرؤيةَ تمامًا، انتهى من المكالمة ووضع السماعة في مكانها ولفَّ بالكرسي ليختفي مجددًا دون أن نحدد هويته، ولكن ظهر صوته حيث قال لوضاح قبل أن ينهي المكالمة:

- الرجل الكبير سيغضب كثيرًا إن علم بالأمر، أو إن حدث شيئ يثير القلق.

****

(١٤)

استيقظ أدهم على صوت في الخارج يطرق على الباب وينادي عليه، نهض مسرعًا ليفتح الباب وهو يفرك عينيه، تفاجأ تمامًا عندما وجد أشعة الشمس تغمر المكان، كان الطارق بيشوي وكان مقطب الوجه مما جعل أدهم يندهش قائلًا:

- بيشوي؟!.

قال بيشوي الذي بدا وكأن هناك كارثة قد تحدث:

- أدهم.. تجهز وتعالَ معي.

زادت حيرة أدهم أكثر فسأل قائلًا:

- إلى أين؟!.. بيشوي ما الأمر؟!.

- لا أعلم يا أدهم.. لا أعلم.. هيا السيد وضاح ينتظرنا.

دخل أدهم واغتسل ثم عدّل هيئته، كان يظن أن بيشوي حانقًا بسبب تعنيف وضاح لهم، ظنًا منه بأن الحراس تراخَوْا في أوامر سيدهم، لذلك السبب لم يذهبوا إلى العمل اليوم، انتهى أدهم ثم لبس حذاءه وخرج ثم أغلق الباب خلفه، بينما هما في طريقهما سأل بيشوي قائلًا:

- ما حالتك هذه؟ ولماذا لم نذهب إلى الجبل اليوم لمتابعة الحفر؟!.

قال بيشوي وهو يلتفت حوله كي يرى إن كان هناك من يسمعهم:

- بالنسبة إلى عدم الذهاب إلى الجبل.. فلا أعلم، أما بالنسبة لحالتي فهذه بسبب تعنيف وضاح لنا.

- ولماذا عنّفكم؟!، هل حدث تراخٍ أو شيءٌ من هذا القبيل؟!.

- لا لم يحدث شيء، لقد خرج كبير الحراس بالسيارة ولم يعد إلى الآن، وجاء وضاح من الخارج حانقًا جدًا، ولقد أمر بكم، وها أنا أنفذ أمره، إياك أن تحاول إثارة غضبه.

يجلس وضاح على طاولته في مكانه المعهود بجانب الطريق الرئيسي للمزرعة، كان أدهم وبيشوي يمشيان في الطريق الذي يصل الغرفة التي ينام بها أدهم بالطريق الرئيسي، وها هما قد اقتربا من غرفة الحراس التي في زاوية المزرعة، وعندما انعطفا يمينًا رأيا يمان وسهيل وزين يخرجون من الشارع الأسير إلى الطريق الرئيسي، جميعهم يتجهون ناحية البروجي الذي ما زال يجلس على طاولته، وعندما اقتربوا أكثر نهض ذلك الرجل ونهضت معه ترهلاته وصوته الغليظ، اقترب أدهم ووقف أمامه بينما تجمع يمان وزين وسهيل بجانب أدهم، الذي شعر أن البروجي غير حانقٍ، بالفعل لقد هدأ روعه وتأكد له شعوره عندما قال البروجي:

- لقد أبليتم بلاءً حسنًا، ذهبتُ بالأمس إلى الجبل وشاهدت ما فعلتموه.

نظر إلى أدهم وبدأ يقترب نحوهم وهو يشعل سيجارته متابعًا:

- لقد كنا على موعد مع الخواجة الذي يصرّف لنا ما نستخرجه من باطن الأرض، كان من المفترض أن يأتي

ويجلب معه المستكشف، لكنه أخبرني بأنه لن يستطيع أن يأتي إلا بعد بضعة أيام.

أدار لهم ظهره ثم خَطَا عدة خطوات مبتعدًا عنهم ما يقارب من خمسة أمتار ثم التفت مجددًا وأردف:

- ولذلك سنوقف الحفر إلى أن يأتي.

حدّق النظر بهم ثم قال وهو يصطنع ابتسامة:

- خلال هذه الأيام أريدكم أن تأخذوا راحتكم تمامًا، تستطيعون أن تخرجوا من غرفكم بعد سطوع الشمس وأن تعودوا مجددًا قبل غروبها، أريدكم أن تستمتعوا بهذه الأيام، واطلبوا ما شئتم.

ثم نظر إلى أدهم وتابع:

- أكاد أجزم بأنكم ستسعدون.. وأود أن أخبركم....

وقبل أن يكمل الجملة فُتحت البوابة الرئيسية على مصراعيها، ودخلك سيارتان إحداهما التي يذهبون بها إلى الجبل والأخرى سيارة خاصة بكامل، نزل كبير الحراس من السيارة الأمامية، ومن خلفه نزل حارسان يمسكان بفتاة، بينما نزل كامل من سيارته وأقبل إلى وضاح مسرعًا فبادر وضاح بالسؤال قائلًا:

- مَن هذه؟!.. ولماذا تأخرتم هكذا؟

قال كامل وهو يشير ناحية الفتاة التي يضع على رأسها كيسًا قماشيًّا:

- لقد ذهبت أنا وسامر إلى المخزن لجلب المؤن اللازمة من أجل الحراس والعمال، لكننا فوجئنا بأن أقفال المخزن محطمة، وعندما دخلنا وجدنا كمية كبيرة من المؤن مسروقة.

قال وضاح بصوت عالٍ يعتريه الدهشة:

- ماذا؟!.. كيف؟؟!

تابع الآخر قائلًا:

- وعندما تقفيت الأثر وجدت هذه السارقة في الطريق، عندما شاهدتنا لاذت بالفرار، أمسكنا بها وأحضرناها إليكَ.

صاح وضاح بصوتٍ عالٍ قائلًا:

- كيف تتجرأ على سرقة وضاح البروجي؟!، سأقتلع رأسَكِ التي وجّهتكِ على ذلك.

ثم أشار إلى كبير الحراس وقال:

- اصلبوها على البرج الأمامي لتنال جزاءها، سأجعلها تتوسل حتى الموت، سأجعلها ترجوني كي أقتلها، حتى تكون عبرة لغيرها.

بينما هو يصرخ ويشير إليهم ليذهبوا بها توقف عندما سمع صوت من خلفه يقول:

- إن طلبت لها العفو ؛ هل سأجد عفو عند السيد وضاح؟.

التفت إليهم فوجد أدهم ينظر إليه بترقب، فقال حانقًا الوجه:

- ماذا تقول؟.

- ألا يوجد عفوٌ عند السيد وضاح؟.

رد عليه بعصبية شديدة جعلت الرذاذ يتراشق من فمه على وجه أدهم قائلًا:

- أي عفو.. أي عفو لهذه السارقة، العفو الذي يكون لها هو موتها بسهولة.

حدَّق به وقطب حاجبيه ثم تابع:

- نصيحة.. عندما تطلب العفو اطلبه لأجل نفسك فقط، لا من أجل شخص آخر.

التفت البروجي حتى يأمر كبير الحراس أن يذهبوا فقاطعه أدهم مجددًا:

- ألم تقُلْ اطلبوا ما شئتم؟، ها هو طلبي لا أريد شيئًا آخر.

نظر له البروجي مجددًا فقال أدهم مردفًا:

- لعلها سرقت من أجل سدّ جوعها، أو سدّ جوع مَن معها، لا أحد يلقي بيده إلى التهلكة برضاه، وخصوصًا عندما يتعلق الأمر بالسيد وضاح، أحيانًا نكون مغلوبين على أمرنا، رجاءً يا سيد وضاح، لا تفعل بها شيئًا، رجاءً.

نظر وضاح إلى سامر كبير الحراس وقال:

- قيدوها في الساحة، ولا تعطوها طعامًا ولا شرابًا، ولا يقترب منها أحد، ولا تفكوها إلا بإذني .

ثم التفت إلى أدهم وزملائه وتابع قائلًا:

-وأنتم يمكنكم الإنصراف، إن حدث جديد سأخبركم.

بينما هم ينصرفون قال البروجي:

- لقد خَفَّفْتُ عِقابَها إكْرَامًا لكَ يا أدهم.

توقف أدهم عن السير والتفت إليه وكأنه ممتنًا لما فعله، فرجع إليه مجددًا ثم قال:

- قلت لك ذلك لطالما أيقنت بأن قلبك الكبير هذا سيتركها.. شكرًا لك.

قال هذه الكلمات وقبل أن يرد عليه وضاح جاء كامل بخطوات سريعة وقال:

- هناك مستجدات علينا التأكد منها.

حدَّق إلى أدهم ثم أشار إلى وضاح بأن يبتعدوا قليلًا وهو يقول:

- علينا أن نذهب الآن.

ركبوا السيارة وفتح الحراس البوابة ثم خرجوا وأُغلقت البوابة خلفهم، نظر سامر إلى الحارس بيشوي وأدهم وامرهما بالإنصراف، ثم ذهب إلى غرفته التي في الزاوية كي يستريح، وترجّل أدهم وبيشوي إلى داخل المزرعة، ما أن ابتعدا حتى استوقفه بيشوي وقال بحنق:

- هل جننت؟!.. هل تريد أن تلقي بنفسك إلى التهلكة؟!.

- لماذا؟.

- لماذا!.. كيف تناقش قرارات البروجي؟!، هل أنت مجنون؟!، ألم تدرك بأنه ممكن أن يقتلك إن أراد حينها.

حدّق به أدهم وقال:

- ولم يفعلها.. بل وقد إنصاعَ إلى طلبي، ما ذنبها تلك المسكينة ها، سأقول لك، ذنبها في الحياة أنها لا تملك ما تأكله، ذنبها بأنها تعول أحد ما، هي مثلنا تمامًا وقعت في ضيق، ولن أتركها إلى الكلاب الضالة يا بيشوي.. أتسمعني لن أتركها.

حدّق به بيشوي الذي بدا وكأن عينيه تلتمع، ثم تركه وانصرف عندما سمع صوت كبير الحراس سامر يناديه، ذهب أدهم بعدها في طريقه إلى غرفته، دخل إلى غرفته وأحضرَ منها زجاجة ماء والقليل من الطعام ثم عاد مرة أخرى، توقف وهو في طريقه إلى الطريق الرئيسي وظل يلتفت يمينًا ويسارًا ثم دخل بين الأشجار متوجهًا إلى الساحة، أصبح على مقربة منها فتوقف ليرى إن كان أحد يراه، ثم اقترب أكثر فلاحظ بأن هناك أحد ينازع في الداخل وأن الحارس غير موجود على الممر الذي يسيرون فيه والمؤدي إلى الساحة، اقترب من الأشجار المكتظة التي تحيط بها، ثم دخل من بينهم واقترب منها ببطء، مد يده وأزال قطعة القماش عن وجهها على حين غرة مما جعلها تصرخ، فأسرع بوضع يده على فمها وقال وهو يضع إصبعه على فمه مشيرًا إليها:

- لا تخافي.. لن أؤذيكِ.. إهدأي.

مدَّ لها زجاجة الماء ورفع يده عن فمها ثم تابع بصوت منخفض وهو يتبرَّم حوله:

- اشربي الماء وتناولي بعض الطعام، لا تقلقي ستذهبين من هنا سالمة.

حدَّقت فيه بشدة والتمعت عيناها وعلى إثر ذلك انسكبت العَبَرَات على وجنتيها، مد أدهم يده ومسح الدموع عن وجنتيها وهو ينظر في عينيها الأخَّاذه، حيث تميزت ببشرتها البرتقالية التي يكسوها النمش وبعينيها البنيتين الذهبيتين اللتين تشبهان أعْيُنَ الغزلان، وشعرها الناعم الذي يميل إلى الحُمرة المنسدل على ظهرها يتطاير من هبات الرياح على أكتافها البارزة عظامها من شدة نحافتها، وعنقها الطويل المتناسب مع طولها المتوسط، مرورًا بوجنتيها الحمراويتين وأنفها الصغير إلى فمها الضيق، غرق أدهم في جمالها متناسيًا الحراس وكل من بالخارج.

أبعد يده بغتتة عن وجهها محاولًا إخفاء ملامح الخجل التي بدت عليه ثم قال:

- ستذهبين.. أنا أعدك بذلك.

مسحت وجنَتَيْها وبدأت تشرب وتأكل بنهَمّ، ما أن فَرَغَتْ حتى قالت إليه:

- أنت الشخص الذي كان يدافع عني أليس كذلك؟!

- نعم.. أنا.

- لقد ميَّزْتُك من صوتك.. ما اسمك؟

- أدهم.. اسمي أدهم.

نظرت إليه وعيناها تلتمع مجددًا، ولكن هذا اللمعان يختلف تمامًا، إنها أشعة الشمس تنعكس في عينيها ليتحول لونها إلى اللون العسلي، فقالت:

- وأنا سجود.. أرجوك لا تتركني يا أدهم.. إن تركتني سيقتلونني.

- لا تقلقي يا سجود.. لن أتركَكِ.. هذا وعد.

أخذ أدهم زجاجة الماء حتى لا يترك أثرًا يَشِي بأن أحد ما قد ساعدها، ثم خرج من بين الأشجار مرة أخرى وهو يلتفت حوله إلى أن خرج إلى الطريق الأيمن متوجهًا إلى غرفته، ترك فيها الزجاجة ثم خرج مجددًا يسير في الطريق الموالي إلى الجدار الأوسط متجهًا إلى زملائه.

*****

توقف كامل جانبًا ونزل من السيارة وتبعه وضاح، جلب من الخلف طاولة صغيرة وكرسيين متينين، الكرسي منهما يقدر على حمل وضاح بترهلاته وشحومه، فَرَدَ وضاح الكرسي وجلس عليه ثم أخرج هاتفه وبدأ يكتب عدة أرقام ومن ثَمَّ وضعه على أذنه.

كان يجلس تحت شجرة المانجو التي تعزف أوراقها نغمًا يريح العقول، ولكن أي عقل لهذا الذي سيطرت دهونه على تفكيره، أنزل الهاتف عندما لم يجد رَدًّا من الجانب الآخر ثم عاود الإتصال به مجددًا، ولكن يصدر الهاتف رنينًا دون جدوى.. لا أحد يجيب،

وضع الهاتف على الطاولة وفي هذه الأثناء كان كامل يحضر القهوة من السيارة.

جاء كامل وفي يده سخان به القهوة وفنجانين وضعهم على الطاولة ثم قال:

- ماذا! .. ألم يرد عليك؟!.

- لا.. لم يرد.. لقد حاولت الإتصال به عدة مرات ولم يرد.

ملأ كامل الفناجين قهوة ثم جلس وقال:

-ولكنه كان مشغولًا جدًا بهذا الموضوع.

قال وضاح وهو يحك بيده على جبينه:

- غريب!.. أخشى ألا يكون حدث شيء مغاير، وأيضًا.....

قبل أن يكمل كلمته سمع رنين الهاتف، نظر إلى كامل ثم قال:

- مهلاً.. إنه هو.

أجاب مسرعًا فقال الشخص الآخر:

- ماذا فعلت؟

أجاب:

- كما أخبرتني.

ها هو يجلس على كرسيه ذي الظهر العالي ويتكىء على مسنده بيده ليظهر نصف رأسه من الخلف، دخان سيجارته يحجب الرؤية قليلًا، حرّك رأسه إلى الأمام ثم قال:

- وهل انطلت عليه؟.

- تعجب قليلًا عندما أخبرتهم بأننا سنوقف الحفر لبضعة أيام، ولكن بعد ذلك كان الوضع طبيعيًّا.

- هل سمحت لهم بالتجوال داخل المزرعة؟.

- أجل.. وأرى أنها كانت فكرة ثاقبة.

لف ذلك الرجل كرسِيَّهُ فظهر كامل جسده دون رأسه وهو يطفئ سيجارته ويقول:

- إذن راقبه جيدًا، لا مجال للإخفاق، الرجل الكبير لن يغفر لنا.

قال وضاح:

- لقد جعلت سامر يتتبعه دون لفت الإنتباه، يتتبعه خطوة بخطوة.

- حسنًا.. أعْلِمني إن حدث جديد.

- أجل.

أنهى وضاح المكالمة ثم وضع الهاتف على الطاولة وارتشف رشفة من القهوة ثم رجع بظهره إلى الخلف، بالطبع هو يضع الكرسي بجانب الشجرة، وإلا سيكسره مباشرة إن لم يكن هناك

دَاعِمٌ آخر غير المسند، ظل يفكر هل ستكون نهايتهم على يد شخص كأدهم؟!.. ياللهول.

****

دخل أحمد المستشفى يحمل في يده الطعام الذي أعدَّتْهُ والدتُه، توجه إلى الغرفة التي تجلس فيها دعاء برفقة أمها فوجدها مغلقة، دفع الباب ببطء ثم دلف إلى الداخل فلم يجد دعاء، سأل عنها إحدى الممرضات التي كانت توصل بعض الأجهزة إلى فاطمه فأخبرته بأن الطبيب اصطحبها معه إلى مكتبه، وعندما سألها عن السبب أخبرته بأن حالة المريضة قد ساءت، وضع الطعام جانبًا ثم توجه إلى مكتب الطبيب، وقبل أن يصله قابلته دعاء منهمرةً في البكاء فركض نحوها مسرعًا وقال:

- دعاء.. ماذا حدث؟!، لماذا تَبْكِينَ؟، أخبريني.

قالت وهي تمسح وجنتيها:

- لقد ساءت حالة أمي كثيرًا، وأخبرني الطبيب أن علينا إجراء العملية سريعًا وإلا...

سكتت لبرهة ثم شهقت وتابعت:

- وإلا ستموت.

قالت دعاء كلمتها الأخيرة وكادت أن تسقط أرضًا، لولا أن لحق بها أحمد وأمسكها ثم قال:

- لا تقلقي.. سأتصل بعاصم لعله دبر المال المطلوب، والآن أريدكِ أن تستريحي.

أشار إلى غرفة والدتها ثم تابع:

- اذهبي وتناولي طعامكِ، سأذهب إلى عاصم ثم أعود سريعًا

جلست دعاء بجانب أمها حيث تعجبت بأن عاصم هو الذي سيقرضهم النقود، بينما تَوَجَّهَ أحمد إلى الخارج قاصدًا عاصم الذي كان قد هاتفه كثيرًا ووجد هاتفه مغلقًا، ما أن وصل منزله حتى وجد البوابة الرئيسية موصدة، أدرك حينها بأنه لا يوجد أحد في الداخل، رجع مجددًا في طريقه إلى المستشفى، يحاول مهاتفة عاصم أو حازم لكن دون جدوى، وبينما هو يمشي في طريقه إِذْ سمع صوت يناديه، التفت إلى صاحب الصوت فوجده مازن يشير إليه أن يأتي فذهب إليه، تبادلا التحية وأشار له مازن بالجلوس وقال:

- هل هناك أخبار عن أدهم؟.

قال أحمد وهو يحاول الإتصال بعاصم مجددًا:

- لا.. لا يوجد أخبار بعد .

- وماذا عن أمه؟.

تنهد عندما باءت محاولة الإتصال بالفشل وقال:

- حالتها خطيرة جدًا يا مازن، أخبرنا الطبيب بأننا قد نفقدها إن لم نُجْرِ العملية في أسرع وقت .

وضع مازن المطرقة التي في يده على المنضدة ثم فك مريوله وقال:

- لقد علمت بأنها ستكلف كثيرًا، إذاً ماذا سنفعل؟!.

نظر له أحمد مندهشًا عندما تكلم بصيغة الجمع قائلًا:

- لقد وعدني عاصم أن يعطيني تلك النقود، لكنه غير موجود.

- انتظرني دقيقة واحدة.

قال كلماته ثم دخل إلى منزله وخرج بكيس أسود ملفوف به شيء ما وهو يقول:

- هذه النقود أدَّخِرُها منذ فترة كي أشتري بها مؤونةً للورشة، أنا أعلم بأنها لا تكفي، ولكنها كافية لِجَعل الطبيب يشرع في العملية، وعندما ينتهي سيدبرها الله.

وقف أحمد بعدما شاعرًا بارتياح، ثم قال لمازن مبتسمًا:

- ولكن أنتَ تحتاج هذا المال حتى تعمّر ورشتك وتشتري مؤونتك.

قال وهو يغلق باب الورشة:

- لا حاجة للمال إن لم ينقذ حياة أحدهم التي هي على المحك.

توجه ناحية باب منزله الطيني ثم تابع:

- انتظرني سأغتسل وأبدل ثيابي ثم أذهب معك.

مرّت بضع دقائق ثم خرج بعدما عدّل من هيئته قائلًا:

- هيا.. لا تدعنا نترك والدة صديقنا تنتظر.

استقلّا سيارة أجرة إلى المستشفى وبعد أن وصلا تَرَجَّلا منها وتوجَّهَا مُسْرِعَيْنِ إلى الداخل حيث غرفة الطبيب، ولكنهما لم

يجداه في مكتبه، وعندما سألا الممرضة أخبرتهما بأنه قد ذهب بسرعة إلى غرفة ٣٧، حيث يوجد فيها حالة خطيرة جدًا.. غرفة ٣٧!.. إنها الغرفة المتواجدة فيها فاطمة، رَكَضَا إليها مسرعَيْن وعندما فتح أحمد الباب سمع صراخًا يُدَوِّي في الأرجاء ويقول:

- أمي...

*****

(١٥)

وصل أدهم إلى الثلاث غرف ثم طرق على باب الغرفة الأولى، كانت غرفة يمان، والذي فتح على وجه السرعة وكأنه ينتظر أحدًا ما، مما جعل أدهم يتعجب فسأله بعدما دخل قائلًا:

- هل كنت تنتظر أحد؟!.

أجابه قائلًا:

- لا.. لقد رأيتك من النافذة وأنت قادم، فقلت لا أدعك تنتظر في الخارج.

جلس أدهم على السرير وبدأ يقلّب نظره في غرفة يمان، الغرفة تختلف كثيرًا عن غرفته، حيث يميزها أرضيتها الإسمنتية الناعمة وسقفها الأسمنتي الناعم، ويوجد بها نافذتان واحدة تطل على الطريق الخلفي المؤدي للجدار الأوسط، والأخرى تطل على الطريق الأمامي المؤدي إلى الساحة، عليهما حديد مكثف لا يقوى أحدهم على فكه، كان حجمها متوسطًا أيضًا.

جلب يمان الشاي الذي أعدّه للتو وهو يقول:

- أتدري.. لقد أثرت إعجابي اليوم.

تناول منه كوب الشاي وهو يقول:

- لماذا؟!.

- على وقوفك إلى جانب السارقة، ولكن خشيت أن يغضب علينا البروجي ويعاقبنا على ذلك.

ارتشف أدهم رشفة من كوب الشاي ثم وضعه على الطاولة وقال:

- إذاً يا صديقي المجنون.. ماذا سنفعل؟.

حملق فيه يمان مستغربًا ثم قال:

- في ماذا يا أدهم؟!.

اقترب منه قليلًا ثم قال:

- في موضوع السارقة.. ماذا سنفعل؟.

- أدهم.. هل تفكر في ذلك حقًا.

- ولِمَ لا.. لعلَّنا نساعدها على الهروب.

حدَّق إليه يمان بعدما احتقن وجهه بالدماء ثم قال ممتعضًا:

- ماذا!.. هل جننت؟!، كيف تفكر في أمرٍ كهذا، ألم ترَ الحراس المحيطين بنا من كل مكان، وكيف ستخرج من البوابة الرئيسية؟!.. هَا.

أمسك أدهم يده ثم أشار له بخفض صوته وقال:

- سأخبرك كل شيء ولكن عندما أقرر.

ساد الصمت بضع لحظات، كان أدهم يرتشف آخر رشفة في كوبه ثم وضعها مجددًا واستطرد في الحديث قائلًا:

- ولكن هناك شيء غريب يحدث.

- شيء غريب!!.. ماهو؟!.

- أن يسمح لنا البروجي بالتجوال في المزرعة كما يحلو لنا، هذا الأمر يثير قلقي.

قال يمان وهو يحك جبينه بيده مفكرًا:

- في بداية الأمر فكرت في ذلك، ولكن جال في خاطري بأنه ربما فعل ذلك لكي لا نشعر بالملل في هذه الفترة.

زَمَّ شفتيه ثم قال:

- هذا شيء وارد أيضًا، دعنا لا نستبق الأحداث، سنجتمع في المساء ونقرر ماذا سنفعل.

- وهو كذلك.. ولكن حَرِيٌّ بك أن تفهم بأننا مُقْبِلَانِ على هلاكنا، لن يغفر لنا البروجي هذه الوقعة.

وقف أدهم وعدّل من هندامه متوجهًا ناحية الباب ليذهب فاستوقفه يمان الذي ما زال يجلس على سريره قائلًا:

- ألم تخبر الآخرين؟!،

التفت له وهو يمسك مقبض الباب وقال:

- ليس الآن.. سنخبرهم ولكن عندما نقرر ماذا سنفعل.

- حسنًا.

خرج أدهم وأغلق الباب من خلفه متجهًا إلى غرفته، ومن ثَم دخل الغرفة وأغلق الباب بإحكام، ظل يمشي في الغرفة جيئة وذهابًا، ثم يجلس على السرير ويَحُكُّ رأسَه بيده مفكرًا فيما سيفعله، ثم يقوم مجددًا يذرع الأرض مجددًا بخطواته، ظل على هذا الحال إلى أن خَيَّمَ الظَّلَامُ، فتمدد على سريره يحملق في السقف ويسترجع ذكرياته ويفكر في أمه وأخته وصديقه وخطيبته.. كيف حالهم جميعًا؟، ظل شارد الذهن إلى أن عاد من شروده على صوت صرخات اعتاد عليها، فعزم على أن يفعل شيئًا لا رجعة فيه.. لقد قرر كشف هوية ذلك الصوت.

*****

دخل أحمد وتبعه مازن فوجد دعاء منكبة على وجهها والدموع تسيل على وجنتيها، أخذ أحمد يقترب منها رويدًا رويدًا وقدماه تتخبطان في بعضهما البعض، خارت قواه.. لا تقوى رجلاه على حمله، يحاول استيعاب ما يدور حوله لكنه في الوقت نفس يحاول أن يكذِّب ما استوعبه.

اقترب منها قليلًا ثم همس قائلًا:

- دعاء.. دعاء.. ماذا حدث يا دعاء؟.

بالطبع لم تحرك دعاء ساكنًا، ثم التفت إلى الطبيب وخَطَا خطوة تجاهه فتخبطت قدماه في بعضهما، وكاد أن يسقط لولا أن لحق به مازن وأمسك به من ذراعه، بينما الطبيب أمسك بيده حتى لا يسقط، تشبث به أحمد ثم قال:

- ماذا حدث يا دكتور؟!.. أخبرني.

هوى أحمد على ركبتيه عندما وقع على مسامعه صوت الطبيب وهو يقول:

- البقاء لله.

اسبهل وجهه غير مصدق لكلمات الطبيب فعاد يسأله مجددًا:

- ماذا؟!.. ماذا تقول؟!، البقاء لله في مَن!، هيا اجْرِ لها العملية، هيا لقد أحضرت النقود.. هيا.

أمعن الطبيب النظر إلى دعاء التي ما زالت في حالتها الهستيرية، تكلم أمها تارة ثم تبكي تارة أخرى، ثم تقول إلى الطبيب هيا أيقظها.. هي تفعل ذلك حتى تجعلنا مضطربين ليس أكثر، ثم تعاود إلى نوبة البكاء مرة أخرى، ويحوّل نظره إلى أحمد الذي يجثو على ركبتيه، ويتشبث بيده فيما تسيل دموعه على وجنتيه هو الآخر ويرجوه أن يشرع في العملية الآن، في هذه الأثناء دخل عاصم يتبعه حازم والذي قام بدوره بإمساك أحمد ثم قال:

- أحمد لقد جلبت النقود، لقد أتيت مسرعاً بعدما جمعت نقود المحصول، هيا.. هيا يا دكتور إلامَ تنتظر؟.

ثم نظر إلى مازن وتابع:

- لماذا يبكي أحمد؟!.

فأخبره الطبيب قائلًا:

- البقاء لله.. لقد تُوُفِّيَتِ المريضة.

قال الطبيب كلماته الأخيرة ثم انصرف وتبعته الممرضة، في هذه الأثناء دخلت أمل تكفكِف عينيها، ثم ركضت بضع خطوات وجثت على ركبتيها ممسكة بيد فاطمة، أخذت تصرخ عاليًا بل فاقت صرخاتها صرخات دعاء، من يسمع الصراخ يظن للوهلة الأولى أنها ابنة المتوفاه، هم لا يعلموا أن وراء هذا الوجه الملائكي الباكي المنكسر أفعى تكاد تنفث سمها على الجميع، ولو صمتوا قليلًا لعلموا أن هذا البكاء والصراخ ما هو إلا فحيح هذه الأفعى، قمة الإنحطاط عندما تتحلى بشيءٍ لست أهلًا له أو تتجمل بشيءٍ ينقصك.

احتضنت دعاء وظلت تبكي بينما ينظر إليهم عاصم وحازم في أسى، وجلس مازن بجوار أحمد الذي جلس على الأرض مسندًا ظهره إلى السرير ممددًا رجليه على الأرض تنهال الدموع على وجنتيه، تقدم عاصم خطوتين ثم أخبرهم بأنه سيذهب ليتم إجراءات الخروج وبأنه سيذهب أيضًا حتى يدفع حساب المستشفى ويستخرج تصريح الدفن، انصرف ولحق به حازم الذي لا يفارقه مغلقًا الباب من خلفه.

وبينما كانا في طريقهما إلى الطبيب سأله حازم قائلًا:

- كيف عَلِمْتَ أنها ماتت؟!.

نظر له وهو يشعل سيجارته ثم قال:

- بعدما ذهبت لتحضر لنا طعامًا جاء أحمد إلى المنزل.

قطع حازم حديثه ثم قال متعجبًا:

- وهل قابلته؟!.

ابتسم ابتسامته الصفراء وتابع السير ثم قال:

- لهذا قلت لك أغلق الباب جيدًا من الخارج إلى أن تعود.

- ولكن كيف عَلِمْتَ بأنها ماتت ما دمتَ لم تقابله؟!.

- عندما شاهدته في الكاميرات اتصلت على إحدى الممرضات فأخبرتني بذلك، ما أن ذهب حتى أخرجتُ السيارة واتَّصَلْتُ بك.

- إحدى الممرضات!؟.

- أجل.. إحدى الممرضات.

ثم التفت إليه ضاحكًا وقال:

- المال.. المال يفعل كل شيء يا عزيزي، أم أنك كنت تريد أن أعطيه مالي وأنا أعلم بأنه لن يستطيع سداده!.

تعالت ضحكاتهما الصفراء وهما في طريقهما إلى الممر الذي يؤدي إلى مكتب الطبيب كي ينهيا إجراءات الدفن.

*****

كان الليل قد أرخى سدوله منذ فترة طويلة، يقف أدهم في ترقب، يذرع الغرفة جيئة وذهابًا ثم يتوقف ثم يعود مجددًا ضاربًا الأرض، ثم ينظر من الثقب الموجود في الباب تارة ويضع أذنه على الباب تارة أخرى ليتفقد إن كان هناك وقع أقدام في الخارج.

فتح الباب رويدًا رويدًا بعدما تأكد بأن المنطقة خالية من الحراس، ظل يلتفت حوله ليتفقد الأجواء في الخارج، يسلط نظره

على الطريق حينًا وبين الأشجار حينًا آخر، المكان هادئ جدًا لا يوجد أي شيء يبعثُ على القلق، خرج ببطء على أطراف أصابعه ثم سحب الباب من خلفه ليغلقه على مهل حتى لا يصدر صوتًا، وبينما كان قد شارف على إغلاقه تمامًا شاهد اثنين من الحراس يخرجان من غرفة الطعام، دفع الباب مسرعًا ثم دلف إلى الداخل في لحظات، بدأ يتعالى خفقان قلبه وكأنه افتضح أمره، كان يخشى أن يكون رآه أحدهما، وضع أذنه على الباب ليتفقد وقع أقدامهما، فتبين له بأنهما قد ذهبا إلى الناحية الأخرى.. إذن لم يشعرا به، عزم على فتح الباب مجددًا، وعندما فتحه سمع صوت أحد الحراس يتسامر مع أحدهم.. الصوت يقترب منه أكثر فأكثر.. أغلق الباب مسرعًا.. ومن ثم ظل ينظر من ثقبه تارة تِلْوَ أخرى، مَرَّ الحارسان من أمام غرفته وتابعا السير في طريقهما بإتجاه بوابة القسم الثاني.. القسم الذي يريد أن يدخله، جال في خاطره فكرة ما عندما وجدهما يقتربان من البوابة أكثر فأكثر.. ألا وهي أن يختبئ وسط الأشجار ويختطف أحد الحراس ويأخذ ثيابه ويلبسها ثم يتوجه ناحية البوابة، لكنه سرعان ما تطايرت هذه الفكرة عندما رآهما يتجهان يسارًا.. أي في الطريق المؤدي إلى البوابة الرئيسية، أغلق بابه بإحكام ثم جلس على السرير يفكر فيما يجب عليه فعله، كان إصراره على العبور إلى القسم الثاني يتعاظمُ في داخله، تمدد على السرير واضعًا يده خلف رأسه ثم ثنى رجله اليسرى ووضع عليها رجله اليمنى، كان ينظر إلى قدمه التي تهتز تلقائيًا من التوتر، ظل ينظر ويتمعن فيها إلى أن تمعّن فيما وراء قدمه، تمعّن في مصدر الضوء الذي ينير بعض الغرفة، أجل إنها هي.. إنها النافذة الموجودة في الجدار الخلفي للغرفة، كيف لا تراوده هذه الفكرة من قبل؟.

نهض مسرعًا تجاه النافذة وأمسك بقضبانها الحديدية المتآكلة، كانت القضبان متآكلة لدرجة أن شخصًا عاديًّا لو حركها عدة مرات لكسرها من بعضها البعض، فما بالك بشخصٍ كأدهم قوي البنية ذي بأس شديد، أمسك أدهم الحديد بيده ثم سحبه ودفعه عدة مرات، لاحظ أن النافذة كلها تتأرجح في يده، فظل يحركها محاولًا فكها حتى يعيدها عندما يرجع كي لا يشك فيه أحد، باءت المحاولة بالفشل لكن سرعان ما خَطَرَت له فكرة ما، جلب الغطاء الذي يفرشه على سريره ثم لفه جيدًا على هيئة حبل، ثم جلب المرتبة التي ينام عليها ووضعها تحت النافذة، ثم لف الحبل جيدًا حول جميع القضبان وابتعد قليلًا ثم أرخى الحبل وشدَّه بقوة عالية جدًا، نتج عن هذه السحبة القوية غبارٌ كثيف علامة على فك القضبان الحديدية، والتي لم تحدث إلا صوتًا خفيف جدًا نظرًا لسقوطها على المرتبة المتواجدة بأسفلها.

في هذ التوقيت كان هناك حارس يمشي بالقرب من الغرفة، والذي قام بدوره بالإقتراب أكثر عندما لفت انتباهه صوت قادم من داخل الغرفة، اقترب أكثر فأكثر على أطراف أصابعه حتى لا ينتبه له الشخص الذي في الداخل، أضاء كشافه الكهربائي على الباب فوجد المتراس الخارجي مفتوحًا، اقترب أكثر ليتأكد منه، مَرَّ الضوء من ثقب الباب إلى الداخل، مما جعل أدهم يقف في مكانه لا يحرك ساكنًا، تأكد الحارس بأن المتراس مفتوح.. أدرك حينها بأن الباب موصد من الداخل بواسطة المتراس الداخلي، دفع الباب بيده ببطء شديد فوجده موصدًا بالفعل، أغلق مصباحه ثم تراجع مجددًا ليتابع السير في طريقه مبتعدًا عن الباب.

تنفس أدهم الصعداء وبدأ يتسلق النافذة بواسطة الطاولة، تشبث جيدًا بالنافذة واستغل بنيته القوية في رفع جسده، تسلق النافذة وجلس في منتصفها ومن ثم أمسك بالجسر الخرساني البارز من السقف، ظل يلتفت حوله خشية أن يراه أحد، وقف على النافذة وقفز قفزة قوية ألقت به فوق سطح الغرفة، انبطح على السطح ليتفقد المكان جيدًا أولًا.. وجد المزرعة ساكنة تمامًا، بدأ ينهض ببطء ليحاول تسلق السور الأوسط الذي أصبح ارتفاعه ما يقارب ثلاثة أمتار فقط نظرًا لملاصقته للغرفة تمامًا، ولكنه لم يَخْشَ أن لا يكون هناك بناية في الجانب الآخر من السور، لقد حسم ذلك الأمر بالفعل حيث جلب الستارة التي كانت في الحمام وغطاء السرير خاصته ولَفَّهُمَا على هيئة حبل، أصبح لديه حبل يقارب الأربعة أمتار طولًا، والمواسير المربوط بها السلك الشائك المثبتة بأعلى السور ستسدي له معروفًا في النزول والصعود مجددًا.

لَفَّ الحبل جيدًا على خصره حتى لا يعيقه في الصعود، بدأ يتسلق الصخور واحدة تلو الأخرى، يتشبث جيدًا بأطراف أصابعه وبأقدامه.. بدأ يرتفع شيئًا فشيئًا.. ها هو ينقل قدمه اليسرى بحذرٍ شديد.. مسك بيده اليمنى في صخرة قد تَمَلَّكَ منها جيدًا.. رفع قدمه اليمنى ليضعها في مكانٍ أعلى قليلًا.. في هذه الأثناء رفع يده اليسرى ومسك بصخرة أعلى بعض الشيء.. انزلقت قدمه اليمنى.. فلتت يده اليسرى من ردة فعل جسده.. تعالى خفقان قلبه.. تكورت على جبينه حبيبات العرق.. التوتر والقلق يهيمنان على الموقف.. يخشى أن تنزلق قدمه الأخرى.. عليه حل هذه المعضلة بسرعة.. لم يتبقَّ إلا القليل.. تأرجح قليلًا لكي يمسك في صخرة أعلى بيده اليسرى.. لكنه يفشل في فعل ذلك.. تنسحب أصابع يده اليمنى شيئًا فشيئًا.. لا يستطيع المقاومة.. لا يستطيع الوصول إلى

البروز المتواجد في الصخرة من الأعلى.. وسرعان ما خَطَرَت له فكرة.. بدأ يفك الحبل الذي لفه على خصره منذ قليل.. لف الحبل جيدًا على يده.. بدأ يلفه ليفعل حركة مروحية.. ثم ألقى به إلى أعلى.. عَلِقَ الحبل في الماسورة من الأعلى.. ثم تبعها بدفعة قوية بقدمه جعلته يمسك بالماسورة المثبتة في أعلى السور.

صعد على قمة السور ثم انبطح حتى لا يراه أحد، تنفس الصعداء وظل منبطحًا حتى هَدَأَ روعُه، ظل ينظر هنا وهناك في القسم الثاني من المزرعة، يا للعجب.. القسم الثاني لا توجد فيه أشجار عملاقة كما في القسم الأول!، توحي وكأنها منطقة راقية لأشخاصٍ ذوي مكانة مرموقة، البنايات فيها تختلف تمامًا في التصميم عن البنايات الأخرى، توجد فيها غرفة واسعة بجانب غرفته يفصلهما الجدار فقط، وبجوارها على الجدار الأوسط بناية أخرى يفصلها عنها مساحة خالية من المباني قرابة العشرة أمتار، يوجد في هذه المساحة بعض الورود والزهور، وفي المقابل توجد بناية أعلى من البنايات الأخرى أي ما يقارب الأربعة أمتار، وبجوارها بناية أخرى توحي بأنها استراحة قد شيدت على طراز خاص، ويوجد في الزاويتين بُرْجَا مراقبة يُطِلَّانِ إلى الداخل.

ظل ينظر إلى البرج المقابل له حتى تتسنى له الفرصة لكي ينزل من على السور دون أن يراه الحارس، ظل يُقَلِّبُ نظره بين البرجين ومن ثَم ربط الحبل في العمود جيدًا منتظرًا اللحظة الحاسمة، ما أن التفت الحارس إلى الإتجاه الآخر حتى زحف من تحت السلك الشائك الذي سبب له جروحًا عدة، ثم أمسك بالحبل جيدًا وهبط في غضون لحظات، الغرفة التي بجوار السور سهلت عليه عمله كثيرًا، حيث هبط على سقفها وبدأ يتشبث في الجدار الخلفي لها

ليتدلى جسده كاملًا في الهواء، ومن ثَم أفلت يديه لينزل على أطراف أصابعه على الأرض مستندًا بيده عليها.

اختبأ خلف الجدار يقلب بصره في كل مكان، يتحسس إن كان قد شعر به أحد، نظر أمامه فشاهد بناية صغيرة على بعد خطوات منه، شكلها شبه هرم ثلاثي الأبعاد لا يتخطى ارتفاعها المترين وله باب حديدي موصد بالأقفال، حوَّل نظره إلى الحارس فوجده يجلس مكانه، يرى رأسه من الخلف من النافذة، تقدم بسرعة واختبأ خلف الهرم الصغير، مقابل الهرم يوجد بابٌ للبناية العالية.. باب مقابلٌ لِبابِ الهرم تمامًا، ولكن الغريب في الأمر أن ذلك الباب مفتوح، نظر إلى الحارس فوجده ما زال جالسًا فركض بسرعة باتجاه الباب، وعندما دخل تنفس الصعداء وبدأ يلتفت حوله ليجد شيئًا لم يتوقعه.

****

في منتصف الليل خرجت سيارة نقل الموتى من المستشفي، تسير في طرقات خاوية بداخلها فاطمة، ومن خلفها عاصم بسيارته وبصحبته حازم وأمل ودعاء التي ما زالت تجهشُ في البكاء، بينما ركب مازن وأحمد بجوار سائق السيارة، عندما وصلوا القرية كانت هناك حركة غير معتادة، وعندما دخلوا الشارع الرئيسي وجدوا الجميع يخرجون من منازلهم ويسيرون في طريقهم ناحية منزل أدهم، أدرك أحمد بأنهم علموا عندما أخبر أمه في الهاتف وتعالت صرخاتها، ما أن اقتربوا من المنزل حتى وجدوا المكان مزدحمًا بالجيران وأهل البلدة، أشار مازن للسائق إلى منزل أدهم فتوقف أمامه مباشرة، نزل في وسط الحشد الهائل يقلب نظره بين المتواجدين، كان يتمنى أن يخرج أدهم من بينهم ويعلن عن

وصوله، توقف عاصم على جانب الطريق، نزلت دعاء تاركة باب السيارة مفتوحًا، بينما نزلت أمل من الجهة الأخرى لتلحق بها، ترجلت دعاء ناحية أمها وقدماها تلتَفَّان حول بعضها البعض.. هَوت على الأرض فهَمّت بعض النساء أن يَمْسِكْنَها.. دفعت إحداهن بعيدًا.. جاءت الأخرى من الخلف لتساعدها على النهوض.. صرخت فيها بأن تتركها.. الجميع يحاول مؤازرتها.. كلما اقتربت منها إحدى النساء دفعتها بعيدًا.. تحاول النهوض مجددًا.. تركض ناحية السيارة.. تسقط مجددًا.. دموعها التي تسيل قد حجبت الرؤية تمامًا.. جعلتها تتخبط في هذا وذاك.. صرخت عاليًا محدثة ضجيج عندما فتحوا باب السيارة.. تحاول النهوض من سقطتها ولكن قواها الخائرة تأبى ذلك.. لا تستطيع ساقاها حملها.. اللعنة على هكذا ساق التي تعصي صاحبها.

جَثَت أمامها ثريا على ركبتيها، ثم مدت يديها لتضع وجهها في راحة كفيها وتمسح دموعها بأصابعها، تنظر لها دعاء ويجول في ذهنها بأنها تعرف هذا الوجه جيدًا، أجل هي تعرفه ولكن دموعها ما زالت تحجب الرؤية فلم تستطع الكشف عن هويته، أشار أحمد لأمه أن تأخذها إلى الداخل، اصطحبتها ثريا الغارقة في دموعها هي الأخرى إلى الداخل، لقد فقدت صديقتها اليوم وتكاد أن تفقد ابنتها، أنزل أحمد فاطمة بمساعدة بعض المتواجدين، وأدخلوها إلى الداخل حيث غرفتها في آخر المنزل، كانت تجلس دعاء في زاوية الغرفة على الأرض وبجوارها ثريا، حاولت النهوض سريعًا بمساعدة ثريا عندما شاهدتهم يضعونها على السرير.

اقتربت من أحمد قليلًا ثم نظرت إليه ولأمه ووضعت إصبعها على شفتيها ثم قالت:

- هص.. هي نائمة الآن.. لا تصدروا صوتًا كي لا تستيقظ.

تنظر لها ثريا وتضرب كفًّ بِكفٍّ، بينما أحمد يمسكها من يدها محاولًا تهدئتها وإخراجها من الغرفة قائلًا:

- دعاء.. هيا.

فقاطعته دعاء وشدّت يدها بقوة ثم قالت هامسة:

- اخرجوا أنتم، سألحق بكم بعد قليل، لربما استيقظت أمي وأرادت شيئًا، لأبقى انا بجانبها، ها.. دعوني هنا.

ثم تقدمت خطوة ناحية ثريا وتابعت:

- سأخبرها.. سأخبرها بأنكِ كنتِ هنا، سأقول لها بأن صديقتها كانت معنا في انتظارها، سأخبرها لا تقلقي.

التفتت لأحمد مجددًا وتابعت بهستيرية:

- إطمئن.. إطمئن.. لن أخبرها شيئًا بخصوص أدهم، لن أخبرها بشيء، ألم تصدقني؟!، إن كنت لا تصدقني فاسألها عندما تستيقظ، ولكن إن سألَتْكَ عن أدهم ها.. إن سألتك فأخبِرها بأنه تواصل معنا، أخبِرها بأنه في طريقه إلينا ها.. في طريقه إلينا.. أخبِرها بأن الأمور ستتحسن، وكل شيء سيكون على ما يرام، ولكن لا تخبِرها عني شيئًا ها.. لا تخبرها عني شيئًا.

ثم جثت على ركبتيها وشبَّكت يديها ببعضها ووضعتهما على السرير ثم مالت برأسها عليهما وتابعت بلهجة سقيمة:

- إن سألتْكَ أخبِرها أني بخير، لا لا لن أخجلك، سأتظاهر بأنني بخير، سأتظاهر بأن كل شيء على ما يرام، أسمعك تقول بأنني لن أستطيع التظاهر بذلك، لن أخجلك صدقني.

ثم نظرت إلى ثريا وتابعت وهي تبكي:

- ولكن برأيكِ.. هل ستنصاعُ إليَّ عواطفي؟!، هل سينصاعُ إليَّ قلبي وعقلي وتفكيري؟!، هل سيفعلون ما أريد.

وقفت مسرعة وأمسكت بيد ثريا التي تبكي ولا تحرك ساكنًا، شدَّت على يدها ثم أردفت:

- سأحاول كبح مشاعري، وسيشفى قلبي المنكسر، أجل.. أجل.. ستلتئم جراحي كلها، بكلمة منها سيتحسن كل شيء، كل شيء.

حولت نظرها إلى أحمد وتابعت وهي تشهق باكية:

- اليوم.. اليوم بِتُّ وحيدة يا أحمد، لقد ذهب أدهم في طريق اللاعودة، و.. وماتت أمي، لقد أصبحت في موقف لا أحسد عليه.. لقد أصبحت وحدي.

جثا أحمد على ركبتيه أمامها ثم قال وهو يذرف الدموع:

- لستِ وحيدةً يا دعاء، نحن بجانبك، لن نترَكَكِ وحدَك أبدًا.

ثم مسح دموعه وتابع:

- أقسم لك بأنني لن أتركَكِ وحدكِ .

احتضنتها ثريا وهي تنظر إلى صديقتها الممددة أمامها دون حَراك، الجميع يذرف الدموع والجميع يشعر بالآلام، إلا الأفعى التي تقف على الباب منذ فتره تسترق السمع والنظر إليهم، وقفت أمل على الباب لا يحرك مشاعرها أي شيء مما يحدث أمامها، لقد بلغت من الجحود والجمود مبلغه، ثم دخلت بدورها كعادتها تُكَفْكِف عينيها، دخلت لتبادلهم الشعور بالحزن وداخلها يتطاير من الفرح، دخلت ومن خلفها دخلت أمها كوثر، احتضنتا دعاء ثم قالتا لها بعض كلمات المواساة وجلستا بجانبها، ظلت دعاء شاردة الذهن باكية العينين لا تقول سوى جملتين.. ماذا سيفعل أدهم عندما يعود؟!.. وهل سيعود أدهم حقًا؟! ظلت على هذا الوضع إلى أن سقطت جانبًا مغشيًا عليها، هرع أحمد واستدعى لها الطبيب، الذي قام بدوره بإعطائها بعض المسكنات والمهدئات ثم غادر، وضعت عليها ثريا غطاء كي لا تبرد، خرج الجميع وتَرَكْنَها بصحبتها في الغرفة، ظلت تقرأ القرآن بجانب صديقتها إلى أن غَفَت هي الأخرى.

*****

(١٦)

ركض أدهم مسرعًا باتجاه باب البناية العالية، كان بابها مفتوحًا في ممر لا يتخطى طوله عشرة أمتار.. أي بعرض البناية، ولكن ما أثار دهشته عندما دخل من الباب أنه لم يجد أي باب داخلي في هذا الممر، يوجد به مجموعة من الأحواض كل حوض مثبت عليه صنبور، بدأ يسير في الممر إلى أن وصل آخره، كله على النمط نفسه توجد فيه عدة مغاسل، رجع مجددًا تجاه الباب ليتفقد الوضع في الخارج، نظر إلى الحارس الذي يقف على البرج فوجده ما زال جالسًا، خرج من الباب منحنيًا متجهًا نحو البناية الأخرى التي بجانب الجدار الأوسط.. غرفة كامل ووضاح.

تقدم بضع خطوات بجانب البناية العالية ببطء، ظل يتفقد الوضع من حوله، في هذه الأثناء كان هناك حارسان يجوبان المنطقة، تقدم خطوة أخرى، الحارسان يتقدمان في اتجاهه أكثر فأكثر، أصبح على مقربة من غرفة البروجي، افترق الحارسان أحدهما ذهب ناحية البوابة والآخر تقدم باتجاه غرفة البروجي، انبطح أدهم على الأرض بين الزهور كي يستطلع إن كان هناك ما يثير القلق، لم يكن في حسبانه أن القلق ذاته يتقدم نحوه، يتقدم أدهم خطوة تلو الأخرى، اقترب من الوصول إلى نهاية البناية العالية، الحارس يقترب أكثر فأكثر قادمًا من ناحية غرفة الخواجة، يسير بجانب البناية العالية من الجهة الأخرى، سيلتقي به أدهم عند الزاوية، الخطر يقترب منه أكثر، كلما تقدم خطوة كُشِفت هُوِيَّتُهُ أسرع، هما على بعد خطوتين ليتقابلا، الخطر يزداد وهو لا يعلم،

وبينما هما على وشك الوصول إلى الزاوية سمع صوتًا ينادى على الحارس، لقد كان الحارس نفسه الذي ذهب ناحية البوابة، والذي لم يظهر وجهه، فتنبه أدهم وركض مُهَرْوِلًا إلى داخل البناية مرة أخرى، حرَّك باب البناية قليلًا ثم اختبأ خلفه، تعجب أدهم من الحارس الآخر، وكيف لم يَرَهُ وهو في زاوية رؤية تكشف هويته له، ظل مختبئًا خلف الباب ما يقارب الخمس دقائق، لم يشعر بحركة في الخارج حيث الهدوء يسود المكان، قرر الخروج من خلف الباب ومواصلة البحث في جميع البنايات، يقتله الفضول حول معرفة مصدر الصراخ الذي يسمعه كل يوم.

حَرَّك الباب قليلًا حتى يخرج ولكنه تفاجأ عندما سمع صوتًا بجانبه (تك) صوت فتح باب، ولكن أين الباب هذا؟!، نظر إلى أسفل.. هناك شيءٌ يقف عليه بقدمه، قطعة من الجلد مثبتة كي تصد الباب حتى لا يصطدم بالحائط، ولكن عندما رفع قدمه كانت المفاجأة، لقد ارتفعت هذه القطعة إلى الأعلى ما يقارب ربع المتر، أمسك بها أدهم وحركها يمينًا ويسارًا، رفع رأسه نحو المفاجأة الأكبر.. لقد وجد قطعة من الجدار تفتح إلى الداخل، إحدى المغاسل قد تحركت من مكانها قليلًا، تقدم بضع خطوات يتحسس الحائط.. دفع الجدار من جانب المغسلة.. إنه باب سحري.. باب من الجدار نفسه.. كيف هذا!!، دفع الجدار أكثر من إحدى الجوانب فوجده يُفتح بكل سلاسة، قطعة من الجدار مصنوعة من الحديد الثقيل في منتصفها من الأعلى والأسفل تروس، التروس مرتبطة بالعصا التي خلف الباب، عندما تضغط على العصا وتحركها يفتح الباب، لا يستطيع أي شخص تحريك الباب أو اكتشافه من الأساس ما لم يحرك العصا، الباب مثبت عليه مغسلة وديكوره من

الخارج يتطابق مع ديكور الممر، وهو على شكل قطع صخرية، لذلك يصعب إدراك وجوده إلا لِمَن يعرفه.

دخل أدهم وترك الباب مفتوحًا حتى يستطيع الخروج، ولكن ما رآه قد أثار دهشته أكثر من الباب نفسه، المبنى فيه أجهزة عملاقة على هيئة أدراج كبيرة، وبها أجهزة طبية كأنها مستشفى صغير، ظل يتساءل.. لماذا كل هذه الاجهزة؟!.. ولمن؟!.. وما الداعي لوجودها هنا؟! سار ناحية الغرفة الأخرى وفتح بابها، اتسعت حدقتا عينيه وفغر فاه عندما شاهد محتويات الغرفة، الغرفة أشبه بغرفة العمليات الموجودة في المستشفى، كان هذا يوم المفاجآت بالنسبة إلى أدهم، ومع ذلك لم يشعر بأنه انغمس في وكر الأفعى أكثر، لذا كان هذا آخر شيء يراه، لقد جاء أحد الأشخاص من الخلف وضربه على رأسه بعصًا مخدرة لم يَعُدْ يَعِي شيئًا بعدها قط.

****

كانت الساعة قد شارفت على العاشرة صباحًا عندما أيقظتها ثريا، استيقظت دعاء وهي لا تعي ما يدور حولها ولا كيف طال نومها إلى هذا الوقت، وجدت نفسها على سريرها وبجوارها ثريا وكوثر، سرعان ما استرجعت ذكريات الأمس فدخلت في نوبة البكاء مجددًا، نزلت من على السرير واندفعت راكضة تجاه غرفة أمها، اصطدمت بإحدى النساء اللاتي يَقِفْنَ على الباب وسقطت أرضًا، نهضت وتابعت ركضها دون أن تلتفت إليها، كانت تريد أن تبدد هذه الغيوم برؤيتها لأمها، كانت تظن بأن كل الذي حدث هو مجرد حلم ليس أكثر، وعندما دخلت ووجدت الكثير من النساء بجانب أمها، نظرت إلى الجانب الآخر فوجدت النعش فالتفتت إليهن بدأت تقول:

- حلم.. نعم حلم.. هو حلم.. وها أنا ذا أستيقظ من سباتي العميق المرير.. هيا.. هيا.. فلتلكزني إحداكن.. فتجعلني أصحو من غفلتي.. لتلكزني إحداكن حتى أفيق وأجد نفسي قد غفوت على السرير بجانب أمي.. وسأنام مجددًا ويلكزني أحد آخر فأستفيق فأجده قد عاد.. وأصرخُ فَرِحةٌ وأخبرُ أمي بأنه عاد.. وأقول.. سأقول استيقظي لقد عاد.. أدهم عاد يا أمي.. استيقظي كي نفطر سويًا.. استيقظي كي نتسامر سويًا.. كي نلهو ونلعب سويًّا.

بدأت تُقَلِّبُ نظراتها بين المتواجدات في خجل ثم عادت مجددًا نحو أمها، كانت قد تزينت باللون الأبيض بعدما تم تغسيلها، وضعت وجهها في راحة كفيها وقالت بصوت منخفض وعيون باكيه خَجِلة:

- أمي.. استيقظي، أمي لا تُخجليني وسط هؤلاء النساء، أمي لا تمازحيني كثيرًا، أعلم بأنك تسمعينني جيدًا، لا تختبرين صبري فلم يعد هناك أيوب.. هيا يا أمي.. أمي .

لا أحد يرد ولا أحد يلكزها لتستفيق ولا هي في حلم بل هي في واقع مرير، دخل أحمد وأمسكها من يدها وسط نظرات المتواجدات اللاتي ينظرن لها بشفقة، ذهب بها أحمد إلى غرفتها وظل يحدثها هو وأمه عن قضاء الله وقدره وأن عمرها إلى هنا وحسب، إلى أن جاء موعد تشييع الجنازة فذهب أحمد، حاولت دعاء أن تتبع النعش ولكن ثُرَيَّا أمسكت بها ، كانت ترفع يدها وكأنه أمامها في الهواء وتريد الإمساك به، لكن كل ما تفعله لا طائل من ورائه، ولو أنّ الأمر بيدي لقلت لها إنه الوهم الذي تحاولين إمساكه

ليس أكثر يا عزيزتي دعاء، آهٍ ثم آهٍ على حالتك التي قطَّعَت في قلوب الجميع.

*****

استيقظ أدهم فوجد نفسه داخل غرفته مُقَيَّدًا بالأغلال، ظل يحرك رقبته ويتحسس رأسه من الخلف خشية وجود جرح إثر الضربة التي تلقاها، لم يجد جروحًا بتاتًا، نظر حوله فوجد الغرفة مرتبة وتم إعادة تركيب الحديد على النافذة، فُتِح الباب ودخل منه البروجي ومن خلفه بيشوي وشخص آخر، وما أن وضحت الرؤية لأدهم حتى نظر للشخص الثالث وسيطرت على وجهه الدهشة فاغرًا فاه ثم صاح قائلًا:

- مستحيل!.. أنت!.. ماذا تفعل هنا؟!.. أو أنك معهم.

يا للهول إنه الشاب الثلاثيني الذي كاد أن يصطدم بأدهم في البلدة، أثار ذلك الشاب حفيظة أدهم، الذي صاح بهم متابعًا بينما ينظر إليه وضاح مستمتعًا بالهيئة التي أصبح عليها:

- مَن أنتم حتى تفعلوا كل هذا؟! وكيف تفعلون بي هكذا⁈.

صاح به وضاح قائلًا بصوت صاخب:

- هذا فارس.. ابن عمي، نحن عائلة البروجي، نفعل ما نريد، وفي مَن نريد يا أدهم.

- تحاولون إخافتي في الخارج، وتضيقون عليَّ كل السبل كي ألجأ إليكم، يا لكم من وقحين.

تقدم الشاب نحوه ثم قال ببرود واستخفاف:

- لم أستطع أن أصدمك بالسيارة لأننا كنا بحاجتك، ولكني استطعت أن أنقض على رأسك مساء أمس.

- حثالة.. أنتم قذرون بكل ما تحمله الكلمة.

قال أدهم كلماته الأخيرة وتلقى بعدها لكمة قوية، ولكن تلك اللكمة لم تكن من البروجي بل من بيشوي الذي صاح به قائلًا:

- كيف تقول إلى السيد وضاح هكذا أيها الحقير.. ها؟.

قال وضاح وهو يشد بيشوي من ذراعه ضاحكًا:

- اتركه يا بيشوي ينتظره الكثير من التعذيب بعد، فليكن مستعدًّا له حتى يفكر في خرق قواعد البروجي مرة أخرى.

ثم أشار البروجي إلى فارس وتابع بلهجة حانقة:

- واجلبوا تلك الساقطة وقَيِّدوها بجواره حتى تشاهد الشخص الذي كان يتوسل من أجلها ماذا حل به، اجلبوها حتى تتوسل هي من أجله الآن.

ثم التفت إلى أدهم وتابع:

- سأجعلكما تندمان أشد الندم.

أحضر فارس الفتاة وقيدها بجوار أدهم بالأغلال ثم كشف الغطاء عن وجهها، جحظت عيناها عندما نظرت بجوارها فوجدت أدهم هو الآخر مقيدًا لاحول له ولا قوة، ظلت تتوسل إلى البروجي أن يتركه، لكن صاح فيها البروجي قائلًا:

- ها هو الذي كان يحاول إنقاذك، سأجعلكما تتقيئان دمًا حتى لا تُقبلا على عملٍ لا يخصكما.

وقبل أن يكمل البروجي حديثه قاطعه بيشوي قائلًا:

- سيدي وضاح.. اترك هذا الأمر لي، سأجعلهما يندمان أشد الندم .

ضحك وضاح ووضع يده على كتفه ثم قال:

- بيشوي.. رجلي الصادق، حسنًا.. هما لك، ولكن دعنا نذهب قليلًا وعند رجوعنا فلتفعل بهما ما تشاء، حسنًا.

- حسنًا يا سيدي.

ثم خرجوا جميعًا تاركين أحد الحراس واقفًا أمام الباب في الخارج.

*****

خرج يمان من غرفته على حركة مريبة، كان يفكر في أدهم ولماذا لم يأتِ إليه، أوقف أحد الحراس حتى يسأله عما يدور حوله، فلم يَلْقَ لسؤاله إهتمامًا وتابع في طريقه وكأنه غير موجود، ترجّل ناحية غرفة أدهم كي يعلم إن كان هناك خَطب ما لأنه يشاهد الحراس تتوافد من ناحية غرفته، سار تجاه الغرفة وهو يخشى أن يكون أدهم قد أقحم نفسه في مشكلة ما، وبالفعل تأكدت مخاوفه عندما شاهد أحد الحراس يقف أمام باب غرفته متقلدًا سلاحه الناري.

تقدم ناحيته متوترًا قلقًا وما أن اقترب منه نظر إليه الحارس باقتضاب فبادر يمان بالحديث قائلًا:

- هل أدهم في الداخل؟، لماذا تقف أمام غرفته؟!.

رد الحارس بحنقٍ شديد وبصوت صاخب:

- هذا شيء لا يعنيك، إرجع إلى غرفتك .

- كيف لا يعنيني؟!، ألم يقل السيد وضاح أن نفعل ما نريده؟!.

قال الحارس بلهجة ساخرة:

-ولكن زميلك فهم تنويه السيد وضاح خطأ، وأخذ يجوب في الأماكن المحظورة، هيا اذهب من هنا.

صاح به يمان قائلًا:

- ولكن.. ماذا فعل؟!، أريد رؤيته الآن.

ثم نادى بصوت عالٍ:

- أدهم.. ماذا حدث يا أدهم؟!.

انتبه أدهم إلى صراخه فرد عليه قائلًا:

- يمان.. أنقذني يا يمان، لم أفعل شيئًا يا صديقي.

صاح به الحارس قائلًا:

- اغرب عن وجهي وإلا قيدتك معه.

قال يمان وهو ينظر ناحية باب الغرفة على القفل الذي عليه:

- لا تقلق يا صديقي، لا تقلق، لن أتركك وحدك.

ذهب يمان يلتفت خلفه كلما تقدم بضع خطوات، ظل يفكر في الأمر الذي جعلهم يحتجزون أدهم، جال في خاطره شيء ألا وهو ذلك الصوت الذي حدَّثه عنه أدهم.

دخل غرفته وأغلق الباب ثم جلس يفكر ويحدث نفسه قائلًا:

- ماذا لو كان قد اقتحم الجانب الآخر من المزرعة، لقد حدثني عن ذلك الصوت كثيرًا، ولكني لم أتوقع أن يفعل ذلك، نعم لقد رأيت شغفه بمعرفة مصدر الصوت، ولكن كيف؟!.

ثم ضرب بقدمه الأرض مفكرًا بغضب:

- أي متهورٍ أنت يا أدهم!، هل أخبر زين وسهيل؟!، أم أُبقي الموضوع سرًا إلى أن أعلم ماهية الأمر، الأمر معروف.. إن لم يكن تخطي الجدار الأوسط.. فماذا سيكون؟.

صمت قليلًا فاغرًا فاه وكأنه تذكر شيئًا ثم ضرب على جبينه بقوة مفكرًا:

- السارقة!.. أيعقل أن يكون فعلها؟!.

قطع تفكيره ثم هَمَّ وفتح الباب متوجهًا إلى الساحة كي يتفقدها، بدأ يقلب نظره هنا وهناك خشية أن يراه أحد الحراس، تقدم ببطء يتنصت إن كان هناك أحد في الداخل، وعندما لم يسمع شيئًا شق الأشجار ودخل الساحة، تفاجأ عندما وجد السلاسل ولم يجد السارقة ضرب على جبينه وهو يقول لنفسه.. لقد فعلتَها يا أدهم، ثم عاد مجددًا إلى غرفته ثم أغلق الباب وجلس ليفكر فيما سيفعله.

*****

ذهب يمان وتوقف صياح أدهم، بينما تنظر إليه سجود وتمعن النظر في أفعاله وبرود أعصابه وكأنه سيخرج من سجنه بعد قليل، رجعت بظهرها إلى الخلف واستندت إلى الحائط ثم قالت:

- أتعتقد أنه سيفعل شيئًا؟!.

قال أدهم مبتسمًا:

- نعم.. سوف يفعل.

- برأيي أنت تثق بمن حولك كثيرًا

قالت هكذا ثم سكتت لبرهة وانحنت قليلًا للأمام ثم تابعت بصوت منخفض:

- ولكن دعني أقدم لك نصيحة، لا تثق بمن حولك كثيرًا.

استغرب أدهم من هذه النصيحة وفي هذا التوقيت بالذات، فابتسم وقال:

- أنا أثق بنفسي، أثق بما في إمكاني فعله.

ابتسمت ثم قالت بتهكم:

- وما في إمكانك أن تفعله وأنت في هذه الحالة؟!.

نظر في عينيها الأخَّاذة ثم قال:

- بفي إمكاني أن أجعل هذا المكان جحيمًا عليهم جميعًا.

استغربت سجود من كلامه وخصوصًا أنه بدا جادًا في كلامه فقالت:

- وكيف ستفعل ذلك وأنت مقيد بالسلاسل في هذه الغرفة؟!.

قال وهو يرفع رأسه إلى أعلى:

- لم يتطلب الأمر الخروج من هنا، يكفي أن أخبر يمان بما عليه فعله.

- وماذا سيفعل يمان؟!، هل تمازحني؟.

- لا.. أنا لا أمزح.

- حسنًا.. وماذا سيفعل؟!.

- سيعيد تشغيل جهاز التتبع .

تعجبت ثم قالت مستغربة:

- جهاز تتبع!، أيّ جهاز هذا!، وأين هو؟!.

- نعم جهاز تتبع بحجم عقلة الإصبع، جلبت معي ساعة حديثة فيها شريحة إنترنت، ما أن يتم تشغيلها، سيعلم صديقي أحمد موقعي، ومن ثَم سيخبر الشرطة، ومن ثم ستأتي.

قالت بعدما غَشِيَتْ وجهَها ملامحُ الدهشة:

- مستحيل!!.. كيف فكرت في هذا؟!، وكيف لم يتم كشفه عندما تم تفتيشك؟!.

- لأنه لم يكن معي حينها.

ازدادت حيرتها ثم عادت لتسأل مجددًا في لهفة:

- لم يكن معك!، إذن أين كان؟!.

همس وهو يقترب منها:

- لقد لصقته بواسطة مغناطيس صغير في السيارة.

- سيارة!.. أي سيارة!.

- السيارة التي أتيت بها.

- ولكن.. ولكن قد يكون سقط عند تحرك السيارة.

- لا أعتقد ذلك، لقد وضعته في مكان من الصعب جدًا سقوطه، ومن الأصعب اكتشافه.

قالت بلهفة وكأن حديثه بدا مشوقًا:

- أين وضعته؟!.

قال ببلاهة:

- لقد لصقته على شاسيه السيارة من الأعلى.

أومأت برأسها ثم ابتسمت وقالت:

- ادْعُ بألا يعثر عليه أحد.

ثم رجعت إلى الوراء وتنهدت وهي ترفع رأسها إلى لأعلى وتحملق في السقف ثم أغمضت عينيها وكأنها ستنام، إلى أن دخل

الحارس ووضع أمامهما الطعام، فتحت عينيها عندما دخل وبدأت تتناول طعامها، وكذلك أدهم ظل يأكل حتى أنهى طبقه كله، وبعدها بدقائق غلبه النعاس واسترخى جسده إلى الوراء، فك الحارس سجود وأخذها إلى الخارج وأخبرها أن البروجي ينتظرها، وها هما يسيران في طريقهما تجاهه، بينما ينظر إليهما يمان من بعيد وقد تفاجأ بدوره عندما رآها.

*****

خرج يمان من غرفته بعدما شاهد الحراس يصطحبون سجود إلى ناحية الطريق الرئيسي، فَطِن حينها بأنهم يأخذونها إلى البروجي، ذهب إلى غرفة زين بجواره مباشرة وأخبره بأنه سينتظره في غرفة سهيل، طرق الباب عدة طرقات حتى جاءه الرد من الداخل، فتح سهيل الباب وقد بدت ملامحه بأنه كان نائمًا، فسح له المجال كي يدخل ومن بعده دخل زين الذي بدت على وجهه ملامح القلق، لقد شاهد الوضع غير المستقر في المزرعة ولكنه كان يتساءل.. لمن الجلبة؟!.

نظر له سهيل باستغراب فهو لا يعي شيئًا في الخارج، بسبب نومه فبطبيعة الحال كان يحب النوم كثيرًا، ثم نظرا إلى يمان الذي تحدث قائلًا:

- أتتذكرون الصوت الذي أخبرنا عنه أدهم الذي يأتي من الجانب الآخر من المزرعة؟.

نظرا إليه في حيرة واستغراب أكثر بعدما غلب عليهما الفضول لمعرفة ماهية الأمر وخصوصًا أنه يتعلق بأدهم فقالا:

- نعم.. ماذا به؟!.

ثم عاد يمان ليسألهما مجددًا:

- وتتذكرون بالطبع السارقة التي سرقت المؤونة من مخازن البروجي.

صمت هنيهة ينظر إلى تعابير وجههما حتى يشاهد ردة فعلهما ثم تابع:

- لقد أقحم أدهم نفسه في عمل منهما، إمَّا أنَّه حاول تهريب السارقة وهذا أمر صعب جدًا، أو حاول اختراق الجانب الآخر من المزرعة وهذا أمر مستحيل.

بدت علامات القلق والتوتر تسيطر على وجه زين بينما سهيل بات مندهشًا مستغربًا، فبادر بالسؤال قائلًا:

- ولماذا يحاول تهريب السارقة وهو يعلم بأنه لن يستطيع أن يفعل ذلك؟!، وخصوصًا هي لا تعتبر مظلومة إن كانت سارقة فعلًا؟!.

قال يمان:

- لقد فَطِنتُ إلى ذلك عندما شاهدتُه يدافع عنها ويطلبُ لها العفوَ من البروجي، وتأكدتُ بأنه سيفعلها عندما أخبرني بأنه لن يترَكها تحت ظلم البروجي.

- أَخْبَرَكَ!.. مَتَى أَخْبَرَكَ؟!.

قال زين هكذا مُسْتَغْرِبًا ثم صمت بضع لحظات ثم عاد ليقول بتوترٍ مجددًا:

- وكيف لا يخبرنا بما ينوي فعلَه؟!.

قال سهيل مفكرًا:

- شخص كأدهم ربما فعل ذلك لشيء يعلمه هو، أو كي لا نعيقه، إذن ما علينا فعله واضح.

نظر إلى كليهما ثم تابع:

- سنعمل على تحرير أدهم مِن الحَبْس.

فقال يمان بعدما تأكد بأنهم سيكونان ذوي نفعٍ في هذا الأمر وأنهم لن يتخاذلوا في إنقاذ صديقهم:

- لقد أعلمني بالأمس، عندما سألته بشأن إبلاغكما فقال سأخبِرُهُما في الوقت اللازم، حتى لا أقحمهما في مشكلة ما بدون سبب، وقد لا يكونا يريدان أن نشركهما في ذلك.

نظر إليهما بعدما صمت قليلًا ثم تابع:

- لقد خَشِيَ أن يحدث لكما شيء .

فقال زين بعدما سيطر حماسه على توتره:

- إذن كما قال سهيل، سنعمل على تحرير صديقنا من الحبس.

****

فَزِعَ أدهم من غفوته بعدما اصطدمتْ كميةٌ كبيرةٌ من الماء في وجهه بقوة، استيقظ وبدأ يفتحُ عينَيْهِ ويُغْلِقُهما ليملِّي النظر في الشيء الذي أمامه، إنه شيء صغير يتأرجح يمينًا ويسارًا شيء مربوط في خيط، شيء بحجم عقلة الإصبع أسود اللون، اتسعت حدَقَتَا عَيْنَيْه بعدما حدد هوية الشيء.

كانت مفاجأةً صادمةً له وخيبةَ أملٍ كبيرةً عندما حوَّل نظره إليها، هي التي تقف بجوار البروجي بدون أغلال حُرَّةً طليقةً، بل وبدا عليها بأنها آمرة ناهية في هذا المكان.

فصاح قائلًا:

- لا.. مستحيل!، أنتِ!، هل فعلتِ ذلك عمدًا؟!، كنتِ متواطئةً معهم من البداية.

ثم ضحك ضحكًا هستيريًّا وتابع:

- وأنا.. وأنا فعلتُ كلَّ شيءٍ لأنقذكِ من هنا، فعلتُ كل شيء لأجعلكِ حُرَّةً، بينما أنتِ ها، بينما أنتِ ماذا فَعَلْتِ!.

نظر لها بتهكم واشمئزار ثم تابع:

- ولكن كيف؟!، كيف كنتِ تصطنعين تلك البراءة والإنكسار؟!، هيا.. أخبِريني كيف!، كيف كنتِ تصطنعين الضعف وقلة الحيلة.. ها، وبينما أنا أحاول تحريرك من البئر أنتِ كالأفعى لَفَفْتِ ذيلك على رِجْلَيَّ وألقيتِ بي في هُوَّة الجحيم .

قلَّبَ نظراِته بين المتواجدين كانوا أربعة البروجي وبيشوي والحارس الذي يمسك بالساعة وهي التي تقف بجوار البروجي، ثم ضحك محدثًا قهقهة عالية وقال ساخرًا:

- أتدري يا عزيزتي.. لم أَخَفْ يومًا من هذا المكان العجيب.. ولن أخافَ.. ولم أخف يومًا من الحراس الذين يتقلدون أسلحتهم في الخارج.. ولن أخاف.. ولم أخف من هذا السمين الذي يقف بجوارك.. ولن أخاف.. ولكن الخيانة.. الخيانة يا عزيزتي هي التي كنت أخاف منها.. ولا أزال أخاف منها.. لكن دعيني أكون صريحًا معكِ.. لم يكن لكِ ذنب في ذلك.. المشكلة بي أنا.. أنا الذي أعطي الثقة إلى أناسِ ليسوا أهلًا لها.. بل لا يعلمون عنها شيئًا.

بدت وكأنها تأثرت من كلماته، وظلت تدير وجهها بعيدًا عن البروجي خشية من أن يتبينَ له ذلك إن نظر إليها، بينما اقترب منه البروجي ومن خلفه بيشوي يحمل سلاحه الرشاش والحارس الآخر الذي جعله ينهض تزامنًا مع اقتراب البروجي.

أمسك البروجي بعنقه وبدأ يتراشق من فمه على وجه أدهم رَذَاذٌ وهو يقول:

- أنتَ.. هل تعتقد بأنك أذكى من الجميع؟!، هل تعتقد بأننا أغبياء إلى درجة أننا لا نعلم شيئًا كهذا؟!، ها قد رأيت كيف تغلبت عليك.

قال أدهم:

- في الغالب أنا لا ابوح بسري إلا لشخص وحيد مهما حدث ومهما كنتُ في ضغوطات .

ثم نظر إليها وهي تقف خلف البروجي مباشرة تفرك أصابعها ببعضها البعض وتابع:

- الخيانة.. إنها الخيانة يا عزيزي، لولا أن أحدهم خان الثقة لَمَا كنتُ فِي وضعٍ كهذا الآن، ولكن لدي سؤال، هل اسمُكِ سجود فعلًا أم اسم مزيف كظاهركِ، هذا الاسم البريء لا يتماشى مع أفعى خبيثةٍ مثلك.

ونظر إلى بيشوي ثم أردف:

- ولا أعلم صراحةً هل هناك أحدٌ آخر قد خانني؟!، ولا أعلم إن كان أحدهم سيخون .

رفع البروجي عنقه إلى أعلى ثم قال:

- الغريب يا أدهم أنك لا تأخذ بنصائح أحد، أو بالأحرى لم تفكر في نصيحة ما، أتتذكر عندما قلت لك إن كنتَ ستطلب العفو فاطلبه لنفسك لا من أجل الآخرين؟.

ضحك ثم أردف:

- لا تقلق.. لا توجد خيانة أخرى لأنك لن تعيش طويلًا.

حَرّكَ أدهم رأسه لتكون أمام وجهه مباشرة ثم بصق في وجهه، تركه البروجي وأخذ ينظف وجهه، بينما وضع بيشوي يده على أخمص سلاحه وضربه في بطنه بضعة ضربات توحي بأنها موجعة، خرج البروجي وهو يردد بعض الكلمات يتوعدُ فيها أدهم بالقتل،

ومن ثَم خرجت سجود خلفه والحارس الآخر، ثم توقف بيشوي عن تسديد الضربات إلى أدهم بعدما شاهد الجميع قد خرج، توقف وكاد أن يتحدث لولا أن نادى عليه البروجي من الخارج، أدار ظهره لأدهم وهَمَّ بالسير ناحية الباب، استوقفَتْهُ كلماتُ أدهم التي قالها، نظر إليه مرة أخرى وهو على مقربة من الباب فكرر أدهم كلماته مجددًا حيث قال:

- ظننتُك تختلف عنهم يا بيشوي، ظننتُك تختلف عنهم، لكنني كنت مخطِئًا في ظني.

خرج الجميع وتوجهوا ناحية الإستراحة التي يجلس فيها البروجي، كان البروجي يسير في الأمام بجواره سجود، ومن خلفه مباشرة الحارس وعلى بعد خطوتين منه يسير بيشوي، والذي سمع البروجي يخبرها بأنها قد اقتربت خطوة أخرى من لَمّ الشمل، كان يعتقد أن لمّ الشمل هذا هو الزواج بها وهذا ما توحيه الكلمة، صدر رنين هاتف البروجي فابتعد بعيدًا عنهم وأمرهم بمتابعة السير، لن تطول المكالمة كثيرًا، فما أن فتح المكالمة حتى قال الطرفُ الآخر:

- أخبِرني هل وجدتها؟، لقد أخبرتَني بأنك عَلِمْتَ مَكَانَهَا.

- نعم لقد وجدتُها في المكان الذي قال عنه.

- هل تأكدتَ بأنه ليس معه شيءٌ آخر؟.

- بالطبع تأكدتُ، هو مقيد الآن لا حول له ولا قوة، لقد أنقذتنا من كارثة كانت ستكون هلاكنا.

- إذن.. أخبِرني إن حدث جديد في الموضوع.

- حسنًا.

ثم أنهى المكالمة وهمَّ ليلحق بهم، ما أن وصل الإستراحة حتى دخل كامل من البوابة الرئيسية، جلس بصحبتهم فأخبره وضاح عما حدث، كان بيشوي يجلس بالقرب منهم وسمع ما قالوه، ولكن هناك كلمات عندما سمعها تملَّكَتْهُ الدهشةُ والإستغراب.

*****

(١٧)

ذهب الجميع من الداخل ولم يتبقَّ بجانب دعاء سوى أحمد وأمه وأمل وبعض الجيران، تجلس ثريا بجانب دعاء التي ما زالت غير مستوعبة لما حدث، نوبة البكاء لَمْ تَزَلْ مستمرة وكأنها ادَّخرت نهر دموعها الجارف إلى اليوم، الجميع يدخل ليقدم واجب العزاء والجميع يقدم لها المواساة، خرج أحمد بعدما إطمأن على حالتها إلى خارج المنزل، حيث يقف مازن وعاصم بيه بنفسه وحازم لاستقبال المعزين، كان القارئ يتلو ما تيسَّرَ مِن آيات القرآن الكريم، وعندما بلغ قول الله تعالى بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ " يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي" صدق الله العظيم، خَرّ أحمد باكيًا فهي كانت من النفوس المطمئنة إلى ذِكر الله والإيمان به، وبما أعدَّه من النعيم للمؤمنين، وها هي رجعت إلى ربها راضية بإكرام الله لها، والله سبحانه سيرضى عنها بإذنه جل وعلا، فيدخلها في عداد عباده الصالحين إن شاء، والجنة التي تنتظرهم، الجميع يعلم كم كانت صادقة قائمة صائمة لا ترد سائلًا ولا محتاجًا.

بينما تجلس أمل على كرسيها اهتزَّ هاتفها عدة اهتزازات، أخرجت الهاتف من حقيبتها ونظرت فيه نظرة طويلة على إثرها ابتسمت، لاحظت أنها في مكان لا يجوز الإبتسام فيه أو حتى الإنشغال بالهاتف، خرجت متجهةٌ ناحية الحمام، دخلت وأغلقت

الباب بإحكام ثم أخرجت الهاتف وبدأت تقرأ كلمات الذي يراسلها، قد أرسل لها عدة رسائل فحواها كالتالي:

- لقد وجدوا جهاز التتبع، لقد أحسنتِ صنعًا يا عزيزتي.

بدأت بالرد عليه فكتبت:

- هذا خبر جيد، ولكن هل انتهى أمره؟.

- مسألة وقت ليس أكثر.

- حسنًا.. أتطلع إلى اليوم الذي سنجتمع فيه.

- قريبًا يا عزيزتي قريبًا، ولكن فلتمر أيام الحداد عليه وعلى أمه أولًا .

سمعت طرقاتٍ على بابِ الحمام فكتبت له في عجالة:

- سأذهب الآن هناك أحد قادم.. إلى اللقاء.

ثم وضعت الهاتف في الحقيبة وبلَّلت يدها بالماء ثم خرجت، تمسح يدها في منديلها ومن ثم تكَفكِفُ عينَيْهَا وهي في طريقها إليهم.

بعد فترة من الوقت بدأت الحشود تتفرق وبدأ السكون يعم المكان، ذهب الجميع ولم يتبقَّ سوى أحمد ووالدته بجوار دعاء، لقد ذهب عاصم بحجة أنه سيذهب إلى المزارعين في الصباح الباكر وكالعادة لحق به حازم، بينما مازن ما زال يجلس في الخارج في انتظار أحمد ليشدَّ من أزره، هو يعلم جيدًا كم تعني والدة أدهم له

هي بمثابة أمه، بالأمس فقد صديقه واليوم فقد والدته يا لها من مأساة.

*****

تسللت سجود وسط الأشجار متجهة إلى غرفة أدهم، كان الظلام يسيطر على المكان بين الأشجار، وقبل أن تخرج إلى الطريق نظرت حولها لتتفقد الوضع، لا يوجد أحد في الطريق ولكن الحارس ما زال واقفًا أمام الباب، مما جعلها تتوقف عن المتابعة خشية من أن يَشِي بها، انتظرت ما يقارب العشر دقائق تفكر فيما ستفعله، لقد حسمت قرارها بالعودة وها هي ترجع خطوة إلى الخلف كي تستدير وتذهب، ولكنها توقفت عندما شاهدت حارسًا آخر يقترب من هذا الحارس، وقف معه لِلحظات ثم ذهب معه إلى ناحية الطريق الرئيسي، ظلت بضع دقائق أخرى حتى تطمئِن أنهم لا يفعلون ذلك حتى يعلموا ما ستفعله، وعندما وجدت السكون يعم المكان ولا يوجد أحدٌ قادم تقدمت تجاه باب الغرفة، فتحت الباب دون أن تطرق عليه لتجد أدهم ممددًا على الأرض مسندًا ظهره إلى الحائط، اقتربت منه قليلًا فوجدته نائمًا فاقتربت أكثر، جلست على ركبتيها واقتربت منه أكثر مدت يدها حتى تمسح بها على وجهه، وقبل أن تلمس وجهه فتح عينيه فجأة ثم قال:

- ألم أقل لكِ بأنكِ مثل الأفعى، ولكن هذه المرة أنا متيقظٌ جيدًا، عجبًا لهذا الوجه الملائكي كيف يخون!، ولكن هل لي من سؤال؟.

أومأت برأسها بينما التمعت عيناها فتابع أدهم قائلًا بتهكم:

- كيف لهذا الوجه الجميل أن يتشكَّل كالحرباء؟! ها، أخبريني من فضلك، أظن أن هذا سؤال مشروع لشخص سيموت بعد بضعة أيام، وأخبريني أيضًا كيف تُجِيدِين التمثيل، لقد حاولتُ كثيرًا ولكنني أفشل في كل مرة.

ثم نظر لها نظرةً حانقة وتابع:

- والسؤال الأهم.. ما الذي جاء بكِ إلى هنا؟.

انتهى أدهم من أسئِلته ولزم الصمت، ينتظر إجاباتٍ عليها من سجود التي لزمت الصمت هي الأخرى، ساد الصمت لبضع دقائق وبدأت تلتمع عيناها، إلى أن كسر ذلك السكون بقوله:

- إن لم يكن لديكِ إجابات فاذهبي، لا أريد أن أرى ذلك الوجه المشؤوم.. هَيَّا اذهبي.

تحركت قليلًا واستندت إلى الحائط بجواره ورجعت برأسها إلى الوراء ثم قالت:

- سجود.. اسمي سجود لم يكن مزيفًا كما قلت سابقًا، وإن كان ظاهري مزيفًا من وجهة نظرك، فباطني عكس ذلك تمامًا، اسمي سجود، أو كما ينادوني في العمل.. الدكتورة سجود.

اتسعت حدقتا عَيْنَيْه غيرَ مُصَدِّقٍ لما سمعه فقال في تعجب:

- دكتورة!!.. ها.. كيف؟!، وما عملك مع هؤلاء؟!.

تابعت سجود قائلة:

- منذ شهرين تقريبًا اتصل بي رجل وأخبرني بأنه يريد أن يجري عملية جراحية لأخيه.. أخبرته أن يأتي إلى المستشفى الذي أعمل به فرفض.. أخبرني بأنه سيدفع لي ما أريده.. فرفضت تمامًا.. فأنا لا أحب هذه الصيغة من العمل.. رفضت على الفور أن أقوم بعمل كهذا.. ثم اعتذرت منه وأغلقت الهاتف.. عاد ليتصل بي بعد يومين.. أخبرني بلهجة تهديد بأنه ينبغي عليَّ أن أفكر جيدًا قبل الرفض.. فجال في خاطري أن إغلاق الخط هو أفضل رد عليه.. ومن ثَم فعلت ذلك.. بعدها بثلاثة أيام اتصلت بي إحدى المعلمات من المدرسة التي فيها ريتاج ومايا أُخْتَاي الصُّغْرَيَان.. لقد مات أبوانا منذ سنوات.. لم يتبقَّ لي غيرهما.. اتصلت بي المعلمة وأخبرتني بأنه جاء أحد أقاربنا وأخذهما.. وأخبرها بأنه سيصطحبهما إليَّ.. وعندما سألتها في ذهول عن هويته.. أخبرتني بأنه شاب ثلاثيني وسيم الوجه.. اكتشفتُ بعدها بأنه فارس ابن عم البروجي.. ما أن أنهيت المكالمة.. حتى بدأت أبحث عن رقم إحدى صديقاتي.. زوجها ضابط شرطة.. دق جرس هاتفي.. وعندما أجبتُ وجدته الرجلَ نفسه.. قال لي بصوته الغليظ.. إن كنتِ تريدين أن تشاهدي أُخْتَيْكِ سَالِمَتَيْنِ فعليك أن تأتي إلى هنا لإجراء العملية.. وسرعان ما انصعت إلى طلبه.. أرسل لي سيارة لكي تنقلني.. ولكن المفاجأة لم تكن في العملية كما قال.. لقد كان هناك شيء أخطر من ذلك بكثير.

قالت هكذا ثم تنفست الصعداء ليسأل أدهم الذي بدا مقتنعًا بكلامها:

- وما هو ذلك الشيء الخطير؟!.

ردت عليه بسؤال على سؤاله قائلة

- ألم يَجُلْ في خاطرك وأنت تحفر لماذا تحفرون بشكل مربع؟، وجميعكم يحفر في الحفرة ذاتها، ألم تفكر بأن التنقيب عنِ الذهب يكون على هيئة نفق في الأرض وليس على هيئة مربع مساحته لا تقل عن عشرين متراً؟.

قال أدهم بعدما تملكته الحَيْرَةُ والإستغراب:

- ماذا تقصدين؟!، نعم لقد فكرتُ في الأمر، ولكن لَمْ يُجْدِ التفكير نفعًا.

ثم حملق إليها وكأن تفكيره ذهب به إلى إجاباتٍ أخرى فتابع:

- هل ما أفكرُ به صحيح؟؟.

اقتربت منه بعدما أيقنت بأنه قد أدرك ماهية الأمر ثم قالت:

- أنتم تحفرون قبوركم بأيديكم.

اندهش بعدما سمع هذه الكلمات وكأن تفكيره ما زال عاجزًا عن تفسير ما سمعه فقال:

- ماذا؟!.. أعتقد أن هذا الوقت غير مناسب للمزاح.

اقتربت منه أكثر ثم قالت:

- عندما أتيت إلى هنا علمت بأنهم يتاجرون بالأعضاء، يخطفون الأشخاص من كل مكان، ثم يسرقون جميع أعضائهم التي تصلح إلى البيع، ثم يدفنونهم في الأماكن التي يحفرونها، ثم يقتلون من لهم علاقة بالأمر، أي الشاهد على

العملية، ألا وهو أنا وأنتم، لقد خضعت إلى كلامه ظنًا مني بأنني سأستطيع إنقاذهم، لكن الموعد يقترب، لقد اقترب موعد سرقة أعضائهم، عندما يأتي شخص يدعى الخواجة سيشرعون في ذلك، وأنا لا أستطيع أن أفعل ذلك.. ولن أفعل.

- حتى وإن كانت أُختَاك بأيديهم؟.

تلألأت الدموع في عينيها وهي تقول:

- أنا لا أستطيع إجراء عملية على جسد حي، ولن أفعل، حتى وإن كان حياتي وحياة أُخْتَيَّ هي الثمن.

- وماذا ستفعلين إن لم تستطيعي الهرب مع أُختَيْكِ؟.

- سأمتنع عن العمل.

- سيأتون بغيرك.

مسحت دموعها ثم أجابت:

- على الأقل أكون قد منحتهم فرصة لأيام أخرى يعيشونها قد كتبها الله لهم، حينها تكون الحياة عادلة.

ساد السكون مجددًا للحظات إلى أن كسره أدهم قائلًا:

- ولماذا عليَّ تصديقُكِ؟!.

وقبل أن ترد تم فتح الباب ودخل بيشوي، فزعت سجود من موضعها بعدما أيقنت أن نهايتها قد حانت، إنها تعلم جيدًا أنه علي مقربة من البروجي، أغلق بيشوي الباب بإحكام ثم تقدم نحوها

يمسك بيده سلاحه، ظل يذرع الغرفة جيئة وذهابًا ثم التفت إليهما وقال بعدما سيطر عليه الوجوم:

- أوغاد.. تكالبوا عليه وقتلوه.

ثم التفت إلى سجود وبعدها إلى أدهم وتابع:

- إن الفتاة صادقة في كلامها.

تفتحت وجنتاها بعدما أصابها الفزع، وسَرَتِ الدماءُ في عروقها مجددًا بعدما تجمدت، التفتت إلى أدهم وجدته ينظر إلى بيشوي ويقول بسخرية:

- وكيف لي أن أصدقك أنت الآخر، وأنت متواطئ معهم في كل شيء، في كل شيء.

توجه بيشوي نحوه مندفعًا ليمسكه من قميصه ثم قال بلهجة حانقة:

- لم أكن أعلم ماهية الأمر، لِمَ لا تصدقني، وإن كنت ما زلت ممتعضًا لأنني ضربتك، فعليك أن تشكرني بدلًا من ذلك، أن أضربكَ أنا وأمتص غضب البروجي، أفضل بكثير من أن يجعلهم ينهالون عليك ضربًا قد يهشم عظامك.

قال أدهم بلهجته الساخرة نفسها بعدما سمع لهجة صوته التي تبين مدى صدقه:

- كنت أعتقد بأنك تختلف عنهم.

أشاح بوجهه ثم قال بلهجة حانقة:

- بالفعل أنا أختلف عنهم، بل أنا لا أشبههم من الأساس، ولا هي.. لقد سمعت وضاح وكامل من قبل يتحدثون عن ساعة ما ولكن لم أكن أعلم أنك أنت الشخص الذي يتحدثون عنه، وسمعته اليوم يقول لها لقد اقتربتِ خطوة من لمّ الشمل، ظللتُ أفكر في الأمر فلم أتوصل لشيء، مما جعلني أستدرج كامل في الحديث مازحًا معه بأن وضاح يريد الزواج منها، فأخبرني بكل شيء يخص الفتاة.

- وكيف أخبرك كامل؟! ها، هل هو ساذج إلى ذلك الحد، هل تظن أن تنطلي عليَّ لعبتكم هذه مرة أخرى، لم أعد أثق بأي أحد، هل سمعتني.. لم أعد أثق بأحد .

تنهد بيشوي ثم توقف عن السير في الغرفة ونظر إليه ثم قال:

- ألم تسأل نفسك عندما دخلت القسم الآخر من المزرعة.. مَن الحارس الذي كان ينادي على الحارس الذي كان على بُعد خطوة منك؟، بالمناسبة لقد أيقنتُ حينها بأنك ستراني ومع ذلك كنت أضع غطاء الرأس على وجهي كي لا تعرفني، ألم تسأل نفسك ها؟

صمت بيشوي مرة أخرى ثم عاد ليضرب الغرفة جيئةً وذهابًا إلى أن توقف عندما قال أدهم:

- ولكنك لم تقل، مَن الذي قتلوه؟، وكيف إنصاعَ لك كامل؟.

جلس بيشوي على ركبتيه ثم نظر إليهما وقال:

- روماني حنّا.

قال أدهم مستغربًا:

- مَن روماني حنّا؟!.

فتابع بيشوي الحديث قائلًا:

- سأروي لكما قصته.

- حسنًا.

- منذ قرابة العشرين عامًا كان يعمل روماني حنا مع البروجي الكبير، كان يسكن في البلدة المجاورة التي يسكن فيها البروجي الكبير.

قاطعه أدهم قائلًا:

- ألم يكن يسكن هنا في البلدة المجاورة للمزرعة؟.

- لا.. ستعلم كيف جاء إلى هنا.

ثم عاد ليكمل قصته قائلًا:

- كانت أسرة روماني مكونة من ثلاثة أفراد.. هو وزوجته وابنه ماجد.. كان يعمل معه صديق له يدعى عيسى.. توفيت زوجة عيسى بعدما أنجبت له ابنه الأول بسنة.. لقد سماه إلياس.. كان يتركه مع زوجة صديقه روماني طوال المدة التي كانوا يذهبون فيها إلى العمل.. أحيانًا كانوا يغيبون ما يقارب الثلاثة أشهر وأكثر.. كان ماجد آنذاك في عمر الثامنة.. كان البروجي يعمل في التنقيب على الذهب.. لقد كان مهووسًا بحب المال.. وبالرغم من عدم استطاعته في إخراج اي شيء في كل

مرة يحفرون فيها.. إلا أنه كان يصرُّ على أنها قادمة لا محالة.. كان ابنه وضاح في الثالثة والعشرين من عمره.. بينما كامل كان لا يزال في سن السادسة.. لقد تزوج البروجي الكبير والدة كامل وأنجبه بعدما توفيت والدة وضاح بفترة.. وبعد فترة طويلة من الإصرار والمثابرة.. وجد البروجي الكنز المفقود.. بدأ يستوحش.. في تلك الأثناء شعر روماني بأنه يقدم على الخطر بأقدامه.. فقرر أن تذهب زوجته وابنه ماجد إلى بلاد بعيدة جدًا.. بلاد لا يعرفهم فيها أحد.. حينها قرر عيسى أن يصطحبوا ابنه إلياس معهم.. الذي بلغ وقتها ست سنوات.. بينما ماجد كان قد بلغ الثلاث عشرة.. أي بلغ السن الذي يعي جيدًا ما عليه فعله.. ذهب ماجد برفقة أمه وإلياس إلى قرية في محافظة بعيدة جدًا.. انقطعت عنهم أخبار روماني وعيسى لفترة طويلة.. وحينما قرر روماني أنه سيبتعد عن هذا العمل.. بحث البروجي عن عائلته كي يهدده بها.. ولكن كل محاولاته باءت بالفشل.. وفي الوقت نفسه كان روماني لا يتردد على زوجته حتى لا يعلم البروجي.. كان يذهب عيسى إليهم بين فترات طويلة للإطمئنان عليهم.. وذات يوم بعدما بلغت ثروة البروجي مبلغها.. اشترى هذه المزرعة التي نحن فيها الآن.. وحفر تحتها أنفاقًا كثيرة.. كل هذا كي يخلق متاهة لا يعرف أحد تخطيها إلا من يعلم رموز الطريق.. وكل هذه المتاهة حتى يخبِّئَ ما يملكه من ذهب وأموال فيها.. في هذه الأثناء لم يكن يعلم بأمر المتاهة إلا الأشخاص الذين حفروها.. وهم روماني وعيسى ووضاح وشخصان آخران كان يثق بهم البروجي كثيرًا.. بل كانوا شركاءَه في هذه الثروات الطائلة.. ذات يوم وهم يحفرون في أحد الأماكن التي فيها

الذهب انقضت عليهم الشرطة.. تبادلوا إطلاق النار بينهم.. أصيب عيسى في ساقه.. ركض عليه روماني كي يحميه من وابل الرصاص المصوب نحوه.. فأصيب في ذراعه هو الآخر.. انتهى بهم الأمر إلى أن هربوا جميعًا من الشرطة تاركين ما وجدوه.. أصبح عيسى ملازمًا الفراش.. لا يستطيع أن يتحرك أبدًا.. وبعدما داهمتهم الشرطة بيومين تمت سرقة كل شيء من المتاهة.. كل شيء.. لم يتركوا ولو جرام ذهب واحد.. ولكن السارق لا بد أن يبعد الشبهة عنه.. أخذ أحدهم الخاتم الخاص بروماني وألقاه أمام الخزنة.. لم يكتفِ بذلك وحسب.. بل وضع بعض الدماء على جانب الخزنة حتى إذا لم يجدوا الخاتم تجعلهم الدماء يشكون في شخص واحد.. وهو روماني بالفعل.. وبالفعل هذا ما حدث.. جن جنون البروجي وولده عندما علموا بالسرقة.. وعندما شاهدوا الدماء جال في خاطرهم شخص واحد.. وتأكدت شكوكهم عندما وجد وضاح الخاتم.. ولكن طوال هذه الليلة كان يجلس روماني بجوار صديقه عيسى.. جاء وضاح وأمسك بروماني وظل يدفع به وينعته بكلمات بذيئة.. تحامل عيسى على نفسه وبدأ يسند على الجدار ليذهب خلفهم.. أخذ يسير على قدم واحدة حتى يخبرهم بأنه كان بجواره طوال الليل.. وقبل أن يصل إليهم سمع صوت إطلاق النار يدوي في الأرجاء.. على أثرها سقط روماني صريعًا.. نظر إلى وضاح فوجده يوجه سلاحه ناحية روماني الغارق في دمائه ويطلق طلقة أخرى ثم واحدة تلو الأخرى.. ظل يصرخ ويقول لا.. هو لم يفعل شيئًا.. لم يسرق.. لقد كان معي طوال الليل.. ولكن دون جدوى.. نظر له وضاح وقال له.. إن لم تكن الإصابة التي في

ساقك لقلت بأنك شريكه.. وبعدها بعدة أيام عَلِم البروجي الكبير بأن من سرقوه هم الذين وثق بهم كثيرًا.. لقد سرقه شركاه.. مرت بضعة أيام أخرى يشعر فيها عيسى بالذنب لأنه يعمل مع قاتل صديق عمره.. فتظاهر بأنه لا يستطيع المشي.. ولأنه يعلم أن البروجي الكبير سيرأف بحالته تعويضًا عن صديقه الذي قتله بدون ذنب.. قرر عدم العمل معه.. وعندما أخبره وافق البروجي ولكن بشرط.. وهو ألا يتفوه بكلمة لأي أحد.. وإلا سيأتي به ولو كان في قاع البحر..ومن ثَم ذهب عيسى في طريقه.. توارى بضعة أشهر إلى أن كَفَّ البروجي عن مراقبته.. ثم ذهب إلى ماجد وإبنه إلياس.. توفيت والدة ماجد بسبب مرض خبيث.. ذهب عيسى إليهم بعد فترة طويلة جدًا قضاها غريبًا.. كانوا ينتظرون عودة كلاهما.. ولكنه أخبرهم بأن صديقه توفى في حادث.. وأنه كان معه لكنه نجا منها بمعجزة.. لم يتأثر سوى ساقه.. وبعد مرور عدة أعوام قضاها معهم.. قد بلغ فيها إلياس أشده وأصبح قوي البنية.. بينما ماجد في ريعان شبابه صاحب التسعة والعشرين عامًا.. مرض عيسى مرضًا شديدًا.. وبينما هو يحتضر أخبر ماجد بكل شيء.. فعزم ماجد على الإنتقام لوالده.. وسانده إلياس في ذلك.. ذات يوم بعدما قرروا ما سيفعلونه.. كان كامل ذو الإثنين والعشرين عامًا في طريقه إلى المزرعة.. كان يركب سيارته وحده عندما قطعت سيارة طريقه.. وقبل أن يمسك سلاحه كان هناك شخص آخر يركب دراجته النارية يقف بجواره يصوب سلاحه على راسه.. ثم أنزله من سيارته.. جاء بعدها ثلاثة أشخاص وانهالوا عليه ضربًا.. وبينما أخرج أحدهم خنجرًا من خصره ليطعنه به..

جاءته طلقة في صدره مباشرة.. التفت الأشخاص الذين معه إلى الخلف ناحية صوت إطلاق النار.. ليتم إقتناصهم جميعًا.. خرج القناصون من مخبئِهم.. لقد كانا ماجد وإلياس.. ركضا مسرِعَيْن تجاه كامل الغارق في دمه..وضعوه في سيارته.. أمسك سلاحه.. وبينما هو يحاول أن يصوب على رأس أحدهم استوقفه ماجد بحجة أنه لا داعي.. لقد مات بالفعل.. قد يلحقنا غيرهم.. وبالفعل سمعوا صوت دراجات نارية تقترب منهم.. فَرَّ به ماجد وهو لا يعلم أين يذهب.. لكن كامل كان يوجهه ناحية المزرعة.. هذا المكان الآمن الوحيد الذي يستطيع الذهاب إليه.. في هذه الأثناء نهض الأشخاص الذين صوَّب عليهم ماجد وإلياس وكَشَفوا عن صدورهم لتظهر بعض أكياس الدم وواقي الرصاص تحتها.. فُتحت البوابة الرئيسية العملاقة عندما شاهد الحراس كامل يشير إليهم.. ومن ثم أخبر وضاح عما فعله ماجد وإلياس.. عرض عليهما وضاح أن يستضيفهما.. وعندما عَلِم منهما بأنهما يترحلان من مكان لآخر بدافع الصيد وخلافه.. عرض عليهما العمل معه.. في بادئ الأمر لم يوافق ماجد.. ولكن عندما أخبره وضاح بأنه ستكون كلمته من كلمة كبير الحراس سامر.. بمعنى أنه سيكون الآمر الناهي إلى حين أن يغادرا المزرعة.. فوافق على الفور.. ولكن ماجد وإلياس لم يقدما نفسيهما بأسمائهما الحقيقية.. بل بأسماءٍ مستعارة.. ظلا يعملان معه عامًا كاملًا.. يدرسان كل المخابئ والأماكن التي من الممكن أن تفيدهما.

ثم صمت بيشوي ونظر إليهما فوجدهما لا يحركان ساكنًا، أمعن النظر فيهما ثم ابتسم وأردف متابعًا:

- إذن دعوني أعرفكما بنفسي مجددًا.

انتبه إليه أدهم وهو أكثر حماسة بينما تنظر سجود بترقب حتى تسمع المفاجأة، فتابع بيشوي:

- ها هو ذا يقف أمامكم.

- مَن؟!.

قاطعته سجود بسؤالها في تعجب وهي تبتلع ريقها في ريبة بينما تابع قائلًا:

- ماجد روماني حَنَّا.. أنا ماجد روماني حَنَّا.

*****

(١٨)

جلس كلًا منهما فاغرًا فاه غير مصدِّقَيْنِ للكلمات التي سَمِعَاهَا، حتى أعاد بيشوي كلماته مجددًا وهو يفك الأغلال من أيدي أدهم، ضحك أدهم ضحكًا هستيريًا غير مصدق ما سمعه، أمسك برقبة بيشوي واحتضنه وضرب على ظهره ثم قال:

- لقد كنت أعلم بأنك تختلف عنهم يا بيشوي، وعندما أخبرتك بذلك.. كنتُ صادقًا.

وقفت سجود وهي ما زالت في حالة ذهول تام، تنفست الصعداء ثم فتحت الباب وأخرجت رأسها خارج الغرفة لتستنشق بعض الهواء النقي، حتى تستوعب ما قاله بيشوي منذ لحظات، بينما هي لا تزال تقف على الباب شاهدت أحد الحراس قادمًا تجاهها، أغلقت الباب مسرعة ثم قالت بلهفة:

- هناك أحد الحراس قادم، ماذا سنفعل الآن؟!.

ضحك بيشوي وهو يشير إلى الباب الذي يتم فتحه للتو، حينها تجمدت الدماء في عروق أدهم وسجود عندما دخل الحارس عليهم، ولكن بيشوي ما زال يواصل الضحك، أشار إلى الحارس الذي دخل ووقف بجانب الباب ممسكًا سلاحه ثم قال:

- دعوني أعرفكما.. إنه إلياس.. إلياس عيسى.

تنفست سجود الصعداء بينما ابتسم أدهم وحيّاه ثم تابع بيشوي قائلًا

- إلياس سيكون على باب غرفتك حتى يسمح لك بالخروج متى تشاء.. ولكن بحذر

ثم نظر إلى سجود وتابع مبتسمًا:

- هو الحارس ذاته الذي جاء واصطحب الحارس الذي كان يقف على الباب، لقد فعلت ذلك عندما علمت بأنك تذهبين تجاه غرفة أدهم، قلت في قرارة نفسي لا بد أن أعطيها فرصة، وها هي قد أجْدَتْ نفعًا.

قالت سجود بعدما شعرت بالأمان وتنفست الصعداء:

- شكرًا لك.. الآن أصبح لدي أمل كبير أن ننجح في ذلك.

ثم التفتت إلى أدهم وتابعت:

- بالمناسبة يا أدهم، أتتذكر عندما قلت لك أنت تثق بمن حولك كثيرًا، وقلت لك أيضًا لا تثق بمن حولك كثيرًا .

أعار أدهم إلى حديثها اهتمامًا بالغًا، فتابعت قائلة:

- لقد قصدت ذلك حتى أنبهك بألا تتحدث، لأن الحارس يقف على الباب حتى يسمع ما سنقوله اكتفيت بذلك، لقد كنت أعلم أمر جهاز التتبع قبل أن تخبرني عنه، لقد جاء بي البروجي من القسم الآخر للمزرعة خصوصًا لذلك السبب .

كادت عيناه أن تخرج من محجريها وهو ينظر لها في ذهولٍ تام غير مصدقٍ لما تقوله، فالتفت إلى بيشوي وقال:

- مستحيل!.. كيف يحدث ذلك؟!.. مستحيل.

فقال بيشوي:

- لقد سمعتهم يتحدثون عن جهاز التتبع هذا ولكن لم أكن أعلم بأنه بحوزة شخص هنا في المزرعة، ولم يخطر في بالي بأنه قد يكون أنت.

ظل أدهم يسمع كلماتهما دون أن ينبس ببنت شفة، يجلس في ذهول من هول الصدمة، إلى أن لكزه بيشوي وقال:

- ماذا بك؟؟!.

قال وهو ما زال في ذهوله بلهجة مرتجفة:

- لم يعرف بأمر الجهاز سوى اثنين فقط.

- وهل تثق بهما؟.

- أكثر مما أثق بنفسي، أحدهما صديق عمري، والأخرى.

التمعت عيناه ثم أردف:

- والأخرى أختي.

ثم رجع بظهره للخلف يحرك رأسه يمينًا ويسارًا نافيًا ثم قال:

- لا.. لا.. مستحيل، إن خنتُ أنا نفسي فلن يخونَنِي أحمد أو دعاء، لا.. مستحيل.

التفت بيشوي إلى سجود وسألها قائلًا:

- وهل هناك شيء غريب لفت انتباهك في القسم الآخر؟، بما أنكِ كنتِ هناك منذ مجيئك.

- لا.. لا يوجد شيء يلفت الإنتباه سوى البناية العالية التي توجد فيها الغرفة الداخلية وغرفة الكشف.. وال...

- والبناية التي تشبه الهرم ولها باب موصد بالأقفال، أليس كذلك؟!

قال أدهم كلماته هذه بعدما تذكر ذلك الهرم الصغير الذي أثار دهشته، فتابع مجددًا:

- ولكن ذلك الصراخ المكتوم الذي كنت أسمعه في الليل من أين مصدره؟!.

قالت سجود وهي تقلب نظرها بين بيشوي وأدهم:

- لقد كنت أسمع ذلك الصراخ أيضًا، كان يقف حارس على باب غرفتي ولا أخرج منها إلا للكشف على إحدى الضحايا المخطوفين، لم أعلم من أين أَتَوْا؟!، وعندما أفحصهم تكون أفواههم مغلقة بواسطة قطعة حديد توضع على أفواههم عندما يجلبونهم، وعندما أنتهي يذهبون أولًا بالضحية ثم يصطحبني الحارس إلى غرفتي مجددًا.

قال بيشوي:

- والحراس أيضًا.. كانوا يبعدون الحراس عندما يريدون إخراج مريض أو إدخاله، كانوا يعتمدونَ على الحراس الأكثر ثقة،

والذين يقدمون أرواحهم إن أمر البروجي، ولكن من المؤكد أن ذلك الهرم هو أحد أبواب هذه المتاهة

ثم التفت إلي أدهم وتابع:

- لقد أخبرني العم عيسى أنه تم حفر خمسة مداخل للمتاهة، اثنان منهما إلى الخارج، وثلاثة إلى الداخل، الذين إلى الداخل أحدهم حفره البروجي الكبير ووضاح وآخر تم حفره بواسطة شركائه في غرفة الخواجة وهذه الغرفة لا يجرؤ أحد على السير بجانبها، مفتاحها مع وضاح فقط، ومن المؤكد أن الباب الذي حفره البروجي هو باب ذلك الهرم، ولكن يوجد باب آخر حفره الحراس ومستحيل أن يكون في هذا القسم، وهو سبيلنا الوحيد للخروج من هنا، وعلينا إيجاده.

صمت هنيهة مفكرًا ثم تابع:

- ولكن إن وجدنا الباب الآخر سنحتاج إلى أشخاصٍ يساعدوننا، لقد أخبرني العم عيسى بأن البروجي أغلق الأبواب الخارجية عندما تمت سرقته من قِبَل شركائه، فلذلك سنحتاج إلى من يساعدنا في الحفر لنفتح الباب مجددًا.

ثم صمت مرة أخرى لِلحظات وتابع قائلًا لأدهم:

- هل تثق بأصدقائك الثلاثة.

قال أدهم بعدما فكر مليًا وهو ينظر لسجود:

- نعم أثق بهم، ولكن دعنا نأخذ حِذْرَنَا، لن نخسر شيئًا.

رجع ليذرع الأرض جيئة وذهابًا مرة أخرى وهو يقول بصوت منخفض:

- تثق بهم ولكن علينا أن نأخذ حِذْرَنَا، علينا أن نأخذَ حِذْرنا.

توقف بعدما توصّل إلى حل، ثم نظر إلى سجود وقال:

- ستذهب إليهم سجود، لن أظهر في الصورة حاليًا، حتى إذا عَلِم البروجي بأمركم، يكون هناك من ينقذكم من بين يديه.

قالها ثم همَّ ليغادر، بينما تقدم ناحية الباب قالت سجود:

- وماذا عن الضحايا المحتجزين داخل المتاهة؟.

توقف ثم رد قائلًا:

- من المؤكد أنهم محتجزون في المخزن الذي كان يضع فيه البروجي الكبير الذهب والأموال.

التفت إليها ثم تابع:

- ولكن من الصعب الوصول إلى المخزن إن لم نتمكن من إيجاد الرموز، بل مستحيل.

ثم سكت لبرهة ومسح على وجهه وهو يقول:

- حتى وإن وجدنا الرموز، فما فائدتها ونحن لا نستطيع فكها؟!.

تقدم عدة خطوات من أدهم ثم أكمل:

- لقد أخبرني العم عيسى بأنه في حين عدم فك الرموز فإن أي طريق ستسلكه في المتاهة ستواصل السير به لتجد نفسك تعود مجددًا لنقطة معينة، حتى إذا أردت الرجوع إلى المكان الذي جئت منه، لن تستطيع العودة بدون أن تضع علامات، أو يكون لديك علم بجميع رموزها.

ثم التفت إلى سجود مجددًا وتابع:

- وهذا يعني بأننا لن نستطيع إنقاذهم.

شهقت سجود وكَأَنَّ قلبها توقف ثم وضعت يديها على فمها، الكلمات تتثاقل لا تريد الخروج، نهض أدهم واقترب من بيشوي ثم قال:

- علينا إنقاذهم، مهما كلف الأمر، أختاها في الداخل معهم، وبالتأكيد سنجد عددًا لا بأس به من المخطوفين.

قال بيشوي وهو يحك جبينه مفكرًا:

- ولكن ذلك قد يفتك بنا جميعًا، هم هكذا في أمان، وعندما نغادر نجلب الشرطة ونعود، حينها نخرجهم، قد تكون محاولة إنقاذهم الآن هي نفسها تصديق قرار موتهم.

- ألم تَقُلْ بأنه في حين عدم فك الرموز لا تستطيع العودة، فكيف سنرجع لهم.

اقترب من سجود التي تحدثت وهو يقول:

- المسافة بين المزرعة وبين القرية المجاورة لها تفوق العشرين كيلو مترًا، سوف يعرقلون طريقنا، وقد يموتون في

الطريق، وقد يشاهدنا الحراس ويقتلوننا جميعًا، ولكن إن كنا سبعة أشخاص فقط فهذا يعني أن بإمكاننا التَّخَفِّي، أن نكونَ سبعةً خيرٌ من سبعين.

نظر إلى أدهم كي يجيبه على سؤاله قائلًا:

- لِنَجِدَ البابَ الآخر أولًا ثم نذهب، ونحن في طريقنا للخروج من المتاهة، سنضع علامات حتى نتمكن من العودة، حينها سنمسك بوضاح ونجعله يصطحبنا إلى المخزن، وبعدها أثأر لوالدي.

قلَّبَ نظره بينهم ثم تابع:

- هذا هو الحل الصحيح، غير ذلك فلن نستطيع فِعْلَ شيءٍ.

جلس بيشوي على السرير بينما أصبح أدهم في وضعية القائد، بات يسير في الغرفة جيئةً وذهابًا، ينظر إليهم وكأنه يريد أن يخبرهم بشيء ولكنه متردد، والحالة التي عليها سجود تجعله يفكر مجددًا، هل يخبرهم بما يجول في خاطره أم يحتفظ به لنفسه لآخر فرصة؟ ظل يقلب نظراته بينهما إلى أن اعتمد قراره فقال:

- مشكلتنا في أن نذهب ونجلب الشرطة، وهذا سيستغرق وقتًا طويلًا، وخصوصًا أننا سنذهب هذه المسافة كلها سيرًا على الأقدام، وفي تلك الفترة بالتأكيد سيتم الكشف عن هروبنا، وستستحيل عودتُنا مرةً أخرى، هذا إن وصلنا القرية من الأساس قبل أن نموت.

صمت لبرهة ثم قال وهو ينظر إليهم ليشاهد ردة فعلهم:

- ولكن ماذا لو جاءت الشرطة إلى هنا دون أن نذهب؟.

- ماذا!.. كيف؟!.

- كيف ذلك؟!.

قالا بيشوي وسجود هكذا في الوقت نفسه وأعار كلا منهما للحديث انتباها أكثر، اقرب منه إلياس، ونهضت سجود من مكانها وتقدَّمَت بضع خطوات ناحية أدهم، ووقف بيشوي ليكون على مقربة منهم، فتابع أدهم وهو ينظر إليه:

- أنت تستطيع أن تخرج من البوابة الرئيسية وأنت تلوح بيدك، ولا أحد يستطيع منعك سوى البروجي وكبير الحراس.. أليس كذلك؟.

- نعم.

- ستخرج وتجلب الشرطة إلى هنا.

- مستحيل.. هذا مستحيل، لا تستطيع الشرطة مداهمة المكان من البوابة الرئيسية، وغير ذلك لماذا ستداهم الشرطة وأنت ليس لديك أي دليل يثبت بأن هناك مخطوفين؟ .

صمت بعض الوقت ثم أردف:

- وغير ذلك.. لا أستطيع الخروج بدون السائق وسامر كبير الحراس، إنه يفوقني مكانة، وكَلِمَتُه تَسْرِي عَلَيَّ، وإن فَعَلْتُ شيئًا مُخَالِفًا، فبإمكانِه قَتْلِي إذا أرادَ.

- إذن فلنجد الباب الثالث ونفتح المخرج، وحينها أنا سأجلب لكم الشرطة.

التمعت عينا سجود التي كلما سمعت كلمات أدهم ارتاح داخلها واطمأنت، لتأتي كلمات بيشوي وتزيد قلقها، قالت مستغربة:

- كيف ستجلب الشرطة إلى هنا؟!.

- هذا شيء يطول شرحه، لكن دعونا الآن نبحث عن الباب.

تقدم بيشوي بضع خطوات ناحية الباب ثم فتحه والتفت إليهم وقال:

- سيبقى إلياس على الباب، يمكنك أن تنام على سريرك، وفي حين جاء أحد سيوقظك ويعيد تقييدك حتى لا يشك في الأمر أحد.

ثم نظر إلى سجود وتابع:

- وأنْتِ اذْهَبِي إِلَى يَمَان وأَخْبِرِيهِ بِأَنَّ صَدِيقَه في مِحْنَةٍ، أَخْبِرِيهِ بكل ما حدث، ولكن لا تخبريه عني شيئًا، وعِنْدَمَا يَأتي ستأتي مَعَهُ حتى تجعلي إلْيَاس يدخله، وعندما تذهبين إلى الجانب الآخر فلتبحثي جيدًا عن أي خيط يدلنا على ذلك الباب.

خرج بيشوي ومن خلفه سجود، أخبر إلياس عما سيفعله في حين إذا جاء أحد، أخبره إلياس بأنه عَلِمَ أن وضاح وكامل ذهبا منذ فترة لاستقبال شخص ما، بينما سامر مُختفٍ منذ ساعات ولم يعرف أحد من الحراس مكانه، توجهت سجود إلى ناحية غرفة يمان

وذهب بيشوي ليتفقد الأوضاع بالقرب من البوابة، جلس أدهم على سريره مُمَدِّدًا رجلَيْه يفكر في شيء واحد، ليس في كيفية جلب الشرطة ولا في المتاهة ولا شيء من هذا القبيل، الشيء الوحيد الذي يفكر فيه هو كيف عَلِمَ البروجي بأمر جهاز التتبع؟! لا يعلم به سوى أحمد ودعاء، كلما فكر في ذلك الأمر هز رأسه طاردًا إياها، هو يعلم تمام العلم بأنهما لا يفعلان ذلك، ظل يفكر حتى استرخى جسده واستغرقَ في سباتٍ عميقٍ.

*****

استيقظت دعاء في الصباح الباكر تتحسس السرير بجانبها، نهضت فَرِحَةً في لمح البصر عندما وَجَدَتْهَا تنام بجوارها، تأكدت بأنها كانت تحلم كل هذه المدة، فَرَكَتْ عينيها لتتأكد بأنها ليست في حلم، اقتربت منها بسعادة بالغة تناديها، هيا يا أمي.. استيقظي لنصلي الفجرَ سويًا، ولكنها ما أن كَشَفَتِ الغطاء عنها حتى خابت آمالها وتوسع الجرح الذي كاد أن يلتئِمَ منذ لحظات، إنها ثريا كانت تجلس بجوارها وغفت على السرير، عاد الإنكسار والحزن يهيمنان عليها، قامت ثريا واحتضنتها وربَّتَت على ظهرها ثم تَوَجَّهَتَا للوضوء ومن ثم شَرَعَتَا في الصلاة، وبعد أن فَرَغَتَا من الصلاة قامت ثريا لِتُعِدَّ الإفطارَ من أجل دعاء التي لم يدخل جَوْفَهَا أي شيء منذ الأمس عسى أن تأكلَ، فتحت دعاء الباب وخرجت لتستنشق الهواء النقي، وجدت أحمد يجلسُ أمامَ المنزل على كرسيٍّ مسترسلًا في تفكيره، بل من شدةِ استغراقِه في التفكير لم يلحظ وجودَها عندما اقتربت، وقفت بجواره تنظر إليه وتبتسم تلقائيًا وكأنها تتذكر أدهم، ظلت واقفة قرابة الدقيقتين ولم يلحظها، تقدمت تجاهه أكثر ثم قالت بصوت تخنقه الدموع مَشفُوعٍ بابتسامةٍ شاحبةٍ سقيمةٍ:

- فيمَ تفكر؟

التفت أحمد إلى الصوت وعندما رآها نهض من مكانه مسرعًا تُزَيِّنُ وجهَه ابتسامةٌ خفيفة تعبر عن مدى سعادته بأنها استعادت توازنها، نظر إليها ثم قال:

- دعاء!.

ثم أعطاها الكرسي الذي يجلس عليه وتابع:

- اجلسي هنا، سأجلب لي كرسيًّا آخر.

ثم جلب لِنَفْسِهِ كرسيًّا وجلست دعاء ينظر إليها، هو حزين على الحالة التي أصبحت فيها، وفي الوقت نفسه اجتاحته السعادة لخروجها، هذا أول طريق العودة والصمود، نَظَرَتْ له دعاء ثم كررت سؤالَها مجددًا:

- فيم تفكر؟.

- كنت أفكر في أدهم، لدي شعور كبير بأنه سيعود، احساسي في كل لحظة يقول ذلك، أشعر وكأنه سيكون معنا بعد قليل، تذكرت للتو بعض الأشياء التي كنا نفعلها سويًا، تمنيت لو أنها تعود.

رفع رأسه محملقًا بها وتابع:

- عليكِ أن تتماسكي جيدًا ليستقوي بكِ عندما يعود.

قالت بلهجتها الحزينة السقيمة:

- هل تظن أنه سيعود حقًا؟!.

- سيعود.. بإرادة الله سيعود، ولكنه لن يكون سعيدًا إذا جاء ووجَدَكِ على هذه الحالة، فلتكوني أنتِ الفنار الذي يهتدي بها عندما يعود، لا تجعليه يعدِّل وجهته عن الطريق عندما يقترب من مرساه.

مسح بيده على وجهه وتَنَفَّسَ الصعداء وكأن الدماء بدأت تتدفق في جسده من جديد ثم تابع:

- لقد فعلنا كل شيء بوسعنا، ولكنه قضاء الله وقدره، لا نستطيع تغيير أي شيء به، وما علينا إلا أن نتماسك ونعود كما في السابق.

تمردت عليها العبرات وسقطت على وجنتيها بعدما كانت تحاول منعها فقالت بصوت خافت منكسر:

- ولكني سأكون وحدي إن لم يَعُدْ، لقد ماتت أمي، عالمي ينهار كل يوم وداخلي يتهشم كل لحظة، لن أستطيع المقاومة بينما جميع جوارحي خائرة، لن أستطيع أن أتحمل كل ذلك وحدي، لن أستطيع.

سحب الكرسي ناجيتها أكثر، ثم استمال قليلًا وقال وهو يمعن النظر في عينيها الدامعة:

- لن تكوني وحدك، أخبَرْتُكِ بأنني لن أتركَكِ، ستظل أمي بجانبك، وستجدينني وقتما شِئتِ، أنا بجانبك، لا يمكن لشخص في العالم أن ينظر إليكِ بطرف عينه، سنعيد بناء عالمك سويًا، حتى وإن انهار منه شيء سأكون جسرًا بينَكِ وبينَه.

انتهت ثريا من تجهيز الإفطار ووضعته في غرفة أدهم، وجلسوا برفقة بعضهم حتى يتناولوا طعامهم، بينما ثريا تنظر إلى دعاء وتبتسم وهي تشاهدها تشرع في الأكل، وبعدما انتهوا ذهب أحمد إلى منزله لينامَ قليلًا لأنه لم يَنَمْ منذ الأمس، ذهب وتركهما تجلسان برفقة بعضهما البعض.

التفتت دعاء بجوارها على الكرسي الذي كان يجلس عليه أحمد فوجدت هاتفه، همّت ونظرت عليه لكنه قد اختفى عن الأنظار، أخبرتها ثريا بأنه سينام فلا داعي إلى الهاتف، وعندما يستيقظ سيأتي ليأخذه.

*****

استيقظ أدهم على صوت إلياس يناديه، كشف غطاءه فوجده يقف فوق رأسه مباشرة يلكزه بيده، نهض من مكانه مسرعًا عندما أخبره إلياس أن بيشوي يقول أن البروجي في طريقه إلى المزرعة، يصطحب معه الضيف الذي ذهب لملاقاته، جلس أدهم على الأرض وقيَّدَه إلياس كما كان حتى لا يشكَّ أحد، خرج وأغلق الباب ثم وقف أمامه، استرخى أدهم مُدَّعِيًا النومَ.

في هذه الأثناء كان البروجي يدخل من البوابة الرئيسية بسيارته، توقفت السيارة ونزل منها كامل وسامر ثم نزل البروجي ومَن بجانبه، رجل طويل القامة يلبس ثيابًا سوداء وعلى وجهه قناع يلتفُّ حولَ رأسه من الخلف، تعجَّبَ بيشوي عندما رأى هيئتَه هذه، وتعجب أكثر عندما شاهد البروجي شخصيًا يقدم له الإحترام، جاء في مخيلته أن هذا الشخص هو الخواجة الذي تحدثوا عنه، ولكن أي خواجة هذا الذي يتحدث العربية بكل فصاحة وسهولة.

اضطرب بيشوي عندما شاهدهم يسيرون تجاه الطريق المؤدي إلى الغرفة التي يوجد فيها أدهم، ظل يَعَضُّ على أنامله ويفكر هل وصل الخبر إلى إلياس ولحق بالأمر؟ أم سيفتضح أمرهم، ذهب خلفهم مسرعًا محاولًا الإلتحاق بهم، وجد إلياس يقف على الباب من بعيد فهدأ توتره قليلًا، وعندما اقتربوا من الغرفة أشاح إليه إلياس بنظره وأومأ برأسه فاطمأن تمامًا.

فتح إلياس الباب ودخلوا بالتسلسل حسب المكانة، الرجل المقنَّع أولًا ثم وضاح ومن خلفه كامل ثم سامر وتلاه بيشوي ثم إلياس، كان أدهم يتظاهر بأنه نائم فاقترب منه المقنَّع ووكزه بقدمه، ففتح عينيه شيئًا فشيئًا، ظل يغلقها ويفتحها حتى تتبينَ له هُوِيَّةُ مَن أمامه، هو يعرف جميع الموجودين ولكن مَنْ هذا المُقَنَّعُ؟!.

ضحك المقنَّع محدثًا قهقهة غليظة وكأن هذا القناع يغير نبرة الصوت فقال:

-كيف حالك يا أدهم؟، أنا أعرف بأنك تستغربني، ولا تعرفني، ولكنك تعرفني بالفعل، وأنا أعرفك جيدًا، هل أنت سعيد بالمكان الذي أتيتُ بِكَ إليه؟، ولكن أتساءل، هل ستعجبك الموتة التي أعددتها من أجلك؟!.

كان أدهم ينظر إليه في ذهول ويكشر على أنيابه، لو بوسعه الإنقضاض على هذا المقنع وتمزيق قناعه لبات كل شيء واضحًا، نظر إليه بحنق ثم قال:

- مَن أنتَ؟!، ولماذا تفعل كل ذلك؟!.

- يمكنك أن تقول بأنني شخص تزاحمتَ معه ذات يوم، فقررتُ أن أتخلصَ منك.

*****

(١٩)

لقد بلغ الذهول عند أدهم مبلغه، يتساءل فيما بينه عن ذلك المقنع، إنه شخص يعرفه جيدًا وفي الوقت نفسه لا يستطيع تحديد هويته، بينه وبين المعرفة قطعة من الجلد لا تتخطى سماكتها عدة ملليمترات، كانت تقتله الحيرة في تخمين مَن يكون؟.. مَن يكون؟ سؤال يتردد في تفكير أدهم وهو يحدق إلى ذلك المقنع نظرة غضب، لو تمكن من فك قيوده لَصَبَّ عَلَيهِ جَامَ غضبه، كان المقنع يدور حول أدهم وهو يقول كلماته الأخيرة السابقة، ولكنه توقف أمامه مباشرة وهو يفعل إيماءات وكأنه يزم شَفَتَيْه ثم قال:

- ولكن دعني أهنِّئُك على ذكائِكَ، جهاز تَتَبُّعٍ!، ولكن هل تعتقد أن في استطاعتك شيئًا لتفعله؟!، أو أن صديقك أحمد سينقذك من هنا!، يا لك من أحمق.

كان إلياس ينظر إلى يد بيشوي الذي يكور قبضته كلما تكلم المقنع حتى يسيطر على غضبه، وفي الوقت نفسه يخشى أن يتحدث أدهم عن شيء يضعهم في موقف صعب، ابتسم أدهم ثم قال:

- بما أنك تعرف أحمد، فمن المؤكد أنك تعرف جيدًا بأنه قد يفعل الكثير والكثير .

ابتعد عنه بضع خطوات ثم قال:

- أتعرف يا أدهم المشكلة أنك تثق بمن حولك، وهذا خطأ كبير، لقد تعودتُ أن لا أثق بأحد سوى نفسي.. نفسي فقط، البشر سيئون كثيرًا يا صديقي، لذلك لا تُطلِعْ على سِرِّكَ أَحَدًا، بداية مِن أقربِ المقربين لديك، إلى الأشخاص الذين لا تعرفهم، هذه نصيحتي لك.

نظر له أدهم بسخرية ثم قال بلهجة هادئةٍ يَغْلِبُ عليها الرصانة والكبرياء:

- لذلك تُخَبِّءُ وجهك خلف القناع كالجبناء.

هَمَّ سامر ناحية أدهم وهو يكور قبضته كي يسددها في وجهه، لكن أشار المقنع بيده مما جعله يتوقف، فتابع أدهم ضاحكًا:

- أتعلم.. الجميع هنا يقدمون النصائح، لقد استشفَفْتُ ذلك، وبما أن الأمر كذلك فتقبل نصيحتي، لا تثق في نفسك كثيرًا، فقد يتبدل الحال في لمح البصر، وتحل محلي في يوم ما، حينها ستطلب مني العفو والسماح.

التفت إلى الخلف حيث وضاح والبقية ثم ضحك عاليًا ومن ثَم ضحك وضاح وكامل، ثم التفت لأدهم وقال:

- لديَّ المال والنفوذ، لديَّ السلاح، لديَّ حراس بأمرٍ مني يقبضون روح من أشاء.

انحنى قليلًا أمام أدهم ثم تابع بتهكم:

- أنا أثق بكل ذلك، بماذا تثق أنتَ حتى تتحدث بهذه اللهجة؟.

- أنا أثق بالله فقط.. لا أحد سواه.

ضحك المقنع ثم التفت حتى ينصرف تاركًا أدهم في حيرته، لكنه توقف قبل بلوغه الباب ليتركه يعيش مأساته الحقيقية والأصعب على الإطلاق، حين التفت إليه مجددًا وقال:

- كنت أتمنى لك أن تقضي اليومين المتبقِّيَيْن لك في هدوء، ولكني سأضطر إلى تعكير صفوك.

تقدم ناحيته عدة خطوات ثم أردف:

- نسيت أن أخبرك، لقد ماتت أمك، تم دفنها بالأمس، العقبى لك يا عزيزي.

نظر إليه في ذهول غير مصدق لما سمعه للتو، كادت عيناه أن تخرج من محجريها، توقف قلبه لوهلة من الصدمة، وعند هذه الوهلة قد توقف الزمن، لم يستعب بعد ما سمعه، تغيرت ملامح وجهه تدريجيًا بعدما احتقنت الدماء في وجهه والتمعت عيناه، ثم قال بلهجة متقطعة سقيمة:

- ماذا!.. ماذا تقول؟!.. مستحيل؟!

- لقد حاول أصدقاؤك كثيرًا، لكنهم لم يستطيعوا فعل شيء.

لوَّح بيده وهو يخرج من الباب ضاحكًا وهو يقول:

- سأراك اليوم مرة أخرى، ما زال هناك بعض الوقت لنقضيه سويًا .

صاح أدهم صيحات من شدتها يخيل إليك أنها تزلزل الجدران من حوله، وظل يشد في السلاسل المقيد بها وكأنها حيوان ضاري يريد أن يفتك بالفريسة التي أمامه، فتح إلياس الباب وخرجوا بينما ينظر إليه بيشوي لا حول له ولا قوة، لا يستطيع البقاء معه لا بد أن يذهب خلفهم، كان ينظر إليه بشفقة عندما خرج ولحق بهم، توجهوا ناحية القسم الآخر، فُتحت البوابة ودخل المقنع وخلفه الثلاثة وضاح وكامل وكبير الحراس، أما بيشوي فأمره المقنع بالإنتظار في الخارج، وجدها بيشوي فرصة كي يرجع إلى أدهم فتوجه نحو غرفته على الفور، أخبر إلياس أن يُنَبِّهَهُ إذا جاء أحد، دخل على أدهم فوجده يئن، فك قيوده واحتضنه ثم ساعده على النهوض والجلوس على السرير، ظل يواسيه ويشدّ من أزره، دخل عليهما إلياس يخبره بأن الطبيبة سجود تقترب ناحيتهم، أخبره أن يدخلها فور وصولها، ظلت سجود تلتفت حولها ثم دخلت بين الأشجار، تابعت السير حتى تأكدت بأنها غير مرئية لأحد، وقبل أن تقطع الطريق إلى الغرفة فتح لها إلياس الباب حتى تدخل على الفور.

عندما دخلت سألها بيشوي قائلًا:

- ما الذي جاء بكِ؟!

فقالت وهي تنظر إلى أدهم مستغربة الحالة التي هو عليها:

- لقد أخرجني ذلك المقنع.. مَن ذلك الرجل؟!

- لا نعلم.. لكننا حتمًا سنعرفه، يقول بأنه يعرف أدهم جيدًا.

- ماذا؟!.. يعرف أدهم!

قالت كلماتها وهي تمعن النظر إلى أدهم ومن ثَم إلى بيشوي لتسأله عن الحالة التي عليها أدهم، فأخبرها عن خبر وفاة أمه، تغيرت ملامح وجهها وسيطر عليها الحزن، ذرفت دموعها وهي تقترب من أدهم بضع خطوات وظلت تُقَدِّم له المؤازرة والمواساة، وراحت تحثه على أن عليه التماسك، انقطع أدهم عن البكاء بحجة أنه لم يتبين الأمر بعد، وأن أمامهم الكثير لفعله، أخبرتهم بأنها ذهبت إلى يمان وزين وسهيل وأخبرتهم بما حدث وما سيحدث، وأنهم اندهشوا كثيرًا عندما علموا ماهية الأمر، وأخبروها بأنهم على أهبة الإستعداد لفعل أي شيء يخلص صديقهم وأولئك الأبرياء من هنا، حتى ولو كانت حياتهم في المقابل.

ربت بيشوي على كتف أدهم ثم قال:

- عظيم جدًا.. لا ينقصنا الآن إلا أن نجد الباب الثالث.

سكت هنيهة ثم تابع:

- لقد علمت أن الرجل الذي يُدْعَى الخواجة الذي سيأخذ هذه الأعضاء سيأتي إلى هنا مساء اليوم، أي أنهم سيبدأون في استئصالها من الضحايا غدًا، علينا اغتنام هذه الفرصة

بدأ يهز قدمه لتحدثَ صوتًا في الأرض يزيد من توتر الأجواء ثم تابع:

- إن استطعنا النزول من أحد الأبواب سيصطحبنا إلى نهاية المتاهة، حينها سنزيح الصخور ونفتحه، سنجد أنفسنا خارج المزرعة.

وقفت سجود في حيرة تفكر وعندما لاحظ أدهم سألها عما تفكر به فقالت:

- الغريب في الأمر كيف سينقلون الأعضاء دون أن تفسد، هذا الأمر لا يروق لي، هناك أعضاء تفسد بعد بضع دقائق، وأخرى بعد بضع ساعات، هذا الأمر يشغل تفكيري كثيرًا.

خرج بيشوي برفقة سجود عندما أخبرتهم بأن البروجي قال لها أن تنتظره في الإستراحة، ذهبا تجاه الطريق الرئيسي ثم إلى الإستراحة التي يجلس فيها البروجي، ظلا جالِسَيْن قرابة الثلاث ساعات إلى أن جاءوا من القسم الآخر، لكنهم جاءوا بدون المقنع، وعندما سأل بيشوي كاملَ عنه خلسة، أخبره بأنه ذهب مرة أخرى إلى غرفة أدهم، جُنَّ جُنُونُه عندما سمع هكذا، لقد ترك أدهم نائمًا على سريره، سيذهب المقنع ويكشف كل شيء، بدأ سامر يعد السيارة لانطلاقهم خارجًا وها هم يجلسون في انتظار المقنع.

****

كانوا يجلسون جميعًا في انتظار المقنع، في هذه الأثناء كان المقنع يقترب من باب الغرفة، تفاجأ إلياس كثيرًا عندما رآه، كان في حالة ذهول وظل قلبه يخفق من شدة التوتر، لقد ترك أدهم بلا قيودٍ نائمًا على سريره، وتفاجأ بهذا الرجل يخرج أمامه من بين الأشجار، أمره المقنعُ أن يفتح الباب، أمسك مترأس الباب ويداه ترتجفان من هول الصدمة التي هو بصدد الدخول فيها، أحدث صوتًا في الباب لينبه أدهم بأن هناك قادم، دفع الباب رويدًا رويدًا ودقات قلبه تتسارع، ويكاد قلبه يَثِبُ من مكانه، دخل المقنع ومن خلفه إلياس ينظر إلى السرير والذي تفاجأ بدوره عندما وجده

خاويًا، نظر ناحية المكان الذي فيه السلاسل فوجد أدهم مُمَدَّدًا على الأرض مُقَيَّدَ الأيدي والأقدام يتظاهرُ وكأنه نائم، تنفسَ الصعداء ثم نظر إليه وابتسم، تمنى كما لو قال له لقد أنقذتنا من مصيبة يا أدهم.

تناول المُقَنَّعُ كوبَ الماء مِن على الطاولة ثم اقترب منه وقذفه في وجهه، شهق أدهم من صدمة المياه، سحب الكرسيَّ وجلسَ عليه أمامه مباشرة ثم وضعَ ساقًا على ساقٍ وقال بسخرية:

- ما لي لا أراك حزينًا على موت أُمِّكَ!، أراك لا تأخذ الكلام على محمل الجد، أتعتقد بأنني كنت أمازِحُك؟!، أنت في وضع لا مجال للمزاح فيه.

اصطنع أدهم ابتسامة كي تكون كلماته أكثر مصداقية ثم قال:

- لِأكونَ صريحًا معك.. لقد حزنتُ كثيرًا عندما أخبرْتَنِي، ولكني تذكرتُ بعدها بأنني سأتبعها خلالَ يوم أو يومين.. ففَرِحْتُ.

تعجب المُقَنَّعُ من موقفه فقال:

- غريب!.. أين ذهب التهديدُ الذي كان منذ ساعات؟!، لقد شعرتُ لوهلةٍ بأنك ستكسر الأغلالَ التي في يدك وتقتلني بها.

قال هكذا ثم ضحك بينما أدهم ينظر إليه نظرة ناعسةً منكسرةً ويقول:

- أتدري.. عليَّ أنْ أشكرَكَ لأنك ستجعلُنَا نجتمعُ في أقرب وقت.

حدَّقَ به ثم تابَع بسخرية:

- سنجتمعُ في الجَنَّةِ بالطبع، وهذا مكانٌ لا يعرفُه الأوغادُ أمثالُك.

التفتَ المقنع إلى إلياس وأشار إليه بالخروج، ثم التفت إلى أدهم مجددًا وقال:

- لن أحاسبك على كلامك البذيء هذا نظرًا لحالتك، ونظراً لأن الميت لا حرج عليه، يقول ما يريده.

ضحك أدهم ضحكة عالية مُحدِثًا قهقهة ثم قال:

- إذن.. فتكلم كما تشاء.

ابتسم المقنعُ ابتسامة صفراء ثم تابع أدهم:

- ولكن هل لي من سؤال؟، اعْتَبِرْهُ أمنيةً لشخصٍ ساعاتُه معدودةٌ في الحياة.

- بالطبع.. سَلْ ما تُريد.

تكلم أدهم وقد بدا جادًّا هذه المرة حيث قال بلهجةٍ مُتَّزِنَةٍ:

- كيف عَلِمْتَ بِجِهازِ التَّتَبُّعِ؟.

زَمَّ شفتيه وصمت لبرهةٍ مُفَكِّرًا ثم قال :

- حقيقة لا أعرف هل سيشكِّلُ فَرْقًا معك الأن؟!، بمعنى هل سيُغَيِّرُ شيئًا من موقفك؟!.

- لا.. لن يُغيِّرَ شيئًا ولكنْ يَتَمَلَّكُنِي الفُضُولُ حِيَالَ ذَلكَ .

عدَّل المُقَنَّعُ من جلسته ثم قال:

- إنه شخص قريب منك جدًا، لا تتوقع أبدًا أن يفعل ذلك.

وقف أدهم في مكانه منحنيًا، تجذبه السلاسل المثبتة في الأرض إلى أسفل قليلًا، معدل خفقان قلبه يزداد، يخشى ان يكون أحدهما، التوتر يسيطر على كلماته حينما قال:

- لم يكن يعلم به سوى شخصين فقط .

نهض المقنع وابتعد بضعَ خطوات، ثم التفت إليه وقال وهو يضرب بإصبعه على قناعه:

- أحمد ودعاء.

كان الذهول يسيطر على وجه أدهم عندما قال ذلك، ينظر إليه مترقبًا ليسمع ما سيقوله، التوتر والقلق يُهَيْمِنَانِ على وجهه، ظل هكذا إلى أن تابع المُقَنَّعُ قائلًا:

- ربما عَلِمَ شخصٌ ثالث.

أصبح الوضع أكثر غرابة، فقال:

- شخصٌ ثالثٌ!.

- نعم.. شخصٌ ثالث .

كان أدهم في كل كلمة يقولها المُقَنَّعُ يزدادُ خفقانُ قلبه، وترتعشُ شفتاه وهو يقول مُحَاوِلًا طردَ الفكرةِ مِن عقله:

- مَن؟.. لا.. لا.. مستحيل.

ضحك المقنَّع وهو يقول:

- شخص يحب المال كثيرًا.

صاح أدهم مستنكرًا:

- لا.

- يحب الحياة والرفاهية.

- لا.. أنت تكذب.

- شخص تَمَلَّكَهُ حُبُّ الذات.

صرخ فيه مجددًا:

- لا.. مستحيل، أخبِرْنِي بأنك كُنْتَ تَتْبَعُنِي وسأصَدِّقُك.

- هذا الشخص يحب نفسه لدرجةِ أنه قد يقتل نفسه حبًا في نفسه.

هزَّ رأسه معرضًا عن كلامه وهو يقول:

- لاا.. إنك كاذب.

- لا.. بل ما قلْتُهُ وما سأقولُه حقيقة.

ثم سكت وأشار له بيده حتى يهدأ وتابَعَ بصوتٍ منخفضٍ:

- لقد عَلِمْتُ مِن أمل، هي التي أخْبَرَتْنِي، أحيانًا الحقيقةُ تكون صادمةً، بل غالبًا ما تكون صادمة.

اغرورقت عيناه بالدموع بعدما اعتلج صدره بالهموم وقال:

- لا.. هي لا تعلمُ بأمرها، إنَّك كاذب.

- بل كانتْ لا تعلمُ، ولكنها بأسلوبِها عَلِمَتْ مِنْ دعاء، والثانية أخْبَرَتْهَا عندما وَجَدَتْهَا تبكي على فِرَاقك، فاستعطَفَتْهَا.. فأخْبَرْتَهَا.

- لا.. لا.. أمل لا تفعلُ ذلك، مستحيل.

ظل أدهم يزأر ويشدُّ السلاسل محاولًا فكها لكن دون جدوى، فالأصفاد المسلسلة من المستحيل أن يتم فتحها بدون المفتاح، ولكن ما أن تضمها بيدك حتى تغلق مباشرة، خرج المقنع وتركه يصارع خيباته داخل الجدران، يقف إلياس أمام الباب لا يستطيع الدخول خشية أن يلتفت الرجل فيَشُكُّ في الأمر، انتظر إلى أن اختفى تمامًا عن الأنظار ثم فتح الباب ودخل مسرعًا، صاح به أدهم بأن يفك قيوده وسرعان ما استجاب له، فكه وحاول الإمساك به ليحتضنه كي يهدىء من روعه، ولكن كيف لإلياسَ الذي لا يتجاوز حجم خصره حجم عضلة من عضلات رجل أدهم أن يفعل ذلك، تركه وخرج ثم أغلق الباب من الخارج متجهًا إلى الإستراحة من بين الأشجار حتى يخبر بيشوي، ظل يركض أسرع فأسرع حتى وصل الإستراحة، لا يوجد أحد فيها، التفت يمينًا فوجد البوابة الرئيسية تغلق، استشفَّ بأنهم قد ذهبوا جميعًا، وبينما هو يلتفت حتى يرجع كما كان توقف برأسه في الإتجاه الأيسر، لقد شاهد بيشوي وسجود على زاوية الطريق المؤدي إلى غرفة أدهم مما جعله يرجع مسرعًا إلى مكانه وينتظرهم إلى أن يأتوا.

في هذه الأثناء كان أدهم يضرب ويكسر كل شيء بالغرفة، أمسك بالكرسي ورماه بأقصى قوة في الحائط، ثم رفع السرير من مكانه جاعلًا إياه رأسًا على عَقِبٍ، وأمسك بالطاولة الحديدية ورفعها عاليًا ثم قذف بها في الزاوية مكان السرير، وهذا صعب جدًا

لثقلها ولكنه ليس صعبًا على أدهم وخصوصًا وهو في هذه الحالة، انتبه أدهم على صوتٍ صدر عند رميه الطاولة، أحدثت الطاولة صوت (تك) وتركت مكانها حفرة في الأرض (التراب)، اقترب منها ببطء فوجد شيئًا آخر غير التراب الذي اعتاد عليه، بدأ ينبش الأرض بيده مذهولًا بلهفة، اتسعت حدقتا عينيه عندما أكمل الحفر، يا لَلْهول.. هذا هو الشيء الذي كانوا يبحثون عنه، إنه الباب الثالث للمتاهة.. نعم إنه هو.. كيف لا يفكرون بأنه سيكون في غرفة البروجي الكبير، ظل يضحك أدهم ضحكًا هستيريًا ويقول.. يا لَلْعَجَبْ.. نحن نبحث عنه في جميع الأماكن وهو موجود تحتي مباشرة، رفع الغطاء الحديدي بصعوبة لثقل وزنه، انبطح على الأرض ليلقي نظرة في الأسفل، يوجد به سلم حديدي للنزول، سرعان ما أغلق الباب مجددًا ثم وضع التراب جانبًا ومن ثَم السرير كما كان، ثم وضع الطاولة وأخفى الكرسي بعيدًا وجلس على الأرض وقيد نفسه من جديد.

دخل بيشوي بسرعة عندما أخبره إلياس حتى يلحق به، اندهشت سجود عندما دخلت ووجدته يجلس على الأرض كعادته، نظر إليهم إلياس غير مصدقٍ قائلًا عندما شاهده يضحك:

- ما هذا!، لقد جن جنونه منذ قليل.

التفت بيشوي إلى سجود ونظر إليها باستغراب ثم التفت إلى أدهم وقال:

- أدهم.. هل أنت بخير؟!.

لم ينطق أدهم بكلمة واحدة ولا يفعل شيئًا سوى الضحك، دَنَت منه سجود وهى تنظر إلى بيشوي في ذهول قائلة:

- دعنى أفحصه، أخشى أن يكون حدث إلى عقله شيء من الصدمات التي تلقاها واحدة تلو الأخرى.

اقتربت منه أكثر بينما هو يقلب نظره بينهم ويضحك، فقالت سجود:

- أدهم.. هل أنت بخير؟!، لقد أخبرنا إلياس بما حدث .

توقف عن مواصلة الضحك ثم تحدث قائلًا:

- أنا بخير، وأنتم أيضًا ستكونون بخير، لم أكن بخير يومًا مثل اليوم.

ذُهِلَ الجميع من هيئته وهو يتحدث ومن حديثه، حتى ظنت سجود أنه قد حدث لعقله شيء بالفعل، طلب من إلياس أن يفك قيوده ولكن هذه المرة لم يكن يصيح بل يضحك، أشار له بيشوي ففكه وساعده على النهوض.

اقترب من بيشوي وقال:

- أين البروجي وذاك المقنع؟.

قال بيشوي بتعجب:

- لقد خرجوا جميعًا، لماذا؟!.

عاد ليسأل مجددًا:

- هل سيبقون في الخارج كثيرًا؟.

بدأ بيشوي يجاريه في الحديث بعدما أيقن أنه بخير فقال:

- لقد علمت بأنهم ذهبوا حتى يستقبلوا شخصًا ما، وترك القيادة لي.

التفت إلى سجود وقال:

- ماذا أخبرك يمان والرفاق؟.

تعجبت سجود من هذا السؤال بالتحديد فقالت:

- لقد أخبروني بأنهم على أُهبة الإستعداد لإنقاذ صديقهم.

التفت وقد أدار ظهره لهم وتقدم خطوتين إلى الأمام وهو يقول رافعًا يده:

- إذن أخبريهم بأن صديقهم يحتاجهم الآن.

تعجب الثلاثة من كلامه بل ومن الثقة المبالغ فيها التي يتكلم بها، تقدم إلياس فأصبح على الخَطِّ نفْسِهِ معهما، بينما التفت أدهم نحوهم بعدما توقف بجانب السرير وقال:

- أيها السيدات والسادة.. دعوني أقدم لكم.

ثم سحب السرير بيده فظهر الباب الحديدي، ثم تابع مبتسمًا:

- الباب الثالث للمتاهة.

انفرجت أسارير وجوههم في ذهول غير مصدقين، راحوا يكتمون صرخاتهم بوضع أيديهم على أفواههم، احتضنه بيشوي ضاربًا على ظهره من شدة الفرح، ثم احتضن إلياس بفرحة عارمة وقال:

- لقد وجدناه يا إلياس، لقد وجدناه.

كانت فرحتُهم غامرةً في هذه اللحظات، سأل أدهم كيف وجده فأخبرهم بما حدث بالتفصيل، وبعدها ترجَّلت سجود إلى غرفة يمان وأخبرته بأن أدهم يحتاجهم على الفور، فأخبر سهيل وزين اللذان كانا يتشوقان للتحرك، ثم اتجهوا جميعًا نحو أدهم، خرج إلياس حتى يجلس على الباب كي لا يتم كشف ما يفعلونه، جاءت سجود والرفاق فأدخلهم ثم أغلق الباب، احتضنوا أدهم بحرارة وتفاجأوا عندما شاهدوا بيشوي، كان بيشوي يرى أنه لا داعي لإخفاء الأمر عنهم بعدما وجدوا الباب، فأخبرهم أدهم بكل شيء، ثم فتح الباب وتناول بيشوي قطعة فحمٍ كبيرة من المدفأة ثم نزل أولًا بسلاحه، ومن خلفه أدهم وسجود ثم يمان وسهيل وزين، السلم يمتد إلى أسفل ما يقارب الستة أمتار، النفق مظلم تمامًا إن أُغلِق الباب لن ترى على بعد عشرة سنتيمترات أمامك، وجد بيشوي مقبس الكهرباء وشغله، أضاءت الكهرباء المكان وحولت الظلمة الحالكة إلى نهار لَيَاحٍ، تم عمل النفق بين الصخور المجوفة بواسطة نحتها نتجت عنها هذه البناية المعمارية الجميلة، اتساعه عَرْضًا يُقارِبُ أربعةَ أمتار وارتفاعهُ ثلاثةُ أمتارٍ تقريبًا، يختلف الإتساع مع الإنحناءات وخلافه، فيها فتحات تعمل على تهوية المكان جيدًا، كان بيشوي كلما تقدم عدة خطوات يرسم سهمًا يشيرُ إلى الداخل، حتى يستطيعوا العودة مجددًا، ما أن قطعوا هذه المسافة التي تقارب الثلاثمائة متر حتى دخلوا في منطقة أكثر تعقيدًا، بدأوا يَلُفُّونَ في دائرة كبيرة ثم إلى نفق أصغرَ من النفق الأول، ثم إلى نفقٍ ملتوٍ كالثعبان ثم إلى مثلثٍ ومن ثَم نفق بمساحة الأول ، إلى أن انتهى بهم المطاف أن خرجوا إلى ساحةٍ واسعةٍ جدًا وبارتفاع سقفٍ يفوق الستة أمتارٍ، يوجد فيها صخرة كبيرة في

الوسط تمامًا، عليها بعض الرموز التي لا يعلمون عنها شيئًا، تتفرع من هذه الساحة طرق كثيرة لكن بعضها ينتهي عند نقطة معينة والبعض الآخر يؤدي إلى الطريق الذي سيخرجون منه، الصخرة عليها عدد لا بأس به من الرموز، مما يزيد الأمور تعقيدًا أكثر، اقتربت سجود من الصخرة لعلها تستطيع أن تفهم شيئًا ولكن دون جدوى، صخرة بهذا الحجم الهائل لا توجد عليها أي دلالة أو أي شيء يوضح الطريق، كل ما عليها ما هو إلا بعض الجِمَال والأحصنةِ المنحوتة فيها، ولكن الغريب في الأمر أنها ليس لها رؤوس، بل إنَّ رؤوسَها على هيئة سِهَامٍ، وذلك ما أثار دهشتهم وحيرتهم في الوقت نفسِهِ.

وقف أدهم في حَيْرَةَ وهو يتمعن النظر في الصخرة ثم قال ضاربًا بقدمه قطعة صغيرة من الصخر في حنقٍ شديد:

- ماذا سنفعل الآن؟، إنْ مَشَيْنَا في طريقٍ خاطئٍ قد لا نستطيع العودة، حتى ولو وضعنا علامات.

قالت سجود:

- ولكن دَعْنَا نحاول.

- في ماذا؟!، إن رجعنا فهناك فرصةٌ للنجاة، لذا لا يمكننا الإستمرار.

فقال بيشوي وهو يتجه نحو الطريق الذي خرجوا منه في الساحة:

- أدهمٌ مُحِقٌّ، قد يكون هناك فرصة للنجاة إنْ عدنا.

بدأوا يعودونَ أدراجهم قَافِلِين وها هم يذهبون خلف بيشوي، لَحِقَتْهُمْ سجود وهي تلتفتُ خلفها إلى الصخرة إلى أن دخلت النفق، صعدوا السلم ثم أغلقوا الباب وأعادوا السرير كما كان، فتح بيشوي باب الغرفة ليتفقد الوضع في الخارج، وجد إلياس يجلس أمام الباب والذي سأله في لهفةٍ وعلى وجهه ابتسامةٌ خفيفة:

- ماذا فعلتم؟، هل كل شيء على ما يرام؟.

تحوَّلَتْ ابتسامتُه المشرقةُ بالأمل إلى خيبة عندما نظر إليه نظرة انكسار، دخل خلفه الغرفة فوجدهم جميعًا يجلسون قبالة بعضهم البعض، بعضهم يجلس على السرير والبعض الآخر على الطاولة بينما تجلس سجود على الكرسي الذي بدا شبه محطم، ظَلَّ يُقَلِّبُ النَّظَرَ بينهم فوجدهم جميعًا بِالملامح الواجمة نَفْسِهَا التي تَشِي بالخيبة.

****

(٢٠)

لقد كانوا يظنون بأنهم قد وجدوا خلاصَهُم عندما اكْتَشَفُوا البابَ الثالث للمتاهة، ولكنهم نَسُوا بأنهم في المتاهة نفسها، لا حرج عليهم من الخيبات التي تتوالى عليهم، يكفيهم شرف المحاولة.. ولكن مهلًا.. مهلًا.. أي شرف في ذلك!، عندما تذهب وتعود خالي الوفاض وأنت تعلم بأن حياتك وحياة الكثير على المِحَكِّ، قُمْ وانهضْ أيها الأحمق فالقطار لا ينتظر أحدًا، فما بالُكَ بقطارِ الحياة التي أنت بصدد فقدانها بعد أيام وربما ساعات، إن كان الأمرُ يتوقف عليك فقط فلتذهب إلى الجحيم، ولكن هناك الكثير مِمَّنْ ينتظرونك لتنقذهم، وهناك الكثيرُ مِمَّنْ ينتظرونك لِيُطْفِئوا شوقهم، وهناك انتقام كبير في انتظارك، انهض أيها الأحمق.. انهض.. اسْتَفِقْ من غفلتك.

صاح أدهم بصوتٍ عالٍ بعدما غرق في شروده وهو يُمْسِكُ بالكوب من على الطاولة ويقذفه في الحائط قائلًا:

- اللعنة على هكذا حال، اللعنة على هكذا ظروف، اللعنة على الفقر.

ثم زأر مرة أخرى وتابع:

- اللعنة على هكذا رموز، أي رموز هذه؟!، أي أحمق الذي يرسم جِمَالًا وأحْصِنَةً بدونِ رؤوس؟!، هل هذه هي الرموز؟!، إن كانت هي فما فحواها؟!.

اقترب منه إلياس بعدما فغر فاه واتسعت حدقتا عينيه من الذهول مما سمعه للتو، أمسك بذراعه ثم قال:

- ماذا قلتَ للتو؟!.

كان الجميع صامتًا واجِمًا ولكنهم ذُهِلُوا عندما شاهدوا ملامحَ إلياسَ وهو يسأل ويُصِرُّ على السؤال، أعاروا جميعًا إلى سؤاله اهتمامًا كبيرًا بينما قال أدهم بصوتٍ منخفض بعدما تفاجأ هو الآخر من السؤال:

- جِمَالٌ وأحصنةٌ بدون رؤوس.

- رؤوسهم على هيئة سِهامٍ، على كل سَنَامِ جَمَلٍ سُلَّمٌ.

وقف الجميع فاغرون أفواههم، يكسو وجوهَهُم الذهول عندما قال إلياس هذه الكلمات، وضع بيشوي يده على كتفه فالتفت الثاني له عندما قال:

- كيف عرفتَ هذا؟!.

- مِن والدي.،كان يرسمهم لي يوميًا، كان يعلمني ماذا تعني هذه الأشياء، كان يعلمني بطريقة غير مباشرة.

كَسَتْ وجوهَهم ابتسامةٌ عريضة بينما احتضنه بيشوي بقوة وهو يقول ضاحكًا:

- العم عيسى.. لقد كان يعلم بأننا سنفعلها في يوم ما، لقد أنقذنا مرة أخرى، طابَ حَيًّا وميتًا.

قال أدهم بإشراقةٍ من أمل بعدما هدأت الأجواء:

- إذن علينا أن ننطلق بسرعة قبل أن يعود البروجي.

قال يمان وهو يشير ناحية الباب:

- لكن لا بد أن يظل أحد ما عند الباب حتى لا يشك أحدٌ مِن الحراس في الخارج.

فتابعت سجود قائلة:

- ولا ينفع أن يقف أحدٌ سوى إلياس أو...

- أو أنا.

قال بيشوي كلمته الأخيرة ثم نظر إلى باب المتاهة وهو يقول:

- إذن سأظل هنا في انتظاركم.

ثم التفت إلى أدهم وتابع:

- أنا أثق بك.. أثق بأنك ستعود من أجلي، إن عدتَ ووَجَدْتَ البروجي قد علم بالأمر وقَضَى عَلَيَّ، خذ إلياس وامْضُوا قُدُمًا ولا تنظر خلفك، سأحاول جاهدًا أن أمنعهم من الوصول إليكم، حتى وإنْ قَدَّمْتُ حياتي في سبيل ذلك.

ثم أشار إلى سجود وهو يلتفت إلى البقية وتابع:

- وحاوِلوا جاهدين أن تنقذوا إخوتها ومَن معهما.

وضع أدهم يديه على كتفه وشدَّ عليه ثم قال:

- سأعود يا صديقي، سأعود من أجلك.

- كنت أود أن أقول لك أن تنتقم لي إن لم تجدني حَيًّا ولكن، ولكن أتساءَل ما الذي سيدفعك حتى تفعل ذلك؟!، وأنت لستَ مُضْطَرًّا لذلك.

شد أدهم على كتفه أكثر وقال:

- سنفعلُ سويًّا.

تابع بيشوي حديثه في حالة هستيرية:

- هناك تَضَارُبٌ في داخلي، ما بينَ أنك ستفعل، وما بين أننا لسنا على دين واحدٍ حتى تثأر لي ولوالدي.

أمسك عنقه بيده وقرَّب جبينَه من جبينِه وهو يقول:

- لكنك إنسان، وهذا يكفي، إنسان ظُلِمَ، وديننا يأمرنا بألا نسكت عن الظلم.

احتضنه بحرارة ثم تابع:

- لست أنا مَن يترك رفيقَ دربه يا صديقي، سنعود ونثأر لوالدك، سنعود لنأخذك، سأجلب الشرطة وأعود.

لحظات مؤثرة ساد الصمت فيها، الجميع يكفكفوا أعينهم حتى لا تسقط الدموع، بينما مسح بيشوي دموع الفرح بصديقه قائلًا وهو يبتسم:

- ولكن ينتابُني الفضولُ يا صديقي، كيف ستجلب الشرطة؟!، لقد أخبرتني سابقًا بأنك ستتولى الأمر، كيف؟!.

ابتسم أدهم ثم ذهب تجاه خزانة الملابس وجلب حذاءَه ذا الكعب العالي الذي جاء به من البلدة، ثم وضعه على الطاولة وهو ينظر إليهم جميعًا ثم قال وهو يبتسم:

- بهذا.. سأجلبهم بهذا.

قال سهيل بصوت فكاهي:

- بهذا!.. كيف ستجلبهم بحذاء؟!.

ابتسم الجميع فضحك سهيل وأردف باللهجة نفسها مازحًا:

- هل سترفعه للأعلى وتضغط عليه ويخرج منه شعاع في السماء، وعندما يشاهدون ذلك الشعاع سيأتون على وجه السرعه؟!، أم ستتصل منه عليهم فيُلَبُّوا النداء.

قال أدهم ضاحكًا:

- أجل سأتصل منه عليهم، وسيلبون النداء.

كان الجميع ينظر باستغراب، بينما يمان الذي يثق بصديقه كثيرًا كان يعرف بأن أدهم ما زال لم يكمل الجملة التي قالها.

التفت أدهم إلى بيشوي وقال:

- أعطني خنجرك.

أعطاه الخنجر فيما كان هو ومَن حوله في حالة استغراب تامة لا يفهمون شيئًا، أمسك أدهم الخنجر ومده في الحذاء من الداخل وفك الطبقة المُبَطَّنَة الداخلية منه، الجميع ينظر له في تعجب، أمسك الحذاء وقلبه على الطاولة، ثم ضرب على نعله بقوة فسقط

منه شيء أثار دهشتهم، إنها قطعة الحديد التي أعطاها إلى مازن وشكَّلها على هيئة صندوق صغير جدًا، أمسك بالصندوق وعندما فتحه ذُهِلُوا جميعًا، بل من شدة الذهول فُغِرت أفواههم على آخرها، واتسعت حدقات أعينهم بطريقة لا تصدق، إنه الهاتف الصغير الذي كان لديه قديمًا، الآن تبيَّن لماذا أخرجه ولماذا كان يشحنه، كان ينظر إلى الجميع وهو يبتسم بعدما كَسَتْ وجوهَهم بملامح الدهشة والإستغراب.

وضع الهاتف على الطاولة ثم قال:

- هل تظنونني أترك شيئًا للظروف والصدف؟!.

ثم نظر إلى بيشوي الذي ما زال مندهشًا وقال:

- سأعود إليك سريعًا يا صديقي، علينا أن نجد المخرج الآن ونعيد فتحه ثم نتصل بصديقي أحمد، حتى عندما يأتون يجدون الطريق ممهدًا، يدخلون فلا يشعر بهم أحد إلا وهم في قلب المزرعة تمامًا.

احتضنه بيشوي بفرحة عارمة وربت على ظهره ثم قال:

- لقد خططتُ لكل شيء يا صديقي، لقد خططتُ لكل شيء، اذهب وعُدْ سريعًا.

وَدّعهم بيشوي ثم خرج حتى يجلس أمام الباب، بينما نزل أدهم ورفاقه خلف بعضهم على السلم الحديدي، ضغط أدهم على المقبس فأضاء المكان، اندهش إلياس للوهلة الأولى لرؤيته هذا المكان، ظل ينظر إلى الرموز التي على الحائط وكلما رأى رمزًا فسَّره لهم، إلى أن وصلوا الساحة الكبيرة، وقف إلياس أمام الصخرة

الكائنة في المنتصف، ثم بدأ يدور حولها في اتجاه سير الجمال والخيول، توقف عند الجملين ذَوَي الأَسْنِمَةِ الأعلى قليلًا، بدأ يعد درجات السلم ليجدها تضاعف درجات السلالم التي على الجمال الأخرى، اتجه على اتجاه السهم الذي يشير له ذَانِكَ الجملان، توقف عند ثلاثة مداخل أحدهم ضيق وهو الكائن في المنتصف، ظل ينظر إلى الجدار في المدخل الأيسر فلم يجد عليه أي دلالة، ثم رجع عند نقطة بداية الثلاثة مداخل مرة أخرى ودخل في المدخل الأيمن ينظر هو ومن معه إلى شيء مختلف، وجد صخرة مرسومٌ عليها جمل سنامه عالٍ لكن السلم الذي عليها ليس بعدد الدرجات فقرر السير فيه، التقط سهيل قطعة الفحم التي تركها بيشوي سابقًا، وظل يضع علامات حتى يستطيعوا الرجوع، نسيَ أن إلياس قادرٌ على إعادتهم مجددًا، انحدر إلياس يمينًا وهم خلفه ثم يسارًا ثم انحرف مرة أخرى نحو اليسار، الرموز التي على الحائط تقول ذلك، ظل يتفقد الحائط ويسير إلى الأمام إلى أن وجد نفسه أمام نفق ضيق، تخطى ذلك النفق ليجد نفسه قد رجع إلى الساحة مجددًا، زفر زفرة قوية ثم دخل إلى النفق الذي في اليسار هذه المرة، ظل يحدق في الجدار ويتحسس بيده الصخور، نظر إلى أعلى قليلًا فوجد بعض السواد على منطقة بارزة قليلًا تقدم إليها ثم تحسسها بيده، أخبره أدهم بأن بيشوي هو الذي وضع هذه العلامة هنا كي يستطيعوا الرجوع، مسحها جيدًا ثم صاح عاليًا.. لقد وجدتها.. إنه الجمل صاحب السنام العالي والسلم العالي.

أصابتهم الفرحة عندما أخبرهم بذلك، ثم ساروا في طريقهم تأخذهم العلامات يمينًا ويسارًا، ظلوا على هذا الحال ما يقارب الساعة حتى ظن أحدهم بأنهم قد ضلوا الطريق، ولكن إلياس وجد علامة أخرى توحي بأنهم قد اقتربوا تمامًا، وبعد بضع دقائق من

السير انحدروا يمينًا ليجدوا ساحة متوسطة الحجم وفي منتصفها سلم يلتصق بسقف حديدي وعليه بابٌ من حديد كالذي في الغرفة.

تقدم إلياس ممسكًا بالسلم الحديدي وصاح قائلًا:

- لقد وجدناه.. لقد وجدناه.

اقترب أدهم ووضع قدمه على الدرجة الأولى ثم التفت إليهم وقال بتوجس:

- أخشى أن يكون هلاكنا خلف ذلك الباب.

ثم نظر إلى الأعلى حيث الباب وتابع:

- دعوني أتفقد الوضع أولًا.

تَسلَّقَ الدرجات الواحدة تلو الأخرى إلى أن وصل إلى الباب، الباب مغلق من الداخل بواسطة متراس حديدي كبير، فتح المتراس ووضع كتفه تحت الباب ودفع بساقه محاولًا فتحه لكنه ثقيل، ارتفع الباب قليلًا لِيَنزل من بين هذه المواربة شلالٌ من الرمال، تسلق يمان الدرجات سريعًا ليساعده ومن خلفه سهيل، تشبَّثُوا جيدًا بالسلم ثم وضعوا أكتافهم جميعًا أسفل الباب غير عابئين بالرمال ثم دفعوا بأرجلهم للأعلى، ارتفع الباب لأعلى وانهالت كمية لا بأس بها من التراب، تفاجأوا عندما خرجوا من الباب، لقد وجدوا انفسهم في مكان لم يكن يخيل إليهم أبدًا بأنهم يخرجون منه.

*****

على أطراف المزرعة الخارجية يجلس تحت أشجارها وضاح وذلك المقنع، الذي أخرج هاتفه وفَعَّلَهُ على وضع الصامت، حتى لا يسبب قلقًا للخواجة عند لقائه به، بينما كامل وسامر كبير الحراس ومَن معهم يطوفون في الأرجاء، يجلس وضاح بصحبة المقنع في انتظاره، الشخص الذي سيدر عليهم مالًا وفيرًا، ولكن لم يعد المقنع مُقَنَّعًا بعد، لقد كشف قناعه وها هو يجلس أمامنا، يجلس ولكن لا يظهر منه سوى ظهره من الخلف وإن نظرنا من ناحية وضاح فبالطبع لن نرى شيئًا، إن ذلك السمين يحجب كل شيء، ترهلاته المتراخية من كل جانب تمنعك من الرؤية تمامًا.

أشعل المقنع سيجارته فتصاعد الدخان عاليًا وهو يقول:

- لا أريد أن يحدث أي مشكلة عندما يأتي الرجل.

- لا تقلق.. لن يحدث أي شيء.

سحب سحبة من السيجارة ثم قال:

- بعد يومين سيكون بحوزتنا مئة مليون دولار، أموال لم نكن نحلم بها في يوم من الأيام .

قال وضاح:

- فعلًا.. لم يخيل إِلَيَّ يومًا أنني سأمتلك مبالغ ضخمة كهذه.

قال المقنع وهو ينفث دخانه:

- ستأخذ نصيبك أنت ورجالك، وأنا كذلك الأمر، كما أمر الرجل الكبير، وبعدما يتم التسليم بفترة سنبدأ في العمل

مجددًا، لن نتوقف حتى تفوقَ ثرواتُنا مليارات الدولارات يا عزيزي.

تعالت ضحكاتهما بينما اقترب منهما كامل راكضًا، توقف على بُعد خطوات منهما ثم قال:

- لقد جاء مَنْ ننتظره.

وقفت سيارة سوداء ضخمة من طراز الهامر ومن خلفها سيارة أخرى، نزل منها من الأمام حارس عملاق، توجه بسرعة ناحية الباب الخلفي وفتحه، نزل منها رجل خمسيني متوسط الطول يلبس بدلة سوداء، نحيف كثيف اللحية يتخللها بعض الشعرات البيضاء، يلبس قبعة سوداء ونظارة سوداء اللون يدعونه بالخواجة، ثم نزل من الجانب الآخر رجل بمواصفات شبيهةٍ له تقريبًا يحمل حقيبة صغيره توحي بأنه طبيب، ونزل من السيارة الخلفية أربعة حراس كفيلون أن يحدثوا جلبة في أي مكان تطأه أقدامهم، رحَّب به المقَنَّع ووضاح ثم ركبوا سياراتهم مجددًا وانطلقوا في طريقهم إلى المزرعة.

****

خرج أدهم وتبعه يمان وسهيل ثم سجود ومن خلفها زين وإلياس، سيطرت عليهم الدهشة عندما رأوا المكان الذي خرجوا فيه، لقد انتهى بهم المطاف أن خرجوا في المكان نفسه الذي كانوا يحفرون به آنذاك، لقد خرجوا في باطن الجبل وفي وسط الحفرة التي كانوا يحفرونها بأيديهم، أدركوا بأنهم كانوا يحفرون لفتح الباب الذي أغلقه البروجي الكبير، حتى يخرجوا الضحايا منه ويشحنوهم إلى الخارج، تقدم أدهم للأمام فوجد حاوية كبيرة على مدخل الجبل

وضعت حديثًا، ففطن بأن هذه التي سيُنقل فيها الضحايا إلى خارج البلاد، لم يكونوا يحفرون قبروهم كما خُيل لهم، ولكن كانوا يمهدون الطريق لخروجهم من المتاهة حتى يُباعوا للأثرياء، ترجلوا إلى مدخل الجبل حتى أعطى الهاتف إشعارًا بوجود شبكة اتصال، فتح أدهم شبكة الإنترنت ثم فتح الواتساب وأرسل إلى أحمد موقعه، لكنه لاحظ بأنه غير متصل الآن فقرر الإتصال به، كان يخشى أن يكون جالسًا في منزلهم وتكون أمل بصحبتهم، فقرر أن يعطي الهاتف إلى يمان وأخبره ما سيقوله عندما يجيب، اتصل مرة ولا يوجد رد ثم الأخرى فالأخرى، وبعد محاولات عديدة أجابت دعاء، لقد نسي الهاتف هناك.

ما أن سمع أدهم صوتها الحزين حتى أدرك أن والدته قد ماتت بالفعل، التمعت عيناه ووضع يده على فمه ممتنعًا عن الكلام عندما سمع صوت أمل بجانبها، فقال يمان بعدما ألقى التحية وأخبرته بأنه نسي هاتفه بحوزتها:

- حسنًا.. ولكني أريده الآن، وبشكل عاجل.

فقالت بعدما تملكها القلق والتوتر:

- لعله خير، من الواضح أن هناك شيء يثير للقلق.

- لا.. لا يوجد شيء، أنا صديقه وزميله في العمل، ولا بد أن أتحدث معه في شيء ضروي وإلا سيخسر عمله.

فقالت:

- ولكنه قرر بأنه لن يذهب مجددًا.

- أخبريه وحسب، قد أنفصل من العمل أنا الآخر بسبب شيء يعلمه هو.

صمت هنيهة ونظر إلى أدهم الذي ابتعد باكيًا عندما أيقن أن والدته قد ماتت، يحاول أن يتذكر الكلمة التي أخبره بها ثم قال:

- أخبريه وعلى وجه السرعة، أن صديقك الذي كنت تقول له دائمًا، وأنت تفعل ما يحلو لك تذكر أن هناك مَن يخشى عليك من عثرات الحياة.

سمع صوتًا بجانبها يقول أعطيني الهاتف سأذهب وأعطيه له، كان ذاك صوت أمل فاستوقفتها ثريا وأخبرتها بأنها ستذهب هي إلى ابنها، في هذه الأثناء قطع جدالَهن صوتُ أحمد ينادي في الخارج، همت أمه وأعطته الهاتف ودخل ليجلس بصحبتهم فقال:

- ألو.. مَن انت؟.

قال يمان:

- اخْرُجْ وتحدث معي في الخارج، بسرعة يا أحمد.

استغرب أحمد من لهجته ونظر إلى أمل ودعاء اللتين تنظران إليه في ترقب لِتَعْلَمَا ماهية الامر، لكنهم تفاجأوا بأنه نهض وخرج تاركًا إيّاهما في حيرتهما بما فيهن أمه، خرج بعيدًا ثم قال:

- ماذا تريد؟.

قال يمان:

- لا تحدث ضجيجًا، هناك شخص يريد التحدث معك.

زادت حيرة أحمد وسيطر عليه التوتر فقال:

- شخص!.. مَن؟!.

قال يمان:

- شخص كان يقول لك، وأنت تفعل ما يحلو لك تذكر أن هناك مَن يخشى عليك من عثرات الحياة.

توقف الزمن بأحمد وسيطر عليه الذهول غير مُصدقٍ لما يسمعه، هذه الكلمات لا يعرفها سوى أدهم فقط، بدأ يحدث تضارب من الأحاسيس بداخله، شعور بالبهجة والفرحة العارمة يتخللها قلق وتوتر، فبادر بالحديث بلهجة يَغْلِبُ عليها التوتر:

- أدهم!.. أين هو؟!، أخبرني من فضلك.

في هذه الأثناء أعطى يمان الهاتف إلى أدهم الذي توقف عن البكاء ولكن ما زال صوته مضطربًا، فقال أدهم:

- أحمد.. اسمعني جيدًا.

- أدهم!.. أين أنت يا أدهم؟⁉.

- اسمعني جيدًا يا أحمد، لا يوجد وقت للتوضيح، إفتح هاتفك وتفقد الواتساب، أرسلت لك موقعي، ستبلغ الشرطة وتعطيهم الموقع، ستخبر الشرطة بأن هناك عصابة كبيرة تتاجر في أعضاء البشر

- ماذا⁉.

- اسمعني جيدًا، سأخبرك بكل شيء لاحقًا، العصابة هذه اختطفت أناسًا كثيرين، سيتم شحنهم غدًا إلى الخارج، حتى تتم سرقة أعضائهم، ولا تخبر أمل بأي شيء ولا دعاء.

- لماذا لا أخبرهما؟!، سيفرحان كثيرًا.

- لا.. لا تخبر أحدًا نهائيًا، يعرفوا عندما أرجع، لا تَزِدْ قلقهم وتَوَتُّرَهُم أكثر، يكفي موت أمي.

ذُهِلَ أحمد من هذه الكلمة ثم قال:

- هل علمتَ؟.

- نعم.. لقد علمتُ.

- كيف؟!.

- سأخبرك بكل شيء لاحقًا، الآن عليك أن تسرع، حياة الكثيرين متوقفة على سرعتك أنت.

أنهى أدهم المكالمة ثم نزل مجددًا في الحفرة وأخذ معه أحد الفؤوس التي كانوا يحفرون بها، ومن ثم نزل إلى النفق ومن خلفه البقية، وعندما سألوه لماذا لا ينتظرون الشرطة قال:

- إن الشرطة أمامها ما يقارب الساعتين أو أكثر إلى أن تأتي، سنذهب ونبحث عن المخطوفين، وسنجدهم، ليس أمامنا خيار آخر، حتى إذا علم البروجي بالأمر، نكون قد خرجنا منذ مدة، وحينها سنقاتلهم في الأماكن التي نعرفها جيدًا.

ثم أمسك بيده ذراع إلياس وتابع:

- ستجد المكان الذي يُحتجَزون فيه، أنا أثق بك، جميعنا نثق بك يا إلياس.

قال إلياس وهو يشد على يده في حماس:

- سأجده.. وفي أسرع وقت، هيا بنا.

ثم ذهب إلياس في المقدمة وتبعه أدهم والبقية، رجعوا في طريقهم إلى الصخرة الكائنة في الساحة الكبيرة، ظل يتفقد الرموز التي عليها واحدةً تلو الأخرى .

في هذه الأثناء كان يدخل أحمد مديرية الأمن، طلب مقابلة مدير الأمن شخصيًا، وعندما عرف المسؤولون ماهية الأمر أخبروا سيادته على الفور، استقبله وسمع منه حديثه ثم سمع رسالة أدهم، كان أحد المختصين يحدد الموقع الذي أرسله أدهم، تأكدوا من صدق ما قاله أحمد عندما حددوا هوية المكان وعلموا أنه للبروجي، لقد داهموا المكان عدة مرات قديمًا عندما كان يعمل في الآثار لكنهم لم يجدوا شيئًا، والآن جاءت الفرصة على طبق من ذهب، اتصل سيادة اللواء ويدعى إبراهيم الصغير الذي يعرف بقوة شخصيته بوزير الداخلية ليخبره بالأمر، فأمر الوزير بالتحرك فورًا ناحية المزرعة، وكلف أحد الضباط من أصحاب الكفاءات في منطقة قريبة من المزرعة أن يأخذ وحدات دعم كبيرة ويذهب بهم لتمشيط المكان، وأرسل لهم الموقع كي ينقضوا عليهم جميعًا، بدأ الجميع يتحرك وكان اللواء إبراهيم يركب سيارته واصطحب معه أحمد حتى يلحقوا بهم عند الاقتحام.

*****

(٢١)

ظل إلياس يدور حول الصخرة يتفقدها حتى لفت انتباهه شيء غريب، هناك حصان من الأحصنة لا يوجد لسهمه رأس، وينحدر قليلًا عن الأحصنة الأخرى، وقف ينظر في الإتجاه الذي يشير إليه الحصان ثم تقدم في ذلك الإتجاه، حتى انتهى به الحال إلى أن دخل في نفق واسع توجد صخرة في أوله، على الصخرة توجد رموز على هيئة دائرة كبيرة تتوسطها دائرة صغيرة، في منتصف هذه الدائرة رأس السهم.

اتسعت حدقتا عينيه وصاح قائلًا:

- لقد وجدتها، لقد وجدتها.

اقترب منه أدهم بسرعة فأمسك إلياس بيده ثم قال:

- لقد وجدتها يا أدهم، هذا النفق يؤدي إلى المكان الذي يُحْتَجَزُ فيه المخطوفون، هذا هو النفق الذي يؤدي إلى المخزن الذي في المتاهة.

ثم تقدمهم إلياس وساروا في الإتجاه الذي حدده، إلى أن وجدوا أنفسهم في منطقة مربعة تشبه الغرفة لا يوجد فيها أنفاق ولا مخارج أخرى، ولكن الرمز يشير إلى هذا الجدار، ظل أدهم يبحث في الأرض بجانب الجدار والجميع ينظر إليه في تعجب، لا

يعرفون ما الذي يفعله وكلما سأله أحد يشير إليه بيده أن يصمت، ظل ينبش التراب في كل مكان بالقرب من الجدار حتى عثرت قدماه في شيء، إنها عصا التحكم التي يبحث عنها، نظر إليهم وابتسم ثم وقف وضغط على العصا لتحدث صوت (تك)، لقد حدثت معه من قبل وها هو يكررها، نظر إلى رفاقه وقال:

- هيا لنفتح الباب.

ثم دفع الباب الصخري فتحرك قليلًا، بينما يقف الآخرون مذهولين فقال أدهم مجددًا:

- هيا.. ساعدوني.

اندفع الجميع وحركوا معه الباب فكشف عن مشهد رعب لمن في الداخل، ضحايا كثيرة داخل الخزانة مقيدي الأيدي والأرجل، وقفوا جميعًا بجانب بعضهم على خط واحد ينظرون إلى الباب الذي بدأ يفتح بسهولة ويسر، كان الأبرياء في الداخل ينظرون إليهم وهم في حالة خوف وهلع، الجميع يتوارى خلف الآخر، والأطفال يُخَبِّئُون رؤوسهم بين أرجلهم من الخوف حتى لا تصادف أعينهم أعين أولئك المتوحشين، لقد اعتاد الأبرياء على ذلك، كان يأتي الحراس ليأخذوا الذي يمرض كي تفحصه الطبيبة، وها هي الطبيبة جاءت بنفسها، ففطنوا بأن النهاية قد حانت، ولكنهم التفتوا جميعًا إلى الخلف على صوت طفلتين تقولان:

- أختي.. سجود.

ركضت سجود تجاههما بعينين باكيتين، بينما راح أدهم يكسر قيودهم بواسطة الفأس التي معه، وعندما اقترب حتى يكسر قيود أحدهم وجد ثلاثة أشخاص أثاروا دهشته نظر إليهم قائلًا:

- خالد!.. نور!.. علي!.

- أدهم!.

إنهم هم الأطفال الذين اختفوا من قريته سابقًا خالد ابن الأستاذ محسن وابنة عمه نور، وصديقهما علي الذي أخبرهما أن يركبان السيارة، فك أدهم قيودهم ثم أعطى الفأس إلى يمان حتى يتابع فك الآخرين، احتضنهم أدهم بقوة ثم قال:

- ما الذي جاء بكم إلى هنا؟!.

قال علي:

- ذات يوم بعدما خرجنا من المدرسة ..كنت عائدًا إلى المنزل.. وقفت سيارة بجانبي وأخبرني السائق بأنه صديق أبي.. وأنه ذاهب إلى منزلنا.. وسألني أن أرافقه.. فوافقت على الفور.. بعدما ركبت وسار بنا مسافة بسيطة.. وقف في مكان آخر وركب شخص آخر.. وضعَ في ظهري سلاح ناري.. وأمرني أن أنادي على خالد ونور حتى يركبا معنا.. ثم رَكِبَا أمام أنظار الجميع.. ومن ثَم تم تخديرنا.. ولم نَسْتَفِقْ إلا ونحن هنا.

التفت أدهم إلى يمان الذي فَرَغَ من فك القيود واقترب منه، جعل الثلاثة يصطفُّونَ أمامه ثم أعطاه الهاتف وأخبره وهو يشير إليهم أن يصطحبهم معه ويعتني بهم جيدًا.

ثم التفت إلى الجميع وقال:

- أيها السيدات والسادة، لقد فعلنا كثيرًا حتى ننقذكم، والآن حان دوركم كي تساعدونا، وما عليكم فعله هو أن تنتظروا الشرطة في الخارج، ولا يعود منكم أحد.

ثم أشار إلى سجود وتابع:

- لقد فعلت الطبيبة الكثير لكي تنقذ أخواتها، وكانت أحد الأسباب في إنقاذنا لكم، هي معنا وليست معهم.

التف الجميع حول سجود يحتضنها الأطفال والنساء ويشكرها الصبيان، الجميع يعبر عن امتنانه لها، تساقطت عَبَرَاتُها من هذا المشهد المثير، احتضنت أخواتها بحرارة وقوة وهي تنظر إلى أدهم نظرة امتنان.

بيما نظر إلى إلياس وتابع:

- وعندما يأتون ستحضرهم، سأنتظرك بصحبة بيشوي.

احتضنه زين وسهيل بينما يمان ربت على كتفه وذهب، فتوقفت سجود وهي تضم أخواتها إلى جانبها ثم قالت:

- سننتظرك.. إياك ألا تعود.

ابتسم لها أدهم وأومأ برأسه ثم أشار إلى الجميع أن يذهبوا خلف إلياس دون إصدار صوت، وأن لا يخرج أحدهم عن الطريق، ثم توجه في طريقه إلى الغرفة مرة أخرى.

*****

اقتربت السيارة من المزرعة، يجلس وضاح في الأمام بينما يجلس المقنع بجانب الخواجة، يتحدثون عن النقود التي سيجنونها من هذه العملية، أخبرهم الخواجة بأنهم سيحصلون على مبالغ طائلة في العمليات المقبلة، ثم سأل وضاح عن التأمين فأخبره بأن كل شيء على ما يرام، ولكن قَطَعَ المقنع حديثه طالبًا من الخواجه جهاز تفتيش إلكتروني حتى يتم الكشف بواسطته عن أي معدن أو جهاز تتبع بحوزة الأشخاص الذين سيجلبونهم، تعجب الرجل من طلبه فسأله عن السبب، فأخبره عن أدهم وما حدث بسببه وما كان سيحدث إن لم يلحقوا في الوقت المناسب، أثارت قصة أدهم فضول ذلك الرجل فأخبرهم بأنه يريد أن يراه، بطبيعة الحال سيتم شحنه مع الآخرين، اقتربت السيارة من البوابة كان سامر وكامل في السيارة الأمامية فأشاروا إلى الحراس الذين يقفون على البوابة بفتحها على مصراعيها، دخلوا جميعًا ثم توقفوا عند الإستراحة ونزل وضاح مسرعًا يهيء الوضع، بينما المقنع يرتدي قناعه مجددًا ثم ينزل وهو ينظر في المرآة ليتأكد بأن وجهه مخفيٌّ تمامًا.

سأل وضاح أحد الحراس عن بيشوي فأخبره بأنه متوارٍ عن الأنظار منذ ذهابهم، أمر سامر أن يصطحب بعض الحراس ويذهب إلى غرفة أدهم ويحضره منها، توجه سامر وحارسان معه إلى الغرفة، يقتربون أكثر فأكثر وعلى وجه السرعة، في هذه الأثناء كان بيشوي يجلس أمام الباب يعتريه القلق والتوتر، كان أدهم ما زال يسير داخل المتاهة في طريقه إلى الغرفة، شاهدهم بيشوي وهم يقتربون منه، ماذا يفعل؟!.. لن يستطيع منعهم، يوجد معهم كبير الحراس، وكلمته لا تسري عليه أبدًا ولا على الحراس في وجوده، فتح باب الغرفة ليتفقد إن كان أدهم قد أتى أم ما زال بالأسفل، كبير

الحراس يقترب، فتح الغرفة وجدها كما هي.. ما زال أدهم في المتاهة، أغلق الباب مجددًا بالمتراس ثم وضع القفل وأغلقه، جاء سامر الذي استغرب عندما شاهد بيشوي يقف بنفسه أمام الباب، وعندما سأله عن السبب أخبره بأن الحارس آلمته معدته فجأة، فاضطر أن يذهب ليتناول عقارًا يخفف من ألمه، أمره بفتح الباب لكنه أجابَ بأن الحارس أغلق الباب بالقفل قبل ذهابه وأخَذَ المفتاح معه، أمر الحراس الذين معه بتهشيم القفل لكنهم بعد عدة ضربات بظهر السلاح لم يستطيعوا كسره، وضع سامر على مسدسه كاتم الصوت كي لا يثير انتباه البروجي وضيفيه ثم صوب على القفل وضغط على زناده فقسمه نصفين، يقف بيشوي بجواره دقات قلبه تتسارع، التوتر يهيمن على الموقف، دفع سامر الباب بقدمه ثم دخل ومن خلفه الحارسان، أمسك بيشوي سلاحه ووضع له كاتم الصوت خاصته ثم هيَّأه في وضع الإستعداد ليطلق عليهم فور دخولهم مباشرة، دخل خلفهم مسرعًا وها هو يرفع سلاحه كي يسقطهم أرضًا لكنه سرعان ما تراجع، فغر فاه من شدة الذهول، لقد حدثت المفاجأة التي لم يكن يتوقعها، وجد أدهم ممددًا على الأرض مُقَيَّدَ الأقدام والأيدي، تنفس الصعداء ثم أعاد سلاحه كما كان، نظر له أدهم وأومأ برأسه مبتسمًا فاستشفَّ بأن كل شيء على ما يرام، فَكُّوا قيودَه ثم اصطحبوه إلى البروجي، رافقهم بيشوي بعدما أخفى كاتم الصوت خاصته.

*****

في طريقٍ ترابي يعلو الغبار الكثيف شيئًا فشيئًا وعلى مدى بعيد، صاح زين الذي يقف على صخرة عالية ليعلن عن قدوم الشرطة، توجه نحوه سهيل ويمان بسرعة ليتأكدوا منهم قبل الإفصاح عن

مكانهم، وعندما تبينت له السيارات أخرج يمان الهاتف وفتحه حتى يجري منه مكالمته الأولى، ما أن فتحه حتى وجد هناك شخصًا يتصل به، أجاب مسرعًا كان اللواء إبراهيم الصغير هو المتصل، سأله عن الوضع فأخبره يمان بأن كل شيء على ما يرام، وأخبره ايضًا بأنهم تمكنوا من إنقاذ الضحايا، مما جعل المهمة أكثر سهولة، لم يعد أمامهم سوى الهجوم على المزرعة والفتك بِمَنْ فيها والقبض على الرؤوس التي تدير هذه المنظمة، الغبار يقترب بسرعة عالية مما يؤكد مدى سرعتهم، سيصلون خلال دقيقتين ليس أكثر، تقدم يمان لينظر فشاهدهم على بعد أمتار من مدخل الجبل، وقفت السيارات تصطف خلف بعضها، ثم تقدمت في الأمام سيارة تبعتها سيارة أخرى من الخلف، تقدمت لتكون متوازية معها تمامًا، نزل منها ضابط طويل القامة ذو بنية جسمانية قوية، يرتدي بدلته العسكرية وعلى رأسه قناع، توجه ناحية السيارة الأخرى التي بدأ يُفتح زجاجها تزامنًا مع وصوله للباب، الذي ظهر منه شخص ذو هيبة عالية جعلت يمان يستشف أن هذا هو اللواء إبراهيم الذي كلَّمَه منذ دقائق، وبجانبه شاب بملابس ملكية عرف لاحقًا بأنه أحمد صديق أدهم، انتهى اللواء من حديثه وختم بقوله.. أنا أضع كل ثقتي بك.. أَعْلَمُ أنك لن تخذلني.. أحضِرْ لي كل مَن في هذه المزرعة، ثم انصرف الضابط بعدما قدم التحية لتتزلزل الأرض من تحت أقدامه متوجهًا إلى الجنود، الذين يصطفون خلف بعضهم البعض بأمر من ضابط آخر ويدعى زياد، النظام والهيبة والشجاعة والحماس يسيطرون على الموقف، تقدم منه الضابط زياد وقدم له التحية ثم تنحى جانبًا، تقدم ذلك الضابط والذي عُرِف بأنه القائد لهذه العملية، ظل يسير أمامهم جيئة وذهابًا ينظر إليهم في صمت، ساد الصمت والهدوء لدرجة أنه بإمكاننا أن نسمع صوت هبوب

الرياح من شدة السكون، وقف القائد ثم التفت إليهم وقال بصوت جهوري:

- لقد جاء بعض زملائي إلى هذه المزرعة من قبل، ولم يعثروا على شيء، جاؤوا لكنهم لا يعلمون شيئًا عن المخابئ والدهاليز التي أسفلها، في كل مرة كانوا يخفقون، اليوم نحن هنا، لكننا نعلم كل شيء عن هذه المخابئ والدهاليز، إما أن نجلبهم جميعًا، أو نُدفَن في هذه الدهاليز، كم منا فقد أخًا له أو أختًا تم خطفهم، كم من بيت تألم وتقطعت قلوب من فيه على أطفالهم الذين فقدوهم، اليوم سنقتلع ذلك الشر من جذوره.

ثم نظر إلى الأعلى حيث يقف يمان وبجواره سجود والبقية في بطن الجبل وتابع:

- لقد سَهَّلُوا أولئك الأبطال علينا عملنا، لقد أنجزوا الجزء الأصعب في العملية، تبقى علينا حصد الرؤوس فقط، اليوم لا يوجد إخفاق، اليوم لا يوجد تراجع، اليوم لن نعود خاليين الوفاض.

ثم التفت إلى سيارة اللواء فوجده قد نزل منها ووقف بجوارها ليتابع هذه الأجواء الحماسية، وخاصة أنه يراهن عليه كثيرًا، أشار إليه ثم تابع للجنود:

- إن سيادة اللواء يراهن علينا جميعًا، إن سيادته أعطاني الثقة الكاملة، وأنتم تعرفون جيدًا بأنني لن أستطيع أن أخيب ظنه أبدًا، حتى وإن كلف الأمر أن أقدم حياتي في سبيل ذلك.

ثم صاح بصوته العالي مجددًا:

- هل أنتم مستعدون لهذه المعركة أيها الأبطال؟.

صاح جميع الجنود بصوتٍ يشعرك بأنهم قادرون على إذابة الحديد وتهشيم الصخور حيث قالوا:

- مستعدون أيها القائد.

ثم خلع الضابط قناعه والتفت إلى الطريق الذي سيصعدون منه إلى الأعلى، اندهشت سجود عندما شاهدت وجهه قائلة في ذهول.. أيهم!.. إنه زوجُ صديقتها؛ الضابط أيهم، من أكفأ الضباط مخلص جدًا في عمله، يحب أن يُتِمَّ كل شيء على أكمل وجه، صعد إلى الأعلى ومن خلفه الجنود متقلدين أسلحتهم، ما أن وصلهم تفاجأ عندما رأى سجود وأخواتها، سألها عن سبب وجودها فأخبرته في عجالة ثم أخبرته عن يمان وبقية الأصدقاء، التفت إلى زميله وأخبره أن يأخذ الضحايا برفقة سجود وزين إلى السيارات المجهزة لعودتهم، بينما توجه هو والجنود إلى المتاهة بصحبة إلياس ويمان وسهيل، نزلوا إلى الأسفل ثم انقسموا إلى مجموعات خلف بعضهم، هيَّأُوا أسلحتهم في وضع الاستعداد وها هو إلياس في المقدمة وها هم يسيرون خلفه.

****

وقف سامر على بعد خطوات منهم ومن خلفه أدهم يمسك به الحراس، كان بيشوي يضع أُصْبُعَه على الزناد، ويجول بخاطره أن يطلق عليهم إن أرادوا أن يلحقوا الضرر بأدهم، بطبيعة الحال لَمْ يَعُدْ يُهِمُّ إنْ قَتَلَهُ الآن أو عندما تأتي الشرطة، لقد أَخْلَوْا سبيلَ

الضحايا لذا لم يَعُدْ لوضاح فائدة، ولكنه كان ينتظر خوفًا على أدهم ليس أكثر، أشار وضاح إلى سامر أن يتقدموا فالتَفَتَ الخواجة برأسه إلى الخلف حتى يشاهد الشخصَ الذي اخترقَ قواعدَ البروجي.

ابتسم الرجلُ وهو ينظر إليه ويقول:

- للمرة الأولى أُقِرُّ وأعترفُ بأنك أَثَرْتَ إعجابي يا أدهم، لقد أردتُ أن أرى الشخصَ الذي اخترقَ قواعدَ البروجي.

ثم رفع له القبعة وتابع:

- أنا أرفعُ لك القُبَّعَةَ تعبيرًا عن إعجابي، ويؤْسِفُنِي.. حقًا يؤسفني أن تموتَ مِيتةً كهذه.

- إذن فأنتَ الجَزَّار.

قال أدهم هكذا وبعدها تفاجأ بشخصٍ يدفعه من الخلف بظهرِ سلاحِه لِيُسْقِطَهُ أرضًا ويقول:

- لا تتحدثْ إلا عندما يَأْذَنُ لك سيدي وضاح.. أيها الوغد.

ضحك الخواجة وهو ينظر إلى أدهم الواقع على الأرض ثم التفت إلى وضاح وقال:

- لديك حُرَّاسٌ رائعونَ يا وضاح.. أهنِّئُكَ على ذلك.

ضحك وضاح وهو يقول:

- إنه بيشوي.. حارسي الصادق.

حملق أدهم إلى بيشوي الذي أمرَ الحُرَّاسَ برفْعِه من على الأرض، فَحَدَّجَهُ بيشوي بنظرةِ ارتيابٍ ثم أشارَ له بعينِه على الحارسِ الخاصِّ للخواجة الذي كان يُعِدُّ سِلاحَه لِيُطْلِقَ عليه، بطبيعة الحال لَمْ يَعُدْ له أهمية.

قال الخواجة وهو يشير للحارس أن يُعِيدَ سلاحه:

- كُنْتَ سَتُضَيِّعُ عليهم وعليَّ ملايين الدولارات.

قال أدهم مبتسمًا بسخرية:

- برأيي أنتم تنتظرون عبثًا.

صاح وضاح في سامر أن يأخذَه إلى الغرفة، أخبره بيشوي بأنه سيصطحبه بنفسه، وبينما هما في طريقهم أخبره أدهم بكل شيءٍ فَحَثَّهُ على أن يسرع خطوته حتى يلحق وينتظرهم داخل الغرفة، كان الحارسان خلفهما بعدة خطوات فأخبره أدهم بأنه يريد سلاحًا لِيَحْمِلَهُ حتى يدافعَ به عن نفسه، دخلوا الغرفة وأمَرَ بيشوي الحُرَّاسَ أن يقيدوه جيدًا، وضع الحراس أسلحتهم جانبًا وها هم يمسكان بيديه ليقيدوه، وضع بيشوي كاتم الصوت لسلاحه ثم صوب عليهم ليسقطهم أرضًا، نظر إلى أدهم وهو يقول.. لقد بدأ الإنتقام يا صديقي، ثم حرره من القيود وفتح باب المتاهة وألقى بهم إلى الأسفل، حمل أدهم أحد الأسلحة وهيَّأَه للإطلاق، خرج بيشوي حتى يقف على الباب إلى أن تأتي الشرطة، بينما نزل أدهم إلى الأسفل لانتظار إلياس والبقية.

في هذه الأثناء توجه البروجي برفقة المُقَنَّعِ والخواجة وطبيبِه إلى القسم الثاني حيث غرفة الخواجة، يَتْبَعُهُم كامل وسامر والحراس

الخاصُّون بالخواجة بأجسادِهم العملاقة يلبسون بدلاتهم السوداء ونظاراتهم، الجميع يتجهون إلى القسم الثاني، شاهَدَهُم بيشوي وهم يدخلون من بوابة المنتصف، كان يدعو أن يأتيَ إلياس قبل أن يعلموا بما حدث وإلا سيذهبُ كُلُّ شيءٍ سُدَى، يقف أدهم في الأسفل يتَنَصَّتُ على صوتِ وقع الأقدام الذي يقتربُ منه شيئًا فشيئًا، كان إلياس على مرمى البصر من أدهم عندما أشار عليه للضابط أيهم ليخبره عنه، تقدم الضابط وصافح أدهم ثم عبَّر له عن امتنانه، نظر إلياس إلى الجثث الملقاة على الأرض فعرفهم، سأل أدهم عن بيشوي فأخبره بأنه يقف أمام الباب.

فتح وضَّاح الغرفةَ ودخل ثم تبعه الخواجة والمُقَنَّع، أخبر سامر أن يُحْضِرَ له الطبيبة سجود فذهب ليحضرها، كان يفتح الباب الحديدي الذي يتجه إلى المتاهة عندما دخل سامر وأخبره بأن سجود ليست في الأرجاء، استغرب وضاح والبقيةُ وأَمَرَهُ بالبحث عنها، ثم أمر كامل بالنزول إلى الأسفل ليتفقدَ وَضْعَ المخطوفين، ذهب كامل ومعه بعض الحراس إلى ناحية الهرم الصغير الذي بجانب غرفة الطبيبة، فتحَ الأقفالَ ودخلَ من الباب ثم نزل على سُلَّمٍ صخري إلى الأسفل، ما أن وصل إلى المخزن حتى وجد بابه مفتوحًا ووجده خاويًا، جُنَّ جُنُونُه وركض مُهَرْوِلًا إلى الأعلى.

صعد أدهم وإلياس إلى الأعلى وفتحوا الباب فابتسم بيشوي وهو يتنفسُ الصعداء عندما رأى إلياس، أخبروه بأنَّ الشرطة في الأسفل ويستعدون للهجوم، دخل مسرعًا وأشار للضابط أيهم فصعد لأعلى وتبعه الجنودُ وبعضُ زملائه، أخبرهم بيشوي بأن وضَّاح قد يكون اكتشفَ ما حدث وعليهم أن يأخذوا حِذْرَهُم، فتح بيشوي البابَ

وخرج ليتفقدَ الوضع حتى لا تكون هناك خسائر في الأرواح، وافقه الضابط على الفور ثم وقف إلياس على الباب مجددًا.

ركض كامل خارجًا من الباب الهرم مهرولًا تجاه غرفة الخواجة، وقف على الباب يلهثُ مما جعل وضاح يندهش وهو يقترب منه، التقط كامل أنفاسه ثم قال:

- لا يوجد أحدٌ بالأسفل، لقد هَرَّبَهُمْ شخصٌ ما.

جُنَّ جُنونُ وضاح ومَن معه فَصرَخ عاليًا بصوته الغليظ:

- كيف حدث هذا؟!، ابحثوا عنهم في كل مكان، كيف استطاعوا الهروب، هناك من ساعدهم من الداخل، أوجِدُوه واجْلبُوه لي.

كان صوته يدوي في الأرجاء مما يجعل جميع من في المزرعة يسمعه، توقَّفَ بيشوي الذي كان يسير في اتجاه البوابة عندما سمعه يقول:

- اللعنة عليك يا أدهم، لقد ازدادتِ المصائبُ مع وجودك، ابحثوا في كل مكان، سأقتلكم جميعًا.. هيَّا.

رجع بيشوي بسرعة إلى الغرفة وأخبرهم بأنهم اكتشفوا كل شيء، تقدم الضابط أيهم ناحية الباب وفتحه ثم خرج وتبعه الجنود، بدأوا ينتشرون في الخارج من بين الأشجار، بينما بقيَ بيشوي في الغرفة حتى خرجوا، بدأ الجنود يتمركزون في أماكن مَخْفِيَّة، تركهم الضابط أيهم تحت قيادة الضابط زياد، وتوجه إلى القسم الآخر للمزرعة برفقة مجموعة من الجنود، كان أدهم واقفًا خلف شجرة يحمل سلاحه، ولكنه لاحظ عدم وجود بيشوي

فرجع سريعًا، شاهده إلياس يركض ناحية الغرفة فتبعه ومن ثَم يمان وسهيل، نزل بيشوي إلى الأسفل بينما دخل أدهم فلم يجده، قرر النزول خلفه ولحقه إلياس الذي يعرف الطريق جيدًا والبقية، لحق به أدهم واستوقفه فأخبره بيشوي بأنهم نزلوا جميعًا إلى المخزن حتى يتأكدوا مما قاله كامل.

في هذه الأثناء كان الضابط أيهم مع وحدته يدخلون من البوابة التي ما زالت مفتوحةً على مصراعيها، صَوَّبَ على الحارس الذي يقف على البرج لِيَقَعَ صَرِيعًا ويدوي صوتُ إطلاق النار في الأرجاء، انتَبَه باقي الحراس وبدأ تبادل إطلاق النار، كان القائد أيهم بارعًا جدًا في إطلاق النار لذلك ما أن يحرك سلاحه تجاه أحد حتى يوقعه أرضًا، سمع وضاح صوت إطلاق النار فأمر سامر أن يذهب ويرى ماذا يحدث، خرج سامر راكضًا ليجد وابلًا من الرصاص في مواجهته، فزع عندما شاهد أشخاصًا يلبسون ملابس عسكرية، رجع مهرولًا ثم نزل إلى أسفل وتبعه أخوه فارس، ركض ليخبرهم بما يحدث والذين ذُهِلوا عندما أخبرهم، التفت لهم وضاح بعدما تيقّنَ بأنهم سيهلكون لا محالة، وفي الوقت نفسه ظل يصرخ ويقول:

- كيف دخلت الشرطة إلى هنا؟!، مَن الذي ساعدهم؟!، مَن؟!.

التفت عندما سمع صوتًا قادمًا من خلفه يقول:

- أنا الذي أدخلتهم، ألم أقل لكم أنتم تنتظرون عبثاً؟.

صاح وضاح بضجر:

- أدهم.. عليك اللعنة، الويل لك يا أدهم، الويل لك.

كان يقف كلٌّ من أدهم ويمان وسهيل بجانب بعضهم البعض يصوبون عليهم مما جعلهم يلقون بأسلحتهم، ولكنه ابتسم عندما شاهد بيشوي وإلياس يأتيان من خلفهم، صاح البروجي بصوته الغليظ وقال:

- بيشوي إقضِ عليهم جميعًا، اقتل هؤلاء الأوغاد، دعهم يتذوقون غضبي.

اقترب بيشوي منهم مُصَوِّبًا على أدهم والبقية، مما جعل البروجي ومَن معه يتنفسون الصعداء، ضحك أدهم مُحْدِثًا قهقهةً عندما أومأ له بيشوي برأسه مبتسمًا، كان البروجي يتقدم بِبُطْءٍ حتى يتناول سلاحه مجددًا، في هذه الأثناء أطلق بيشوي طلقته الأولى ولكنها ليست على أدهم بل على قدم كبير الحراس سامر لتسقِطَه أرضًا مما جعلهم في حالة ذهولٍ، صاح به وضاح غير مصدق قائلًا:

- بيشوي ماذا تفعل؟!، هل جُنِنْتَ؟!، كيف تخْطِئ في التصويب!، هَيَّا اقتلهم.

قال بيشوي وهو يصوب بسلاحه على القدم الأخرى لسامر:

- لست بيشوي، إنما ماجد، ماجد روماني حنّا، أتتذكر روماني حنّا أيها الوغد.

قال هكذا ثم أطلق رصاصته الأخرى فاخترقت القدم الأخرى لسامر ثم تابع:

- وَلِكَم كرهت هذا الوغد، اليوم ستدفع ثمن قتلك لوالدي أيها البروجي.

كان وَضَّاح في حالة ذهولٍ تامٍّ، بينما يَخْتَبِىءُ المقنعُ خلف الخواجة محاولًا الهروب، جاء فارس راكضًا فشاهد أخاه مُلقًى على الأرض غارقًا في دمائه، فصرخ عاليًا وبدأ يطلق الرصاص عشوائيًا دون تركيز، تفرق الجميع وفي هذه الأثناء هرب المقنع، اختبأ كلٌّ منهم خلف صخرة يتابعون إطلاق النار، بينما أدهم لا يهمه شيءٌ سوى ذلك المقنع، هو جواب لجميع الأسئِلة التي تجول في خاطره، أطلق وضاح النار محاولًا تشتيتهم حتى يستطيعوا انتشال سامر، اقترب منه أخوه وهو يطلق النار عليهم، فصوب عليه أدهم فأسقطه أرضًا وهو يقول.. هذه من أجل سجود، ثم صَوَّبَ في منتصف جبين سامر وقال.. وهذه من أجل جميع من خَطَفْتَهُم، صرخ وضاح وظل يطلق عليهم بغضب بينما المقنع يسير في طريقه للهروب، خرج أدهم من خلف الصخرة أنْ يلحقَ به، كان الحارس الخاص بالخواجة يصوب ناحيته، فصوب يَمَان عليه وأسقطه أرضًا تحت أقدام الخواجة الذي بصق عليه وهو يقول.. فاشل، أصبح الطريق ممَهَّدًا إلى أدهم حتى يلحق بالمقنع، ركض خلفه وهو يطلق عليه وابلًا من الرصاص حتى نفَدَت ذخيرته، ولكن أصابته رصاصة في ذراعه أعاقتْ حركته تدريجيًا، ألقى أدهم بسلاحه أرضًا وانْقَضَّ عليه، أخرج المُقَنَّعُ خنْجَرًا وضربه به فجرحه في صدره، رجع أدهم إلى الخلف وخلع قميصه الذي يرتديه ولَفَّه على يده، ظل يهوش له المقنع بالخنجر فانْحنى أدهم إلى الأرض وغَرَفَ حفنةً من التراب وألقى بها في وجهه، بالطبع لم تؤثر عليه كثيرًا بسبب القناع، ركض عليه المقنع حتى يضربه بالخنجر فانحنى أدهم يمنًا ليطيحَ المُقَنَّع، اقتربَ منه وهو يحاول أن يضربه

بالخنجر وها هو يَضْرِبُ فابتعد أدهم قليلًا ثم لفَّ قميصه على يده وضرب يده بقوة فسقط الخنجر على الأرض، ضربه أدهم بقدمه في بطنه فوقع أرضًا، ثم جَلَسَ على صدره وظَلَّ يسدد له اللكمات حتى أصبح شِبْهَ فاقدٍ للوعي، بدأ يحاول فك قناعِه للكشف عن هُوِيَّتِهِ حتى يبدد شكوكه، ها هو يقترب من انتزاعِ القِنَاع ولم يتبّقَّ إلا القليل، جاء كامل من الخلف وأطلق عليه النار فأصابه في ذراعه ، ترك المقنع واختبأ خلف الجدار. في هذه الأثناء نَهَضَ المُقَنَّعُ محاولًا الهَرَبَ، يشاهده أدهم وهو يهرب، آماله في معرفة مَن فعل به كل ذلك تتبخر أمامه، التفت بجواره فوجد الخنجر أمسكه وصوبه ناحية المقنع وقذفه بقوة فانغرس في رجله من الخلف، سقط على الأرض ولكن الخوفَ من أن تُكْشَفَ هُوِيَّتَهُ جعله ينهض ويتابع السير، ظل كامل يطلق النار إلى أن وقع صريعًا، لقد جاء سهيل وصوب عليه في منتصف جبينه ليفارق الحياة، ركض أدهم في الإتجاه الذي ذهب فيه المقنع ولكنه لم يجده وكأنه تَبَخَّر، عادوا مجددًا إلى بيشوي فوجده ينهال فوق وضاح باللكمات بينما يَمَان يضع فوهة سلاحه على رأس الخواجة، توقف أدهم ليتابع هذا الصراع، نهض بيشوي وأمسك بسلاحه مصوبًا على صدر البروجي، الذي ما زال ممددًا على الأرض تسيل الدماء من وجهه، وكيف له أن ينهض بجسده هذا!، جاء عليهم الضابط أيهم بعدما أنهى أمر الحراس بالخارج، بينما بيشوي يضع فوهة سلاحه على قلب وضاح.

صاح به الضابط قائلًا:

- بيشوي.. لا تَفْعَلْ.

صرخ به بيشوي قائلًا:

- لقد قَتَلَ والدي قديمًا، واليوم سأَقْتُلُه.

ردَّ الضابط بصوتٍ متزن:

- صَدِّقْني لن تستفيدَ مِن قَتْلِهِ شيئًا، ولكننا سنستفيدُ كثيرًا إن بَقِيَ حَيًّا.

اقترب منه بِضعَ خطواتٍ ثم وضع يده على كتفه وتابع:

- لن يَحْيَا كثيرًا، صَدِّقْنِي.. لن يَحْيَا كثيرًا.

صرخ بيشوي صرخة عالية ثم قذف السلاح في الجدار الصخري، احتضنه أدهم حتى يُهَدِّىءَ من روعه قليلًا ثم جاءت الجنودُ وأمرهم القائد أيهم بأخذ البروجي والخواجة، صعدوا إلى خارج المتاهة كانت الشرطة قد سيطرت على كل شيء، فُتِحت البوابة الرئيسية ودخَلَتْ منها سيارة كبيرة لنقل العصابة وأخرى حتى يركب بها الضابط والبقية، نزل اللواء من سيارته ووجَّه الشكر والإمتنان إلى أدهم وبيشوي والبقية، واحتضن الضابط أيهم قائلًا له:

- لقد وثقتُ بكَ، وكُنْتَ أهلًا للثقة، لقد فعلناها يا أيهم.

انتهى الأمر وجاء مراسلون من قنوات التليفزيون لتوثيق بعض الأحداث في المزرعة، الأحداث التي كان بطلها شخص واحد ألا وهو أدهم حمدي، تفرقوا جميعًا على وعد أن يجتمعوا مرة أخرى ولكن في مكان ليس فيه أسوار ولا حراس ولا مخطوفون .

رحلت سجود برفقة أختيها مع الضابط أيهم للمنزل، بينما ذهب بيشوي وإلياس إلى البلدة التي يسكنان فيها، ورحل كلًا من يمان

وسهيل وزين إلى ديارهم، وذهب أدهم بصحبة أحمد الذي ما زال يعانقه باكيًا إلى المنزل، المهم أنهم رحلوا جميعًا على خبر سار، لقد وعدهم وزير الداخلية بتكريم يليق بهم وبمكافأةٍ كبيرة في انتظارهم.

في هذه الأثناء كانت أمل تضع ملابسها في حقيبة، ملامحها يسيطر عليها التوتر والخوف، حملت الحقيبة خُفْيَةً إلى الخارج حيث تنتظرها سيارة يقودها شخص لم يتم الكشف عن هويته، دخلت حتى تلقي النظرة الأخيرة على أمها التي كانت في سبات عميق، كانت تودع كل شيء والدموع تغمر وجهها، جميع آمالها تبخرت حيث ودعت المنزل والبلدة جميعًا، والأكثر من ذلك ودعت الأمان والطمأنينة، ما ينتظرها الآن هو الخوف والرعب الذي ستعيشه.

*****

بعد يومين من العودة كان أدهم ينام في غرفته عندما دخلت دعاء تحمل هاتفه في يدها وتوقظه.

صاحت به وهي تفتح نافذة الغرفة وتقول:

- أدهم.. هناك شخص يريد أن يتحدث معك على الهاتف.

استيقظ أدهم وهو ضع يده على عينه حتى تخفف من شدة الضوء وهو يسألها قائلًا:

- مَن؟.

ابتسمت وهي تعطيه الهاتف قائلة:

- دكتور عمرو الليثى...

"تمت بحمد الله وتوفيقه"

"إهداء"

- إلى مَن كان عنده طموح وعافر من أجل الوصول إليه.

- إلى زوجات إخوتي دامت أيامكم عامرة بالسعادة والطمأنينة لما قدمتموه لي من أخوَّة.

- إلى علياء الصغيرة عمَّر الله بابتسامتك الجميلة دارنا، أنتِ دائمًا مصدر بهجتي.

- إلى أدهم ابن أخي أتمنى لك حظًا سعيدًا وأن تكون بطلًا في عالمك.

- إلى أصدقائي الشافعي علي وعمرو الشافعي كنتما داعمين شكرًا لكما.

- إلى عبدالرحمن وجويرية حفظكما الله لوالديكما وبارك فيكما ووالديكما.

- إلى عبدالعزيز أتطلع لك بمستقبلٍ باهر وأن تحقق أهدافك.

- إلى صديقي خالد سعيد دائمًا في ذاكرتي طيب الله ثراك وجمعني بك في جناتٍ نعيم.

- وأخيرًا إلى زوجتي المستقبلية التي لا أعلم عنها شيًا.. أتمنى أن نعيش حياة سعيدة.